مذكرات طبيب

في الأرياف والمدن

بقلم الدكتور

مهاب عاطف سعيد

مذكرات طبيب
المؤلف : د.مهاب عاطف سعيد

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولى : يناير 2019
رقم الإيداع : 2019\3571
الترقيم الدولي : 978-977-769-256-4

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم -
من صبري أبوعلم - عمارة
أنور وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247
ت : 0223963002 (2+)

إهـــــداء

أهدي هذه الذكريات إلى زملائي الأطباء.. القدامى منهم.. والجدد..

إلى زملائي القدامى.. كي يستعيدوا معي ذكريات رحلة امتدت لأكثر من أربعين سنة.. بكل ما فيها من مواقف صعبة ومثيرة.. وطريفة أيضًا.

إلى زملائي وأبنائي الأطباء الجدد.. كي يتعرفوا على ماواجهناه خلال مشوارنا الطويل .. والعقبات والمشاكل التي صادفتنا وكيف تغلبنا عليها.. حتى يستفيدوا منها في رحلتهم نحو المستقبل.

والى كل قارئ يقتنى هذا الكتاب.. كي يعرف مدى ما يعانيه الطبيب من تعب ومشقة.. حتى يكون جديرًا بهذا اللقب.. وبهذه المهنة السامية.

البداية

كانت البداية في صيف 1975 .. بعد أن ظهرت نتيجة الثانوية العامة ونجحت بتفوق وحصلت على مجموع 95.5 ٪.. وبعد إضافة درجات المستوى الخاص أصبح المجموع 102٪!

كان هذا المجموع يثير دهشة كل من يسمعه.. فلقد كانت هذه هي السنة الأولى التي يتم فيها تطبيق المستوى الخاص.. وهو امتحان إضافي في مادتين يضاف مجموعهما على المجموع الأصلي (حاجة كدة زي اضافات البيتزا) .. شيء عجيب فعلا

عمومًا.. كان تفوقي مثار إعجاب الأهل والأصدقاء.. وبعد التهاني والاحتفالات وألف مبروك وطوّلت رقبتنا.. جاءت اللحظة الحاسمة.. لحظة اختيار الكلية التي سيكون لي شرف الالتحاق بها.. جلست مع والداى رحمهما الله.. وكان الإجماع على كلية واحدة.. كلية الطب ما فيش غيرها.. اشمعنى كلية الطب؟.. أولًا لأن مجموعك كبير وكلية الطب بتأخد أكبر مجموع (وكأن مجموع الدرجات هو قدر الطالب الذي يحدد مسار حياته القادمة) .. وثانيًا عشان الدكتور في هذا الوقت .. وربما قبل هذا الزمن بقليل.. كان له سمعة ووزن وقيمة (أصبحنا نتحسر عليها الآن) .. ومن أظرف ما كان يشاع عن الطبيب وقتها.. جملة أن الدكتور =خمسة عين.. وتفسيرها أن الطبيب بعد التخرج بيكون عنده: عيادة-عربية-عروسة-عمارة -عزبة!!

طبعًا اكتشفنا بعد ما اتخرجنا خرافة هذه المعادلة.. وتم اختصار الخمسة عين دول إلى: عيادة في حارة بمنطقة شعبية-عربية نص عمر فاتحة بقها-عروسة جات بعد سلف ودين-عمارة نسكن في شقة فيها بالإيجار- أما العزبة.. فهو اسم الكافية اللي كنت بقعد فيه مع شلة من زمايلى نتريق على الخمسة عين بتاعة زمان!!

المهم أني وافقت على كلية الطب.. ربما لم تكن هذه هي رغبتي .. فقد كنت أحلم بأن أكون مدير عام!!وهي رغبة قديمة منذ أن كنت ألعب مع أصدقاء الطفولة وكنت أتقمص دائمًا شخصية الألفة أو الزعيم كي اتحكم في شئون الرعية!! .. وربما مر بخاطري أحيانًا أن التحق بكلية الهندسة نظرًا لأنى كنت متفوقا في الرياضيات وحصلت على المجموع النهائي فيها

لكني اعترف بأنى لم أكن مصممًا على شيء معين .. نظرًا لقلة الخبرة وصغر السن.. تركت نفسي لمشورة الأهل وقوة دفع المجموع الكبير!.. والآن.. لو عاد بي الزمان إلى الوراء لاخترت كلية أخرى غير كلية الطب خالص.. خالص.. عارفين كنت حاختار اية؟؟.. معهد التمثيل!.. بجد مش هزار.. لأني اكتشفت متأخرًا وبعد دخولي كلية الطب بأني أملك موهبة التمثيل والتأليف.. ظهر هذا في حفلات السمر بالجوالة والمسرحيات التي كنا نمارسها كهوايات في الكلية.. ولكن كان قد فات الآوان .. واتدبسنا في كلية الطب.. منهم لله من لم يكتشفوا فينا هذه المواهب في صغرنا.. كان زماني دلوقتي بكتب (مذكرات ممثل قدير!)

المهم.. كتبت في استمارة الرغبات كل كليات الطب في كل الجامعات (بمجموعي ياكناب.. ايموشن محمد صبحى) .. وظهرت نتيجة التنسيق وجاء ساعي البريد بجواب التنسيق (في هذا الزمن.. كانت النتيجة ترسل في جواب مسجل على عنوان الطالب.. لأنه لم يكن في وقتها نت ولا واتس ولا فايبر.. حتى التليفونات الأرضية كانت دايما معطلة) .. وأصر ساعي البريد أن يأخذ منى الحلاوة قبل أن يعطيني الجواب.. قال وهو منفرج الأسارير كأنه عثر على كنز (دا احسن جواب تنسيق معايا يابيه.. دي كلية طب عين شمس بحالها) .. دفعت له خمسين قرش بحالهم حلاوة.. واستلمت الجواب.. واستعديت لدخول كلية الطب.

إعدادي طب

أول يوم في أول عام بكلية طب عين شمس.. ارتديت أفخر ملابسي وتوجهت إلى كلية العلوم.. نعم عزيزي القارئ أنت لم تخطئ القراءة.. كلية علوم عين شمس .. كانت هذه السنة نحضرها في كلية العلوم وكان اسمها إعدادي طب..

يتولى تدريسنا أساتذة كلية العلوم.. وندرس فيها مناهج كلية العلوم!.. لماذا؟.. لا تسأل.. كانت سنة ضائعة بكل المقاييس.. فهي ليس لها أي علاقة بدراسة الطب البشرى.. والحمد لله أنهم تنبهوا بعد ذلك لهذا الأمر وقاموا بإلغائها.

تخيل يا عزيزي أننا كنا ندرس مواد علم الحيوان (رغم أننا من المفترض أن نعالج الإنسان) .. وعلم النبات.. والكيمياء العضوية والفيزيقية!

تخيل اننا كنا ندرس تشريح الضفدعة.. والأرنب.. بل وتشريح الصرصار.. ولِكم عانينا أثناء تشريح هذا الصرصار .. فلقد كان المطلوب منا أن نفتح بطنة بحرص .. ونخرج أحشاءه بكل عناية .. ونفصص أعضاءه بكل وضوح.. لا شك انك قد شعرت بالقرف والاشمئزاز.. فما بالك بمن يتولى هذه العملية بيدية؟! .. وكان من المناظر المألوفة في سكشن التشريح أن تجد زميلة لنا انتحت جانبا وأخذت تتقيأ قرفا من صرصار كانت تتولى تشريحه وتسليك أحشاءه!..

وفي امتحان آخر العام كان لزامًا علينا أن نقوم بتشريح واحد من هذه الكائنات .. ولكم تمنيت إلا يقع حظى في تشريح صرصار حتى لا اضطر إلى فعصه بالجزمة وأقوم بعد ذلك بتحويل أوراقي إلى معهد البترول!!.. ولكن وجدت أمامي ضفدع ظريف فحمدت ربنا لأن تشريحه أهون من تشريح الصراصير .. شمرت عن ساعداي وقمت بفتح بطنه واخراج أحشاءه بعناية.. وجاءت الممتحنة وسألتني: فين المثانة؟

قلت: أي مثانة؟

قالت: مثانة الضفدعة اللي قدامك

قلّبت في الضفدعة يمين وشمال حتى أعثر على مثانتها فلم اجدها.. وعندئذ قالت الممتحنة: ما تتعبش نفسك أنت قطعتها وأنت بتفتح بطن الضفدعة

اعتذرت عن هذه الجريمة في حق الضفدعة ووعدتها أن احافظ على مثانة أي ضفدع أقابله بعد ذلك في حياتي!!

كنا ندرس أيضًا علم النبات وخصائص الاشجار وانواع الزهور.. وطبيعة الفلزات والمعادن.. وتفاعل المعادلات الكيمائية وكيفية اكتشاف المواد الكيمائية المجهولة .. والحمد لله أنهم لم يفرضوا علينا دراسة تضاريس سطح القمر وطبيعة الصخور البركانية!

أما الشيء الذي أصاب معظمنا بالضيق والإحباط.. هو أن كل هذه المواد كانت تدرس لنا باللغة الإنجليزية.. تخيل طالب قادم من مدارس حكومية درس فيها الكيمياء والأحياء والطبيعة باللغة العربية.. يجد نفسه مضطر إلى الدراسة والتحصيل والفهم باللغة الإنجليزية.. بل وباللغة اللاتينية أيضًا!.. فقد كان لزاما علينا أن نحفظ أسماء النباتات وفصائل الحيوان باللغة الاصلية لها.

ومما زاد الطين بلة.. أنه تم تقسيم الدفعة إلى ثلاث مجموعات .. وجاء نصيبي في المجموعة الثالثة التي تضم بعض الطلاب الأفارقة الذين يدرسون الطب في مصر ولا يعرفون اللغة العربية.. وحتى يفهم هؤلاء الشرح .. كان الأساتذة يضطرون إلى الشرح والتحدث بل وحتى التنكيت والألش بالإنجليزية .. فكنا نعانى كمصريين في فهم كل ما يقال بالإنجليزية .. وكانت بعض الجمل تضيع منا ونحن نهز رأسنا كمن فهم (تقليدا ليونس شلبي في مسرحية العيال كبرت) .. وكم من مرة طالبنا من الأساتذة أن يشرحوا بلغتنا الجميلة حتى نستطيع المتابعة فكان دائمًا الجواب وماذا عن هؤلاء الاجانب المساكين الذين لن يفهموا ما يقال؟؟ .. وهكذا كنا ضحية التقارب المصري الإفريقي!

ولاحظت أن اساتذة الكلية كانوا غير مرحبين بنا.. وكأننا شيء مفروض عليهم .. مجرد عابري سبيل أو مسافري ترانزيت لن يروهم مرة أخرى.. وعليهم أن يتحملوا مغبة تدريسنا حتى ينقضي العام ونختفى من أمام وجوههم.

عمومًا .. انقضت هذه السنة بخيرها وشرها .. وانتقلنا إلى الكلية التي من المفروض اننا طلابها..

كلية طب عين شمس.

كلية طب عين شمس

أول يوم دراسي بكلية طب عين شمس .. الكلية التي سأقضى فيها خمس سنوات قادمة كي أتخرج بعدها دكتور قد الدنيا!

الدراسة في كلية الطب –رغم أنها ممتعة–إلا أنها صعبة وشاقة.. المواد المطلوب دراستها طويلة وتقبل القسمة على اثنين.. يعنى.. المفروض في أول سنة ندرس اربع مواد.. الأناتومى أو علم التشريح (تشريح الأنسان طبعًا وليس الصرصار) .. والفسيولوجي وهو علم وظائف الاعضاء.. والكيمياء الحيوية والفسيولوجي أو علم الخلايا .

ونظرًا لطول هذه المواد وكثرة فروعها التي لا تحتمل أن تدرس في سنة واحدة.. تمت مضاعفة السنة إلى سنتين!.. وبدون اجازة بينهما!.. سنة أولى وهي ممتدة إلى شهر سبتمبر يعقبها امتحان تمثل درجاته 20 ٪ من مجموع الدرجات .. تليها مباشرة – وبدون فاصل ونواصل– سنة تانية حتى شهر يوليو التالي.. حيث الامتحان النهائي في كل مارسناه في السنتين وتمثل درجاته 80 ٪ من مجموع الدرجات .. يعنى من الاخر اشغال شاقة لمدة اثنين وعشرين شهر بلا توقف

زحمة يادنيا زحمة

نعود إلى أول يوم دراسي.. ما أن خطوت اولى خطواتي في الكلية حتى راعنى المنظر بداخلها.. أعداد مهولة تمرح في الحوش الضيق للكلية.. وهو أشبه بشارع أو بمعنى اصح حارة تمتد أمام مبنى الكلية.. ظننت في البداية أني اخطأت ودخلت شارع الموسكى.. تعجبت من هذه الأعداد الضخمة للطلاب.. إذا كان كل هؤلاء سوف يتخرجون أطباء فأين المرضى اذن؟؟.. وأين سيعمل كل هذا الحشد.. وهل توجد مستشفيات ومراكز طبية تسع لكل هؤلاء الأطباء؟؟

ما علينا .. هذا شأن الحكومة.. شقيت طريقي وسط هذا الجمع حتى وصلت إلى مدرج البنهاوى.. وهو المدرج الكبير بالكلية إلى جانب مدرج آخر اصغر منه.. هذا هو المدرج الذي سوف نتلقى فيه محاضراتنا.. دخلت المدرج فانتابني نفس الذهول السابق.. الدفعة كلها محشورة في هذا المدرج.. وصل عددنا إلى ما يقرب من ألفي طالب بعد انضمام دفعة ثانوية IG التي لا يشترط المجموع لدخولها الطب!!. إلى جانب المحولين من كليات الأقاليم بعد قضائهم سنة إعدادي طب هناك.. إلى جانب الباقين من السنوات السابقة.. الفان من البشر محشورون في مدرج لا يسع لأكثر من نصف هذا العدد.. كان المنظر يدعو إلى الضحك .. والضحك بشدة.. جمع من الطلبة يجلسون على سلالم المدرج.. واخرون يجلسون على حافة شبابيك النوافذ.. والباقي يقف على قدمية بين الممرات.. شيء أشبه بحفلات عمرو دياب في مارينا!

هكذا كانت أول صدمة.. الزحام.. الزحام

وحتى نتغلب على هذه المشكلة .. كان البعض يأتي مبكرا قبل المحاضرة بساعة مثلاً .. حتى يحجز مكان له ولزملاء أيضًا .. وحدث مرة أن ذهبت مبكراً إلى المدرج ووجدت بنج (صف بالمدرج) فارغ لا يجلس فيه إلا طالب واحد على طرفة.. وعندما حاولت الدخول والجلوس فوجئت به يقول:

لو سمحت يا دكتور البنج دا محجوز

قلت: يعنى أية محجوز.. هو إحنا في سيما مترو

قال: أنا جاي من الساعة ستة الصبح حاجز البنج لأصحابي

قلت: وهم فين اصحابك دول؟

قال: زمانهم جابيين

قلت: وما يجوش ليه من بدرى زينا وبترزعوا في اماكنهم

قال: مش عاوز كتر كلام.. قلتلك محجوز

وحتى لا يتطور الأمر إلى أسوأ من ذلك انسحبت إلى آخر المدرج ولحسن الحظ وجدت بنج فاضي .. جلست في طرفة وكل من يأتي ليجلس أقوله محجوز.. إلى أن بدأت المحاضرة وانتهت وظل البنج كله فاضي لا يجلس فيه إلا أنا.. ويومها قلت في سرى عشان تبطلوا تحجزوا البنجات وكل واحد يقعد في مكانة.

وياريت الزحام اقتصر على مدرج المحاضرات.. بل أنه امتد إلى سكاشن العملي.

فعندما دخلت إلى مشرحة الكلية في أول راوند عملي لمادة الأناتومى.. فوجئت أيضًا بأنه تم تقسيم هذه الأعداد على عدد الجثث المحدود الموجود بالمشرحة.. كل أربعين طالب على جثة سيتولى النائب أو أحد الطلبة المتطوعين تشريحها ثم القيام بشرح ما فعله للطلاب المحتشدين حوله.. أربعون طالب يتجمعون في دائرة حول الجثة .. منظر أشبه بما يحدث في الشارع عندما يقع مصاب في حادث ويتجمع حوله كل المارة في الشارع حتى يختفى وسطهم تماما..

المهم أنني بحثت عن اسمى في أي مجموعة ثم توجهت إلى مجموعتي وقذفت نفسي وسطهم.. أو بمعنى آخر فوقهم.. كنا نكون هرما بشريا حول النائب الذي يقوم بتشريح الجثة.. وكنت أنا في قمة الهرم.. المسافة بيني وبين الجثة ما يقرب من اربعة أمتار .. النائب يقوم بالشرح على الجثة من خلال فتحة صغيرة أحدثها والمطلوب منى أن أرى شريانا طولة لا يزيد عن خمسة سنتيمترات أو منشأ عضلة لا يزيد طولة عن سنتيمتران.. وان أن احفظ مكانة وموقعة بالظبط بين ما حوله من أوردة وعضلات.. طبعًا مستحيل.. فقد كنت أكاد لا أرى النائب نفسه وهو يشرح.. وأحيانًا لا أرى الجثة نفسها من بين الاجساد المتراصة أمامي.

في النهاية يئست وانصرفت.. وحتى أتغلب.. أنا وغيرى على هذه المشكلة.. كنا ندخل المشرحة مجموعات صغيرة في غير الأوقات الرسمية (بالتفاهم) طبعًا مع عامل المشرحة ويقوم أحد الزملاء بشرح ما تم شرحه صباحًا على الجثة.. شيء أشبه بمجموعات التقوية بالمدارس!

نفس المشكلة قابلتني في سكشن الفسيولوجي أو علم الخلايا.. الزحام.. الزحام

كنا في السكشن حوالي ستون طالبا.. والمطلوب منا أن نتعرف على أنواع الأنسجة البشرية والخلايا.. طبعًا تحت الميكروسكوب .. وكم كان عدد الميكروسكوبات في السكشن؟.. لا يزيد عن ستة ميكروسكوبات!

دخلت إلى سكشن الهيستولوجى وجلست استمع إلى الشرح النظري لخلية اليوم.. وبعد أن انتهي المعيد من الشرح قال: اتفضلوا بقى يادكاترة على الميكروسكوبات عشان تشوفوا شكل الخلية وتحفظوه كويس.. انطلق الطلبة نحو الميكروسكوبيات الموجودة في منظر أشبه

بما يحدث في الافراح عندما يفتتح البوفيه.. ماراثون أوليمبي والكل يريد أن يلحق مكان أمام الميكروسكوب ليدرس شكل الخلية.. عندئذ قال المعيد: مش كدة يادكاترة.. شوية نظام.. اقفوا طابور على الميكروسكوب وكل واحد بالدور!.. قلت في سرى هي الطوابير ورانا في كل حتة.. مش كفاية علينا طوابير الجمعية.. كمان طوابير في الهستولوجى؟!

توجهت إلى المعيد وسألته: لية القسم ما يوفرش ميكروسكوب لكل طالب؟

اتسعت عيناه في دهشة كأنه يرى معتوه أو أبلة .. وقال في سخرية: أنتوا فاكرين نفسكم في جامعة هارفارد.. فين الفلوس اللي نشترى بيها ميكروسكوب لكل راس فيكم.. دا احنا بنلصّم في الميكروسكوبيات الموجودة عشان تستحملكم.. قلت: ايوة بس.. .. . فقاطعني قائلًا: ما تضيعش وقتي ووقتك.. روح اقف في الطابور والحقلك مكان

اخترت اقصر طابور (حوالي اتناشر طالب بس) ووقفت في آخرة.. كل طالب ينظر إلى الشريحة التي بها الخلية نظرة خاطفة لا تزيد عن دقيقة حتى يعطى فرصة لمن وراءه .. وهو وحظة.. لحق يحفظ شكل الخلية ويتعرف عليها يبقى شاطر حينجح.. مالحقش.. يبقى عوضه على الله.. يحفظها السنة الجاية أن شاء الله بس يبقى يركز فيها كويس!

وبعد ربع ساعة من الوقوف اقتربت من الهدف.. الميكروسكوب أمامي لا يفصلني عنه سوى طالب واحد.. إنما طالب رخم.. انحنى على الميكروسكوب ولزق فيه!.. أخذ يتمعن في الخلية وكأنه يتأمل جمال الموناليزا.. وبعد مرور عدة دقائق قلت له: لو سمحت كفاية كدة

قال: استنى لما ادقق كويس

قلت: أنت بقالك ربع ساعة بتدقق.. دي الخلية نفسها زهقت منك

لقيتة راح نادى على المعيد.. أنا قلت حيعيط ويشتكيله منى .. لكني وجدته يقول له: لو سمحت في حتة في الخلية مش واضحة.. رد المعيد: فين دي.. وراح انحنى هو كمان على الميكروسكوب.. وبعد ذلك تبادل الاثنان الانحناء على الميكروسكوب والمعيد يشرح هي ليه الحتة دي مش واضحة وازاي يشوفها بوضوح وكل شوية يقوله: ها.. واضحة دلوقتي.. يقوله: مش قوى.. يقوله: طب اية رأيك كدة.. وكأنها بروفة لبدلة فرح!!

وأخيرًا اقتنع الطالب بوجهه نظر المعيد .. وعندما هم بالانصراف واستعديت أنا للدخول على الميكروسكوب.. صاح المعيد بصوت جهوري:

وقت السكشن خلص.. اتفضلوا عشان السكشن اللي بعدكم يخشوا.

وتكرر هذا الموقف في كل سكشن.. زحام وطوابير نظرًات خاطفة في الميكروسكوب لا تسمن من جوع.. وكان من الصعب التغلب على هذه المشكلة مثلما ما فعلنا في مشكلة المشرحة.. وذلك لأن الميكروسكوبات في عهدة المعيد نفسه.. ومن الصعب أن نتفاهم معه كما فعلنا مع عامل المشرحة.. فكنا نعتمد على ما يلصق في ذاكرتنا مما نراه في السكشن.. أو لحفظ شكل الخلية من الكتاب .. كل واحد وحظه في الامتحان.. إما أن يتعرف على الخلية التي أمامه وتفاصيلها فينال درجة النجاح.. أو لا تسعفه الذاكرة في التعرف عليها .. فتتاح هي فرصة أخرى في العام المقبل!!

مشكلة الكتب

وغير الزحام والطوابير.. كان هناك مشكلة أخرى.. مشكلة الكتب الدراسية.. فالكتب الدراسية في ابتدائي وإعدادي وثانوي كانت معروفة ومحدودة.. حتى الكتب الخارجية كانت أيضًا معروفة لكل تلميذ.. أما الكتب التي من المفروض أن نذاكر منها مناهج الطب فهي غير محددة.. كما أنها متنوعة وكثيرة.. مثلا هناك المراجع الاجنبية الكبيرة مثل جراى في الأناتومى وجانون في الفسيولوجي .. كل واحد من هذه المراجع يزيد عن ألف صفحة.. ومن الصعب أن نلم بكل مواضيع المرجع الواحد لكل مادة.. وكان هناك الكتب الأصغر التي يؤلفها اساتذة المادة.. والمشكلة هنا إنك تجد أحيانًا أكثر من كتاب لأكثر من أستاذ في نفس المادة.. كنا نجد الأستاذ الذي يلقى المحاضرة له كتاب.. والأستاذ الذي يضع الامتحان التحريري له كتاب.. والأستاذ الذي يمتحن الشفوي له كتاب.. وطبعًا كل أستاذ بيركز على (الحتت) اللي موجودة في كتابة ومش موجودة في كتاب آخر.. يعنى ممكن ييجى في امتحان التحريري سؤال إجابته ماتعرفهاش لأنك مش مذاكر من كتاب من وضع الامتحان.. وممكن تخش في امتحان الشفوي وتتسأل سؤال ماتعرفش إجابته.. أو إجابته ماتعجبش الممتحن لأنك مش مذاكر من كتابة.. طبعًا العملية دي كانت محدودة ولكنها كانت بتأثر أحيانًا في مجموع الدرجات.

واضيف أنه كانت هناك أيضًا ملازم اصغر واصغر.. عبارة عن ملخصات لمن يريد أن يوفر وقت و (ينجز) .. وكان معظمها من وضع معيدين وأحيانًا لناس مجهولي الهوية (ممكن يكون طالب هو اللي مجمعها)

وعن نفسي فقد قررت في البداية أن اذاكر من المراجع الأجنبية .. فاشتريت جانون في

الفسيولوجي وبدأت اقرأ فيه.. ونظرًا لصعوبة اللغة كنت اقرأ الصفحة في نصف ساعة.. ونظرًا لصعوبة الأسلوب كنت اذاكر الموضوع في يومين .. طبعًا اكتشفت بعد ذلك أني لو استمريت على هذا النظام .. الأمور حتوسع منى.. وعشان اخلص المنهج كله عاوزلى سنة كمان فوق السنتين .. فاتجهت إلى كتب الاساتذة .. والى خبرة من سبقوني في الدراسة.. كنت أسأل عن موضوع .. أسألهم عن افضل كتاب يشرح الموضوع.. كنت أذاكر من أكثر من كتاب لأكثر من أستاذ حسب الموضوع نفسه .. اختار الكتاب اللي بيشرح الموضوع بوضوح وبساطة.. واعتمد على الله.

طبعًا في نهاية العام كان الأمر شاقا.. عشان الم المنهج كله من أكثر من كتاب .. لكنها عدت والحمد لله .. وجاء وقت الامتحان .. حيث يكرم المرء.. أو يهان ويأخذ بالجزمة!

الامتحانات

الامتحان في السنة الاولى .. وفي كل سنة.. عبارة عن تحريري وعملي وشفوي.

بدأنا بالتحريري في كل مادة.. لم تكن هناك مشكلة .. كل الطلاب يواجهون نفس الاسئلة .. أي أن هناك عدالة في تقييم مستوى كل طالب حسب إجابته.. واركز هنا على كلمة (عدالة) لأننا سنبحث عنها في ما يلى من امتحان عملي وشفوي

انتهيت من امتحانات التحريري وجاء ميعاد الامتحانات الشفوي.. واذا كنا قد تكلمنا عن العدالة في الامتحان التحريري.. فنحن هنا نفتقدها إلى حد كبير في الامتحان الشفوي.

الامتحان الشفوي عبارة عن مواجهة مباشرة بين اثنين.. الأستاذ والطالب.. يقذف الأستاذ بالأسئلة في وجه الطالب.. فيتلقاها ويرسلها اجابات من مخزون ذاكرته

.. وفي النهاية يضع الأستاذ له الدرجة التي يرى سيادته انها تليق به.

وبالطبع هذه المعادلة تتحكم فيها أمور كثيرة تجعل هذا التقييم يعتمد في معظم الأحيان على ضربات الحظ ودعاء الوالدين.

أمور تتعلق بالأستاذ.. وأمور تتعلق بالطالب..

أولى هذه الأمور التي تتعلق بالأستاذ هي شخصية الأستاذ نفسه.. هناك اساتذة متساهلين .. أو بمعنى اصح طيبين .. يلقون دائمًا بأسئلة سهلة في متناول الطالب المتوسط.. كانوا معروفين بالاسم ويابخت من يقع حظة في لجنة احدهم.. يبقى ضمن النجاح..

وعل الجانب الآخر هناك اساتذة مشهورين بالصرامة والشدة التي تصل أحيانًا إلى حد

القسوة.. يتفننون في القاء اسئلة صعبة وغامضة.. ويدخلونك في أدق التفاصيل ويسألون عن فسافس الأمور.. بالمعنى الدارج يعصرون الطالب.. وكان هؤلاء أيضًا معروفين بالاسم .. وياويل من كان يوقعه حظة العاثر أمامهم.

في إحدى اللجان بحثت عن اسمى فوجدته ضمن لجنة أستاذ مشهور بأنه طيب ومسالم وأسئلته خفيفة ودرجاته دايما في العلالي.. فرحت جدا وانضمت إلى زملائي في لجنته وكنا في غاية السعادة.. نتبادل سويا الضحك والقفشات أثناء انتظارنا لدخول الامتحان.. وفي المقابل كان إلى جوارنا لجنة أخرى أستاذها معروف عنه الصرامة والشدة.. ومشهور بصعوبة أسئلته وغموضها.. ودرجاته شحيحة ويضعها بالقطارة.. نظرنا إلى زملائنا المنتظرين في لجنته فوجدناهم في حالة يرثى لها.. شاردون.. متجهمون.. عيونهم دامعة.. يدعون في سرهم ويتمتمون بما تيسر من آيات.. كنا نواسيهم ونشد من ازرهم وندعوهم للصبر على ما بالاهم.

ثاني هذه الامور التي تتعلق بالأستاذ هي مزاج الأستاذ الممتحن.. فاذا كان مزاجه معتدل ورايق ولا يوجد شيء ضايقه قبل أن يأتي إلى لجنته.. فهذا سوف ينعكس على أسئلته التي سيختارها برفق وعلى تقييمه للطالب الذي يمكن أن يكون تقييما معتدلا..

أما إذا حضر صباحًا وهو مش في (المود) .. شيء عكنن عليه مزاجه واصابة بالنرفزة قبل أن يجئ.. فياويل من سيمتحن أمامه.. سيتفنن في إعطائه اسئلة اقرب إلى الطلاسم.. وسيكون تقييمه مثل وشه مهما كانت إجابته.

وكنت شاهدا على هذا في أحد الامتحانات .. فقد دخل أحد الاساتذة للجنة امتحانه وهو مكفهر الوجه وعابس.. نظر إلى الطلبة المنتظرين أمام لجنته نظرة زكى رستم الشهيرة.. كان على وشك أن يقول لهم (جاتكم البلاوى مليتوا البلد) .. ثم اندفع إلى حجرته واغلق الباب .. مضت أكثر من نصف ساعة لم يستدعى فيها أحد للامتحان.. عرفنا بعدها أنه كان يتحدث في التليفون مع شخص ما وكان الحوار ساخنا.. أخيرًا استدعى الطلبة للامتحان.. كان الطلاب يخرجون من عنده يكادوا يبكون.. أما الطالبات فكن يخرجن باكيات بالفعل.. وحمدت ربنا أن لجنتي كانت عند أستاذ آخر غيره وإلا.. كنت بكيت أنا كمان على باب حجرته.

وعلى العكس تماما .. وقع حظي في أحد اللجان مع ممتحن كان في غاية الانشراح.. ما

أن جلست أمامه حتى اخرج خطاب من جيبة وأخذ يتأمله في سعادة.. ظننت في البداية أنه سيلقى عليّ الاسئلة من هذا الخطاب.. ولكنى وجدته ينادى على أستاذة أخرى كانت تمر بجوارنا بالصدفة.. وقال لها في حنان: دا جواب من ابنى.. الحمد لله هو استقر في لندن وباعت يطمني عليه.. هنأته الأستاذة باستقرار ابنة وانصرفت.. وفجأة انتبه إلى أنني أجلس أمامه من عشر دقائق أنتظر الاسئلة.. فقال لي في حب:

قولي يا بني.. تعرف اية عن كذا؟

فأجبته اجابة اعتقد أنه لم يسمع منها شيء لأنه كان مازال هائمًا في أجواء الخطاب.. وبعد أن انتهيت من الإجابة نظر إلى نظرة حنان وقال:

شاطر. برافو عليك.. اتفضل مع السلامة.. ثم وضع الدرجة وانصرفت من أمامه وأنا ادعى لابنة أن يوفقه ويسدد خطاه في لندن.

أما عن الامور التي تتعلق بالطالب وتؤثر على تقييمه تقييمًا صحيحًا.. فهي كثيرة.. اهمها قوة الأعصاب والحالة النفسية أثناء الامتحان.. فامتحان الشفوي يعتمد أساسًا على قوة أعصاب الطالب حتى يستطيع أن يسترجع معلوماته ويرتبها ويعرضها بطريقة واضحة.

اتذكر أنني في أول امتحان شفوي وكان في لجنة الأناتومى.. كادت أن تفلت منى أعصابي.. كان أول امتحان شفوي في حياتي ولم اكن ادرى ماذا افعل.. ومن حسن حظى دخلت إلى أستاذ طيب ومتفاهم.. ما أن لاحظ توتري حتى بدأ يهدأ من روعي.. قال لي مازحًا:

أنت مالك مرعوب كدة ليه.. هو أنا حاكلك.. هم سؤالين تجاوبهم بسرعة وتمشى من قدامي عشان ماتوجعش دماغي.

هدأت وبدأت اتمالك نفسي.. وأخذ يسألني في البداية اسئلة سهلة جاوبت عليها.. ثم تدرج في صعوبة الاسئلة حتى انتهي الامتحان وخرجت من عنده وأنا لا اصدق أنني جاوبت على كل أسئلته.. واكسبني هذا ثقة في نفسي انعكست على كل الامتحانات التي دخلتها فيما بعد.. الله يباركله!

امور أخرى تتدخل في تقييم الطالب.. مثل شكله ومنظرة العام وهيئته.. بل وملابسه التي يرتديها.. فمثلاً في امتحان البكالوريوس كان لزاما علينا أن نرتدى بدلة كاملة وكرافتة.. لزوم الشياكة والبريستيج حتى نرضى الأستاذ الممتحن.. وكان بعض الأساتذة يضعون هذه

النقطة في اعتبارهم عند التقييم!

أمر آخر هو أسلوب الطالب نفسه وطريقة كلامة مع الأستاذ.. ولا ابالغ عندما اقول أن بعض الاساتذة كان يستاء من الطالب الذي يقول له يا دكتور!.. وكان لزاما على الطالب أن يقول له يا سعادة البيه.. وقد قالها أستاذ بمليء الفم: دكتور دي تقولها لصاحبك في حوش الكلية.. أنا هنا بيه.. مع ملاحظة أنه على أيامنا لم يكن لقب باشا منتشر إلا في اوساط رجال الشرطة.. والا كنا اضطرينا نقول للأستاذ ياسعادة الباشا.. طبعًا اللقب أنتشر حاليا بشدة حتى أصبح يقال لسواقين الميكروباص (على إيدك الناصية الجاية ياباشا)

وأخيرًا لا ابالغ أن أقول أن اسم الطالب نفسه ممكن أن يؤثر على تقييمه .. فالاسم يشير إلى دلالات أخرى لا داعى لذكرها يمكن أن تؤثر في عقيدة الأستاذ الممتحن.

وبمناسبة الاسم أذكر واقعة طريفة حدثت لي ولكن في امتحان الدبلوم بعد تخرجي.. كنت في لجنة الفسيولوجي الشفوي.. خرج أستاذ ينادى على أحد الطلبة.. وجدني أمامه فسألني: اسمك اية؟

قلت: مهاب.

. قال: مهيب؟.. أنت تقرب لصدام؟؟

(كان وقتها صدام حسين متورط في غزو الكويت وكان يسمى نفسه مهيب الركن)

قلت ردا على مزاحة: لا ما عرفوش ولا عاوز اعرفه.

ويبدو أن مزاحي لم يعجبه.. فتجهم فجأة وقال وهو يجز على أسنانه:

بقى كدة؟.. ماشي.. حنشوف اية اللي تعرفة في الفسيولوجي بعد شوية.

تركني ودخل حجرته وجلست أنتظر مصيري المجهول واتصور ما ينتظرنى بعد أن ادخل لجنته.. ولحسن حظى أن أستاذ آخر كان قد أنتهي من امتحان طلابه وخرج من حجرته فوجدني أنتظر .. فقال لي: أنت امتحنت ولا لسة؟

قلت بسرعة: لسة

قال: تعالى امتحنك عشان نخلص..

وهكذا نجوت من الأستاذ الآخر الذي كان يتوعدني .. والسبب صدام حسين .. مهيب الركن!

كل ما سبق من امور كانت تؤثر بلا شك على تقييم الطالب.. وبالتالي على درجاته

الكلية.. وبالتالي على ترتيبه وتقديراته النهائية.. وهذه منظومة ظالمة ومجحفة لمعظم الطلاب.. والحمد لله أنهم انتبهوا أخيرًا لهذا الأمر وبدأوا في الاستعاضة عن الامتحانات الشفوية بامتحان MCQ أو الأسئلة ذات الإجابات المتعددة والتي يختار منها الطالب الإجابة الصحيحة.. وهذا يعطى صورة سليمة لمستوى الطالب ويكون تقييمه في اطار العدالة والمساواة.. بعيدا عن اسمه وشكله وعقيدته ومقاس جزمته!!

سنة تالتة

انتقلت إلى السنة الثالثة والتي ندرس فيها اربع مواد.. الفارماكولوجى أو علم الادوية.. والباثولوجي أو علم الأمراض.. والبكتريولوجي أو علم البكتيريا .. والباراسيتولوجى أو علم الطفيليات.

ورغم ضخامة المواد خصوصًا الفارماكولوجى والباثولوجى.. إلا أنه تم ضغط هذه المواد لتدرس في سنة واحدة وليس سنتين كما سبق في اولى وثانية.. وكما هو لاحق في رابعة وخامسة.

وإذا كنت فد تكلمت عن الامتحانات الشفوي ومساوئها.. فإن مادتي الفارماكولوجى والباثولوجى تم إلغاء الامتحانات الشفوي بهما.. فقد رأى أستاذ ورئيس قسم الفارماكولوجى الشهير صلاح عبد التواب أن الامتحان الشفوي يكون فيه أحيانًا مجاملة من بعض الأساتذة لبعض الطلبة ويأخذون مالا يستحقون من درجات .. وهذا يثبت صحة نظرية عدم عدالة الامتحان الشفوي التي تحدثت عنها فيما سبق.. لذلك قام بإلغاء واستبداله بامتحان تحريري قصير.. وكذلك الباثولوجي الذي اقتنع أساتذته بنفس الفكرة واستعاضوا عنه بامتحان العملي..

وبمناسبة ذكر امتحان الباثولوجي العملي.. والذي كان يعتمد أساسًا على الميكروسكوب ومعرفة الشرائح .. وكانت درجاته كبيرة ومؤثرة على الدرجة العامة للمادة.. وحتى لا تتكرر المعاناة السابقة في سكشن الهستولوجى.. فقد قررت ولأول مرة في حياتي أن الجأ إلى درس خصوصي في العملي عند أحد المعيدين.. كنا نتوجه مجموعة صغيرة إلى منزل احدانا.. ويأتي المعيد بالشرائح.. ونأتي نحن بالميكروسكوب وندرس كل شريحة ونحفظها على أقل من مهلنا!! بعيدا عن زحام السكشن وتدافع الطلاب.. وقد ساعدني هذا على أن اتعرف على كل الشرائح التي جاءت في امتحان آخر العام.. شكراً للسيد المعيد.

أما البكتريولوجي والباراسيتولوجى .. فلم تكن الدروس الخصوصية فيهما على نفس القدر من الاهمية نظرًا لسهولة العملي إلى حد ما.. واعتمدت على مشاهداتي ومزاحماتي في السكاشن .. والحمد لله ربنا ستر وعدت على خير.

السنة الرابعة

نجحت في السنة الثالثة وانتقلت إلى السنة الرابعة.. وبدأت الدراسة الاكلينيكية .. أي دراسة الأمراض وتشخيصها على المريض.

في السنة الرابعة ندرس اربع مواد.. النساء والولادة.. والأنف والاذن والرمد (امتحان واحد) .. والطب الشرعي.. والصحة العامة.

بدأت في راوند النساء والولادة.. ندرس الأمراض التي تصيب الجهاز التناسلي للأنثى!.. كان الموقف مهيب بالنسبة لمهاب ولباقي الزملاء.. تحضر المريضة من القسم الداخلي إلى الرواند الذي يحضره اربعين أو خمسين طالب.. ويشرح الأستاذ المرض وأعراضه وطرق تشخيصه وعلاجه.. وعلينا أن نشاهد كل هذا على المريضة.. يا لها من مأساة.. بالنسبة للمريضة طبعًا.

وطبعًا كان من المستحيل أن يتم الكشف على المريضة من قبل خمسين طالب والا.. كانت (فطست) في ايدينا.. فكنا نكتفى فقط بالمشاهدة عن بعد .. وعمومًا لم يكن مطلوبًا منا في امتحان آخر العام أن نقوم بالكشف على المريضة .. يكتفون فقط بسؤال المريضة وأخذ التاريخ المرضى لها.. ثم يأتي الأستاذ ويسأل الطالب في المعلومات العامة المتعلقة بالمرض وطرق علاجه.. شيء اقرب ما يكون إلى الامتحان النظري ولكن في وجود المريضة!

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأنف والاذن والرمد.. لم يكن مطلوبًا منا التعمق في الفحص والكشف على قاع العين وما إلى ذلك.. وكانوا يتركون هذه المهارات لنكتسبها في فترة الامتياز أو عند التخصص في أي من هذه المواد بعد ذلك.

وبالنسبة لمادة الطب الشرعي والصحة العامة فلم يكن بهما مشكلة حيث أن الدراسة بهما اقرب إلى الدراسة النظرية.. وان كان هناك أيضًا امتحانات شفوية وعملية.. كنت اجد فيهما متعة خصوصًا في مادة الطب الشرعي التي عشقتها وأفادتني بعض معلوماتها في عملي كمفتش صحة في الارياف حيث كان يتطلب الأمر الكشف على المتوفيين وتحديد سبب الوفاة .. وهل هو جنائي .. ام لسبب مرضى أو كما كانوا يقولون هناك (موتة ربنا) !

وكما كان الأمر في السنة الاولى والثانية – سنتين متصلتين لا يوجد بينهما يوم راحة– اتصلت السنة الرابعة مباشرة بالسنة الخامسة وبدون اجازة بينهما.. فانتهينا من امتحانات مواد السنة الرابعة ودخلنا مباشرة في خضام السنة الخامسة.

السنة الخامسة

في السنة الخامسة ندرس علم الباطنة والجراحة والأطفال.. وعلى عكس ما كان في مواد السنة الرابعة.. فإن الباطنة والأطفال ينبغي أن نشخص فيهما المرض على المريض من الألف إلى الياء.. أي اننا نأخذ منه التاريخ المرضى ونناقشه فيه ثم نكشف عليه بأنفسنا كشف طبى دقيق حتى نكتشف ما عنده من أمراض ثم تقوم بتحديد العلاج المناسب له.

في راوند الباطنة كان النائب يأتي بالمريض من القسم الداخلي للمستشفى .. ويختار أحد الطلاب لأخذ التاريخ المرضى منه وكتابته فيما يسمه (الشيت–**sheet**) .. ثم يأتي الأستاذ ويناقش الطالب في التاريخ المرضى أو الشيت.. ثم يقوم بتوجيه الطالب للكشف على المريض ويصحح أي أخطاء تحدث ويشرح ذلك لباقي الطلاب.. الذين يقفون بعد ذلك في طابور! للكشف على المريض حسبما شرح لهم.. طبعًا كانت عملية مرهقة بالنسبة للمريض.. وبالنسبة لنا.. فأنت تنتظر إلى أن يأتي دورك لتكشف عليه.. ومن الممكن أن يكون المريض أُرهق فلا يساعدك أثناء الكشف.. ومن الممكن أن يستعجلك من يقف خلفك فلا تتمكن من الكشف كما ينبغي .. ويحدث في بعض الأحيان أن يزهق المريض ويقوم قبل أن ينتهي باقي الطلبة من الكشف عليه.. فما العمل؟؟

كان لزاما علينا أن نجد حلا .. فالامتحان آخر العام لا يرحم من يجهل أو يخطئ في طريقة الكشف على المريض.. امال ازاي حتبقى دكتور؟؟.. ووجدت نفسي مرة أخرى مضطرًا إلى أن أخذ درس في الكلينيكال عند أحد نواب الباطنة.

وكما هو الحال في الباثولوجي بالسنة الثالثة.. كنا مجموعة صغيرة نتوجه إلى منزل أحد الزملاء.. ويأتي النائب.. ولكن بدل الشرائح.. يأتي بالمرضى!! .. نعم.. مرضى محترفون دروس خصوصية .. نكشف عليهم بعد أن يشرح لنا النائب ما ينبغي عمله.. ونعطيهم الأجر المناسب.. دا طبعًا غير أجر النائب نفسه نظير الدرس!

ورغم عدم رضائي عن ظاهرة الدروس الخصوصية.. إلا انها كانت الوسيلة الوحيدة للتعلم الصحيح بعيدا عن راوندات المستشفى التي نتزاحم فيها على أخذ الشيت من

المريض ونتسابق للكشف عليه .

وهناك واقعة طريفة لا انساها حدثت معي في أحد الراوندات .. اختارني النائب للكشف على المريض وأخذ الشيت.. كان ذلك في راوند **Neurolrogy** أو الأمراض العصبية.. وكان الأستاذ الذي يحضر الراوند هو الأستاذ الفنان سمير الملا.. وبعد أن أخذت التاريخ المرضى.. طلب منى الدكتور سمير أن اختبر رد فعل الاعصاب عند هذا المريض وهو ما يسمى **Reflex Knee** .. امسكت بالشاكوش الطبى وأخذت أطرق على ركبة المريض لاختبار رد الفعل.. لم يكن هناك أي رد فعل.. لأنى كنت خائفا ومترددا وكانت خبطاتى رقيقة وحانية.. عندئذ قال لي الدكتور سمير: أنت بتدق مسمار؟.. مرجح معصم ايدك وانزل بتقل الشاكوش على ركبة العيان.. تشجعت.. ومرجحت معصم يدى.. بل أنني في الواقع مرجحت كتفي كله وهويت بشدة على ركبة المريض.. الذي كان رد فعله مساوى للقوة ومضاد في الاتجاه!.. ركل الهواء بشدة ركله كادت أن تطيح بى وبالدكتور سمير.. الذي قال لي: هو أنت ماعندكش حاجة وسط ابداً؟؟..

وهكذا كنا نخطأ ونتعلم حتى نستطيع أن نمارس الطب بالشكل الصحيح.

أما في مادة الجراحة فلم يكن هناك بالطبع ممارسة للعمليات الجراحية بغرض التعلم.. وإلا تحول الأمر إلى مجزرة وليس تعليم.. كانت كل الدراسة عبارة عن الكشف على المريض وتشخيص حالته وتحديد ما يحتاجه من علاج جراحي.

ولعلك تسأل ياعزيزى القارئ كيف يتعلم الجراح العمليات الجراحية؟.. يحدث ذلك أثناء فترة الامتياز وبداية فترات نيابة الجراحة.. حيث يقف مساعدا للجراح الاقدم منه (النائب السنيور) يشاهد ويتعلم.. وبعد ذلك يمارس العملية الجراحية ولكن أيضًا تحت اشراف السنيور حتى يتقنها بنفسه.

وعن نفسي لم أحب تخصص الجراحة لما يتطلبه من مشاهدة وتعلم واكتساب مهارة تأتى بعد مشقة.. واكتفيت بدراسة الجزء النظري منه.

وبالنسبة لطب الاطفال فهو مثل فرع الباطنة.. لكن بالطبع نكشف على الاطفال المرضى وتأخذ التاريخ المرضى من امهاتهم.. كان هذا الأمر اصعب نظرًا لصعوبة الكشف بدقة على الطفل خصوصًا إذا دخل في نوبة بكاء ورفض الكشف.. وإن كان الأمر لا يخلو من طرافة ومتعة التعامل مع الأطفال.

امتحان البكالوريوس

ومضى العام ووصلنا إلى نهاية السنة.. امتحان البكالوريوس.. وهو عبارة عن تحريري وشفوي.. وكلينيكال.. أي الكشف على الحالات المرضية وتشخيصها ومعرفة طرق علاجها.. وهو امتحان له قواعد واسس خاصة.

اولها البدلة الكاملة.. فصّلت بدلة واشتريت كرافتة مناسبة استعدادا لهذا الامتحان .. بدأنا بامتحان الباطنة.. الطالب يمتحن على ثلاث حالات.. أي ثلاث مرضى .. حالة منهم لونج أي طويلة.. نأخذ منها التاريخ المرضى بالتفصيل ونكشف عليها ونشخص مرضها .. وحالتين شورت.. أي مجرد أخذ تاريخ مرضى قصير وكشف سريع.. ثم يأتي الأستاذ ويمتحن الطالب في ما توصل إليه مع كل حالة.

وحتى أعطى صورة واضحة عن المرضى الذين نمتحن عليهم .. فهم في الغالب مرضى مزمنون.. أي يعانون من أمراض مزمنة.. وسبق لهم الدخول مرارا في اقسام الباطنة والجراحة.. ومعروفون للنواب الذين يستدعونهم من القسم أو من منازلهم وقت الامتحان.. معظمهم يعرف تشخيص مرضه.. بل وخطوات الكشف الطبي بل والعلاج أيضًا.. و.. باللغة الأنجليزية

وهذا ليس بمستغرب لأن هذا المريض يكون قد مر على أكثر من راوند.. وأكثر من درس خصوصي كما سبق وذكرت.. وعلى أكثر من امتحان.. وسمع مرارا وتكرارا اعراض مرضه وطرق تشخيصه وبالتالي حفظة بالإنجليزية .. ولعل فيلم (طالع النخل) للمخرج محمد فاضل هو اقرب فيلم صور هذه الفئة من المرضى.

وطبعًا أصبح هؤلاء المرضى محترفون .. يعتبرون مرضهم سبوبة يكتسبون منه دخل محترم سواء في الدروس الخصوصية أو في الامتحانات.. وكل مريض له تسعيرة لابد أن يدفعها الطالب .. وبعد دفع المعلوم.. يبدأ المريض في إملاء الطالب تاريخ مرضه بالإنجليزية .. ثم يقوم بتلقينه خطوات الكشف الطبي عليه لاكتشاف ما به من العلامات المرضية.. ثم التشخيص النهائي وبالإنجليزية أيضًا.

وبعد ذلك يأتي الأستاذ الممتحن بعد انتهاء الطالب من الكشف وكتابة التاريخ المرضى.. ليسأله في أسباب المرض وطرق تشخيصه وكيفية علاجه.. أسئلة معظم إجاباتها عرفها الطالب من المريض قبل أن يأتي الأستاذ .

وبالطبع يتصادف أحيانًا أن يمتحن الطالب على مرضى لا ينتمون إلى فئة المرضى المزمنين التي ذكرتها.. دخلوا حديثا للعلاج بالقسم ولم تمض عليهم فترة طويلة ليحفظوا تشخيص مرضهم وطرق علاجه.

وقد وقعى حظى في امتحان الباطنة اللونج مع أحد هؤلاء المرضى.. كان محجوزا في قسم الباطنة منذ أقل من أسبوع.. دخلت عليه دخلة نجيب الريحاني على المهراجا الهندي.. ممسكًا في يدى بالورقة المالية الوّح بها أمامه .. وما أن بدأت معه الحديث حتى قلت: أنت عارف عندك اية ياحاج؟

قال: أنا تعبان يابية

قلت: أيوة يعنى عارف تشخيص مرضك

قال: أزاي يعنى؟

قلت: يعنى عارف الـ **diagnosis**

قالي: عة؟.. مين؟؟

فهمت أنه مريض طياري حديث العهد بالامتحانات.. وضعت النقود في جيبي كما فعل الريحاني عندما اكتشف أن المهراجا مزيف.. واستعنت بالله وقمت بالكشف عليه حسبما تعلمت ودرست .. واستطعت بعد مجهود أن اشخص المرض الذي يعانى منه .. واتى الممتحن وسألني بضع اسئلة والحمد لله عدت على خير.

ومن الطرائف التي حدثت معي ونادرًا ما تحدث مع أحد.. أني دخلت في امتحان الباطنة على الحالة الشورت وكان يعانى من تضخم الكبد والطحال نتيجة بلهارسيا.. وكان من المرضى المحترفين .. طلب منى مبلغ كبير.. أعطيته ما طلبة مني حتى (لا يتوهني) في تشخيص مرضه!.. وأملاني كل شيء على اصلة .. وبعد أسبوعين جاء ميعاد امتحان الجراحة الكلينيكال.. دخلت الامتحان وفوجئت بأن الحالة اللونج هو نفس المريض الذي امتحنت عليه (شورت) في الباطنة نظرًا لأن مرضه مشترك بين الباطنة والجراحة.. يعنى البية بعد ما يسلت أيده من امتحانات الباطنة ويلم الغلة.. يطلع على امتحانات الجراحة عشان يكمل النحتاية!.. طبعًا ما كانش فاكرني .. معذور لأن طلبة كتير امتحنوا عليه.. أول ما دخلت عليه قالي ايدك على كذا.. قلتله مافيش غير كذا.. قالي ماينفعش.. قلت له لأ ينفع ومامعييش غيرهم .. طبعًا كنت متطمئن عشان عارف مرضه من امتحان الباطنة.. وأخيرًا

وافق على اللي عرضته عليه ووفرت يومها مبلغ محترم دخلت بيه السينما بالليل واتعشيت في وسط البلد مكافأة ليا على نصاحتي!

واقعة أخرى طريفة حدثت معي في حالة الجراحة الشورت.. كان المريض (نصف محترف) .. أي أنه حديث العهد بالدروس والامتحانات.. انضم إلى فرقة المرضى المحترفين منذ بضعة اشهر ويادوبك لقط كلمات الشيت والاعراض والعلامات المرضية بالعافية والشبة!

بدأنا الحديث بعد أن (عكمته) المعلوم.. ابتدأ يقولي كلام (شبه إنجليزي) وأنا اقوم (بالترجمة) .. يعنى يشاور على جبهته ويقولي هاى فرفر.. فانا افهم أنه يقصد – **High f ver** ويقلب عينه ويقولى نو جوز.. يقصد **no jaundice** .. يمد رجلة ويقول (أديمة) .. يقصد**Edeama** وهكذا مضى الوقت بين البرطمة والترجمة حتى انتهينا (بالعافية) وأتى الممتحن وربنا ستر.

في امتحان الاطفال كان الموضوع اسهل.. من الناحية المادية طبعًا .. فلم يكن هناك (اتاوة) تدفع للطفل ولا لأمة طبعًا التي ترافقه.. مجرد أن نحضر معنا بعض الحلوى أو لعبة صغيرة نعطيها للطفل قبل أن نبدأ في الكشف عليه حتى (يرضى عنا) .

واذكر أني اخرجت من جيبي باكو بسكوت شمعدان ومصاصة وأعطيتها للطفل.. الذي نظر إلى في لامبالاة وأدار وجهه للناحية الاخرى.. فأخذت امة منى البسكوت والمصاصة ووضعتها على رف بجانبها.. وعندما القيت نظرة على الرف وجدت اصنافا من الشكولاتة المحلية والمستوردة التي احضرها من امتحن قبلي.. خجلت من نفسي وفهمت سبب نظرة الطفل الساخرة لي.

وأخيرًا.. انتهت امتحانات البكالوريوس بكل خيرها وشرها.. التحريري منها والشفوي والكلينيكال.

كلمة لابد منها

لعلى فضلت أن أشرح (بعض) ماكنا نعانيه في تلك الامتحانات.. وعلى مدار سنوات الكلية.. أشياء لم تكن بإرادتنا سواء في الامتحانات الشفوي وغياب عنصر العدالة والمساواة في درجاتها وتقييمها للطالب.. أو امتحانات الكلينيكال وتدخل عنصر الحظ والتوفيق

فيها.. وهذا بالطبع لا يعطى مؤشرا حقيقيا لمستوى الطالب .. وكم من طلبة متفوقين خانهم الحظ في امتحان شفوي أو جانبهم التوفيق في امتحان الكلينيكال فلم ينالوا ما يستحقونه من تقدير لتفوقهم.. وعلى الجانب الآخر نرى بعض الطلبة ابتسم لهم الحظ في امتحان شفوي سهل عند أستاذ متفاهم.. أو تصادف أن امتحنوا الكلينيكال على حالات لمرضى محترفين أملوهم ما يحتاجون من أجوبة (ولا ابالغ عندما اقول أن بعض المرضى المخضرمين يعرفون الاسئلة التي دائمًا ما يسألها الأستاذ الممتحن ويلقنوها بالأجوبة للطالب قبل أن يأتي هذا الأستاذ!)

لهذا.. فإن نتيجة البكالوريوس لا تعبر في معظم الاحيان عن مستوى الطالب الحقيقي.. أضف إلى هذا طريقة التعليم نفسها التي تتأثر بالأعداد الكبيرة للدفعة.. ونقص ادوات ومستلزمات المعامل .. والفقر في امكانيات السكاشن والراوندات .

كل هذا يتسبب في تخريج أطباء دون المستوى.. والطالب معذور ليس له ذنب في كل هذا.

وعن نفسي فقد نجحت في البكالوريوس بتقدير جيد.. وهو ما يقال عنه التقدير (الشعبي) نظرًا لأنه تقدير الغالبية من الدفعة.. وعندما اقيّم مستواي بعد البكالوريوس.. فأنا نظريًا وعلميًا على مستوى لا بأس به من معلومات طبية .. أما عن المستوى العملي والمهني فأنا في حاجة إلى تدريب وممارسة حتى اكتسب خبرة الطبيب المعالج.. وهذا ما كان ليتحقق إلا في سنة الامتياز.. السنة التي يبدأ فيها الخريج الممارسة الفعلية لمهنة الطب تحت إشراف من هو أكبر منه وأكثر خبرة.

فإلى سنة الامتياز

سنة الامتياز

سنة الامتياز هي اجمل وأمتع سنة مرت علينا كأطباء.. لم يكن بها أي مسؤولية علينا كأطباء امتياز.. فالنائب هو المسؤول عن كل شيء وطبيب الامتياز مجرد منفذ لتعليماته.. يؤدى ما يطلب منه ولا يُسأل عن أي نتيجة غير متوقعة.

قُسمت دفعتنا إلى نصفين.. النصف الأول يقضى فترة الامتياز كلها في مستشفى الدمرداش .. والنصف الثاني يقضى فترة امتيازه في أي مستشفى تعليمي يختاره .. كنت من النصف الثاني واخترت مستشفى الساحل التعليمي .. نظرًا لقربها من منزلي ولسمعتها الطيبة إلى حد ما.

في البداية كنت غير راضي عن ذلك.. كنت كغيرى نفضل قضاء فترة امتيازنا في مستشفى الدمرداش.. لأنها مستشفى جامعي تعليمي بها نخبة ممتازة من الاساتذة والمدرسين ذوى الخبرة والكفاءة.. ولكن مع مرور الوقت اكتشفت أني محظوظ لكوني قضيت فترة الامتياز في مستشفى الساحل.. فمعظم زملائي ممن كانوا في الدمرداش كانوا غير راضيين.. لم يكن التعليم على المستوى الذي كانوا يظنونه .. معظم الأساتذة والمدرسين الكبار مشغولين بأعمالهم الخاصة ولا وقت لديهم لتعليم الأطباء الجدد.. الذين يتلقون معظم تعليمهم من النواب المقيمين.. الذين هم بدورهم مشغولون جداً بعبء العمل الضخم الملقى على عاتقهم.. من تحضير للمرضى والاشراف عليهم بالقسم.. إلى الكشف بالعيادات الخارجية واستقبال حالات الطوارئ وغيرة.. مما لا يتيح لهم فرصة حقيقية للتفرغ لتعليم أطباء الامتياز.. هذا إلى جانب الأعمال دون المستوى التي كانت تسند إلى أطباء الامتياز وتتسبب في ضيقهم.. مثل إحضار أكياس الدم وتوصيل المرضى لعمل الفحوصات والسهر بجوارهم لملاحظة حالاتهم .. وغيرها من اشياء تضيع وقتهم هباء بدون استفادة.

أما في مستشفى الساحل فكان الأمر مختلفا.. الأساتذة والنواب إلى حد ما متفرغون.. ولا يبخلون علينا بالعلم والمعلومات.. ويعطوننا حرية في التعلم والممارسة.. التي كانت تصل أحيانًا إلى حد المجازفة!

قُسمت سنة الامتياز على كل الاقسام.. كل قسم نمضى فيه شهرين.. الباطنة والاطفال والجراحة والاستقبال والنساء والولادة.. إلى جانب تخصص يختاره كل طالب حسب رغبته.. وعن نفسي اخترت تخصص المسالك البولية.. لية.. معرفش!

البداية أطفال:

أول قسم عملت به في أول شهرين هو قسم الاطفال .. لبست البالطو في أول يوم واستعديت لبدأ العمل كطبيب.. دخلنا العيادة الخارجية.. حوالي خمستاشر طبيب امتياز.. كان الموقف عصيبا.. أول مرة أواجه الحالات المرضية واكشف عليها كي اشخصها واكتب لها العلاج المناسب.

حضر نائب الأطفال قبل أن نبدأ في الكشف.. وشرح لنا باختصار ما يجب أن نفعله .. كلام نعرفه ودرسناه نظريًا.. المهم هو العملي!.. والاهم هو العلاج.. كم الادوية التي لم نكن نحفظ معظمها بالأسماء التجارية.. ذكر لنا سيادته بعض أسماء بعض الادوية التي غالبا ما تستخدم في علاج الحالات الشائعة للأطفال .. وفي النهاية قال لنا بكل ترحاب: اللي تقف معاه أي حالة ييجى على طول يعرضها عليا وأنا اشوفها بنفسي.

والآن.. حانت اللحظة الحاسمة.. يفتح الباب ويدخل الاطفال المرضى مع امهاتهم .. فُتح الباب ووزع النائب الاطفال على كل طبيب منا.. كان نصيبي طفل ممتلئ يبدو عليه الهدوء والاستسلام.. وكانت أمة معه .. فتحت فمي بصعوبة وقلت لها .. خير يامدام بيشتكى من اية؟

قالت: بيتبرز دم!

دم؟!.. يا لها من مأساة.. طفل في الثامنة من عمره بينزف دم؟!.. أخذت استرجع كل معلوماتي الطبية التي درستها عن أسباب هذه الظاهرة.. اسعفتنى الذاكرة بالعديد من الاسباب.. سألت الام بعض الأسئلة الاسترشادية فلم تعطني اجابات مفيدة .. كشفت على الطفل فلم اكتشف أي شيء غير طبيعي .. ما العمل اذن؟.. لا استطيع أن اشخص الحالة وأصل إلى سبب حقيقي لها.. ضربت لخمة.. ولم اجد مفرا من أن اذهب بالطفل إلى

النائب لأستشيره.. اصطحبت الطفل وامة وذهبت إلى النائب فلم استطع الوصول إليه.. كان أمامه طابور طويل.. تقريبًا الخمستاشر طبيب كل واحد واخد الحالة اللي معاه ورايح يعرضها على النائب!

وقفت لا أدري ماذا أفعل.. وبدأت الأم تنظر لي نظرًات شك وارتياب.. هداني تفكيري إلى حل سحري .. طلبت من الأم أن تذهب بالطفل إلى المعمل لعمل تحليل براز وكتبت لها التحليل المطلوب في التذكرة وانصرفت.. وانصرفت أنا ورائها من العيادة وجلست في حديقة المستشفى.

أول حالة لي في عالم الطب افشل فيها؟!.. لكن هل فشلت فعلًا؟؟.. لابد أن تقرير المعمل سوف يأتي بالسبب المباشر.. ويمكن بعدها أن نحدد العلاج.. أعطتني تلك الفكرة قوة دفع .. رجعت إلى العيادة مرة أخرى ولكنها كانت فارغة.. انتهي العمل وانصرف الأطباء والمرضى بالطبع.. ما مصير أول حالة لي؟؟.. الله اعلم.

قررت أن اعتمد على نفسي ولا أنتظر أحدا.. اشتريت كل كتب الكلينيكال في الكشف على الاطفال.. وكذلك كتب الادوية التي تستخدم في العلاج واسمائها التجارية.. وشيء فشيء.. بدأت اكتسب الثقة والخبرة.. كنا كمجموعة أطباء بالساحل نتسابق على الكشف على الحالات.. وكنا لا نخجل من سؤال النائب أو الأخصائي عن أي حالة (تعصلج) معانا.. وإذا لم اتمكن من الوصول للنائب كنت أعود إلى منزلي وافتح الكتب الطبية وأراجع المعلومات المتعلقة بهذه الحالة حتى لا أخطئها مرة أخرى.

وعندما أوشك الشهران على الانتهاء .. كنت وصلت إلى درجة لا بأس بها من التمرس.. كنت استقبل حالات الأطفال بكل جرأة واقدام.. اكشف عليها واشخص معظمها.. واكتب لها العلاج المناسب.

قسم الجراحة:

وبعد انتهاء شهري الأطفال جاء الدور على قسم الجراحة.. شهران في قسم الجراحة.. كان المطلوب منا أن نستقبل الحالات .. ونعرضها على نائب الجراحة حتى يحدد ما يلزم لها .. وبعد اجراء الجراحة اللازمة نتولى متابعتها والاشراف على علاجها بالمحاليل وخلافة.

وكما ذكرت سابقا.. لم يكن لي ميل لممارسة الجراحة.. فلم يكن يستهويني الدخول إلى غرفة العمليات إلا من اجل (الفرجة) والمعرفة فقط.. بعكس غيرى ممن كانوا يميلون إلى

هذا التخصص.. . فكانوا يلحون على نائب الجراحة ليعطيهم فرصة عمل بعض العمليات الصغرى مثل الزائدة الدودية والفتاق.. تحت إشرافه طبعًا.

وكل ما أردت تعلمه هو بعض العمليات البسيطة التي تجرى في العيادة الخارجية .. مثل طهارة الأولاد وإزالة الأكياس الدهنية وفتح الخراريج.. لأن هذه العمليات سوف احتاجها بشدة عندما ابدأ عملي كممارس عام.. والحمد لله كان النواب يتيحون لنا الفرصة للتعلم والممارسة .. فشكرًا لهم.

وكذلك الأمر بالنسبة لقسم المسالك البولية.. لم تستهويني العمليات الجراحية ومارست العمل في العيادة الخارجية والقسم الداخلي فقط حتى اكتسب الخبرة الطبية.

إلى أن وصلنا إلى شهري الاستقبال والطوارئ.

الاستقبال والطوارئ

في استقبال المستشفى امضيت شهرا شاقا وممتعا في نفس الوقت.. نستقبل الحالات الطارئة والحوادث والإصابات بأنواعها.. التعامل مع هذه الحالات يجب أن يكون سريعًا وحاسمًا.. الدقيقة تفرق في حياة المريض.. وأي تأخير في العلاج يمكن أن يتسبب في كارثة.. للمريض .. وللطبيب على السواء!

كم العمل كان كثيرا ومرهقا.. الحالات التي يتم استقبالها في مستشفى الساحل كثيرة.. لأن المستشفى تقع في منطقة شبرا المكتظة بالسكان.. ولا ينقطع استقبال المرضى فيها ليلًا ونهاراً.

كنا أحد عشر طبيبًا وطبيبة في هذا الشهر.. قسمنا إلى ثلاث مجموعات كل مجموعة من ثلاث إلى أربع أطباء.. نعمل في شيفت يتغير كل عشرة أيام.. شيفت صباحى (تركناه للطبيبات) .. وشيفت مسائي ونوبتيه ليلية .. ونعمل جميعا تحت اشراف نائب يتم اختياره للعمل بالاستقبال من أي قسم من اقسام المستشفى لمدة شهر.. وأود أن اذكر أن معظم النواب كانوا يتهربون من شهر الاستقبال ويكرهونه.. لأنه كما سبق وقلت مرهق وشاق.. كما أنه مسؤولية كبيرة ملقاة على عاتقهم.. خصوصًا في موضوع التقارير الطبية.. وهي التقارير الخاصة بالمصابين المحولين من قسم الشرطة إلى الاستقبال للكشف عليهم وتحديد ما بهم من اصابات .. معظم الاصابات تكون نتيجة مشاجرات .. سحجات وكدمات وجروح سطحية وعميقة إلخ.. بعضها صحيح وناتج بالفعل عن اعتداء.. وبعضها مصطنع .. أي أن المصاب احدث في نفسه اصابة أو جرح كي يتهم خصمة زورا بأنه احدث به هذه الإصابة.. ومثل هذه الحالات كثيرة والمطلوب من النائب أن يعرف هل هي إصابة حقيقية ام مصطنعة.. ويحدد أيضًا الفترة اللازمة للعلاج والتي من الممكن أن تحول القضية من جنحة

إلى جناية إذا زادت عن 21 يوم.. يا لها من مشكلة!

جاء نصيبي في الأيام العشر الاولى للعمل في النوبية الليلية .. من العاشرة مساءا إلى الثامنة صباحًا.. وهي فترة لو تعلمون من أحرج الفترات.. لأن المريض الذي يضطر إلى النزول من بيتة والتوجه إلى الاستقبال في منتصف الليل يكون فعلًا في أمس الحاجة إلى المساعدة وحالته لا تحتمل التأخير أو التأجيل.

كنا ثلاثة أطباء نستقبل حالات الحوادث والاصابات وحالات الباطنة والجراحة العاجلة وحالات النساء والولادة.. كان العمل يكون على اشدة من العاشرة حتى الواحدة تقريبا .. ثم تبدأ الامور في الهدوء ونبدأ نحن في التقاط الأنفاس.

معركة في الاستقبال

عملي في قسم الجراحة اكسبني خبرة إلى حد ما في التعامل مع الحالات التي تتطلب اجراء جراحي.. مثل التهاب الزائدة الدودية الحاد والفتق المختنق والقيء الدموي والاصابات المختلفة.. كنت اشخصها بسرعة واستدعى نائب الجراحة النوبتجى ليكتب لها على دخول لقسم الجراحة.

نائب الجراحة عادة يكون بالقسم الداخلي ومن المفروض أن يأتي سريعا في حالة استدعاءه خصوصًا في الحالات الحرجة.. ولكن.. أحيانًا يكون النائب مشغولا مع مريض بالقسم أو أنه في غرفة العمليات يجرى جراحة عاجلة.. فيكون علينا الانتظار حتى ينهي عمله وينزل للاستقبال .

اذكر في مرة حضر إلى الاستقبال شاب مصاب بطعنة مطواة في بطنة بعد مشاجرة مع آخرين.. كان بصحبته ثلاثة من أصدقاءه ويبدوا على الجميع الشراسة والعنف.. ذهبت بسرعة وناظرت حالته.. طلبت من الممرضة أن تركب له كانيولا وتعلق له محلول ملح.. واخبرتهم .. وياليتنى ما اخبرتهم .. أنه يجب أن يدخل غرفة العمليات في الحال .. توجهت إلى التليفون الداخلي وطلبت قسم الجراحة .. ردت على الممرضة وقالت أن نائب الجراحة في غرفة العمليات يجرى عملية زائدة دودية وأمامه نصف ساعة حتى ينتهي.. أُسقط في يدى.. ما العمل.. رجعت إلى المصاب واطمأنيت إلى أن علاماته الحيوية مستقرة ولا يوجد خطر.. واخبرت من معه أن عليهم الانتظار حتى يأتي النائب ليكتب له على دخول للقسم.. إلا أنهم لم يقتنعوا بذلك.. واصروا على دخوله في الحال للعمليات.. وازدادوا في العصبية والنرفزة..

وشمروا سواعدهم استعدادا لتكسير الاستقبال ومعاقبة كل الطاقم الطبي الموجود بحجة تقصيرنا واهمالنا .

وفجأة اتت النجدة.. عن طريق خصم الشاب الذي طعنة.. كان هو الآخر مصابا بجرح قطعي في وجهه وذراعه .. حضر ومعه أيضًا بعض من أصدقاءه .. ما أن شاهدوا أصدقاء الغريم الأول حتى بدأوا في الشجار معهم داخل قسم الاستقبال .. وتحول الاستقبال إلى ساحة معركة بين الطرفين..

إلى أن وصلت النجدة الثانية.. والتي دائمًا ما تأتى متأخرة.. قوة من قسم الساحل اتت بعد استدعائها وطردت الجميع.. وتم انقاذنا من مصير مؤلم.. ونزل نائب الجراحة بعد أن انهي العملية الجراحية وكشف على المصاب وعلى غريمه وكتب لهما على دخول للقسم.. كل في غرفة منفصلة حتى لا يستكملا الشجار مرة أخرى داخل القسم.

سايكو

أما بالنسبة لحالات الباطنة الطارئة التي كنا نستقبلها مثل المغص المعوي والمغص الكلوي والقيء وخلافه .. فكان من السهل تشخيصها .. والعلاج يكون على هيئة حقن أو محاليل وهي متوافرة بالاستقبال.. إلى أن تتحسن الحالة وتنصرف أو تحتاج إلى حجزها بقسم الباطنة.

وأكثر ما كان يدهشني هو الحالات التي نطلق عليها **Psychosis** أو للاحتضار – **Ps chic** .. وهي الحالات التي تعانى من أزمة نفسية تتسبب في ظهور أعراض أمراض أخرى.. وغالبا ما يكون العرض هو الاغماء أو الغيبوبة.

في أحد الأيام .. اندفع شاب نحوى وهو يقول: الحقنا يا دكتور خطيبتي مغمى عليها .. توجهت إلى سرير الكشف فوجدت خطيبته نائمة ويبدو عليها الاغماء.. سألته: من امتى وهي كدة ؟.. قالي: بقالها ساعة ومش عارفين نفوّقها.. كشفت عليها فوجدت أن كل شيء بها سليم.. ضغط نبض حرارة قلب صدر.. كله سليم.. عملت اختبار بسيط عرفت منه انها تصطنع الاغماء.. قلت لخطيبها: ما فيهاش حاجة .. خدها روّحها البيت واعملها حاجة دافئة.

اعترض خطيبها بشدة وقال: اخدها إزاي وهي كدة.. لازم تفوقها.

لم اجد مفرا من أن اجعلها تفوق (بالعافية) .. احضرت خرطوشة نشادر وكسرتها أمام

انفها.. رائحة النشادر النفاذة جعلتها تقفز من على السرير فورا.. اندفع خطيبها قائلًا: حمد لله على السلامة حبيبتي.. صرخت في وجهه قائلة: غور من وشى مش عاوزة اشوف خلقتك .. ودخلت في نوبة بكاء.

طلبت من خطيبها أن ينتظر بالخارج.. وطلبت منها أن تهدأ وناقشتها في هدوء.. فهمت منها انها اجبرت على خطبة هذا الشاب وإنها لا تحبه وتريد الخلاص منه.. وإنه كلما اتى لزيارتها تنتابها حالة قيء وأحيانًا اغماء!

خرجت إلى خطيبها الذي سألني: هو اية اللي تاعبها

قلت بسرعة: أنت!

قال: نعم؟

قلت مستدركا: أنت تأخذها دلوقتي وتروح عشان تنام وتهدى وهي كويسة مافيهاش حاجة وتركتهما يحلان مشاكلهم وانصرفت.

ولادة مستعجلة

المشكلة الوحيدة التي كانت تقابلني في الاستقبال هي حالات الولادة.. لم اكن مارست بعد فرع النسا والولادة وكانت كل معلوماتي فيه نظرية.. كنت بمجرد ما ارى سيدة حامل تدخل من باب الاستقبال يسندها أحد من اقربائها.. حتى اسرع إلى التليفون الداخلي واستدعى نائب النسا النوبتحتى لينزل ويكشف عليها..

إلى أن جاءت الحالة التي أوقعتني في حيص بيص!

كانت الساعة قد اقتربت من الثانية صباحًا.. كنت اجلس في حجرة الاستقبال اغالب النعاس.. عندما اندفع رجل أربعيني إلى الحجرة وهو في شدة الانفعال وقال: الحقنى بسرعة يا دكتور.. مراتي تعبانة جدا.. قلت له بعد ما فتحت عيناي على وسعهما: هي فين؟.. قال: دخلتها جوة في اودة الكشف.

وبدون أن استفسر عن أي شيء آخر.. اندفعت إلى حجرة الكشف وكانت المفاجأة .. الست حامل وفي حالة ولادة.. قلت بسرعة: دي بتولد

رد زوجها: ما أنا عارف انها بتولد امال بتتوحم؟!

قلت: طب حاروح استدعى نائب النسا .

وفي هذه اللحظة.. وقبل أن انصرف.. صرخت السيدة صرخة هزت جدران المستشفى

.. وقالت بصوت متحشرج: الواد راسة نازلة.

تسمرت للحظة ثم قلت: طب أنا رايح انده النائب

اعترض زوجها طريقي وقال: احنا لسة حنستنى.. الحقها يا دكتور بتقولك الواد راسة نازلة.

تحولت إلى لوح من الثلج.. كان زملائي استأذنوا وذهبوا يستريحوا في السكن بعد نوبتجية شاقة وتركوني بمفردي.. وحدى في مواجهة سيدة في حالة وضع.. اقتربت منها والقيت نظرة.. راس المولود فعلًا بدأت تظهر.. ماذا افعل؟.. خطر على بالى أن افعل شيء واحد.. أن أجرى واسابق الريح وأهرب من باب الاستقبال إلى الشارع!

وفجأة جاءت النجدة.. ممرضه الاستقبال أتت بعد أن سمعت صراخ السيدة.. ما أن شاهدت الوضع وشاهدتني اقف مذهولا بلا حراك حتى تفهمت الموقف.. شمرت بسرعة عن ساعديها واندفعت نحو السيدة تساعدها في إنزال المولود.. كان لها بالطبع خبرة في هذه المواقف وعلى دراية بخطوات الولادة.. التفتت إلى وقالت: بسرعة يا دكتور.. ناولني الجفت وهات القطن والفوط.

ناولتها الجفت واحضرت القطن والمناشف.. وأصبح الموقف كلاتي.. هي تقوم بعملية الولادة .. وأنا اساعدها واناولها!

تمت الولادة على خير وجاء مولود جميل.. وعندئذ.. شكر زوج السيدة الممرضة بحرارة.. ثم نظر إلى نظرة ذكرتني بنظرة سعيد ابو بكر في فيلم (لعبة الست) .. عندما عجز الحاضرون عن فهم ما يقوله بالإشارة لأنه أخرس.. وأتى نجيب الريحاني واستطاع أن يترجم ما يقوله.. كانت الممرضة بالطبع هي الريحاني .. الذي انقذ الموقف !

مر شهر الاستقبال بسرعة.. من شيفت ليلى إلى شيفت مسائي إلى شيفت صباحى .. اكتسبت خبرة كبيرة في التعامل مع معظم الحالات الطارئة الجراحية والباطنية.. ماعدا بالطبع حالات الولادة.. بمجرد ماكنت اسمع صرخات سيدة حامل تدخل من باب الاستقبال.. حتى اتوارى واعطى الفرصة لاحد من زملائي لاستقبالها والتعامل معها.

العظام والكسور:

بعد شهر الاستقبال كان ولابد أن نقضى شهرا في طوارئ العظام.. حيث العمل اضعاف مضاعفة

نظرًا لكثرة الحوادث والاصابات في منطقة شبرا المكتظة.. ووفرة المصابين بكسور وشروخ والتواءات وجزوع.. الخ

كنا أيضًا ثلاثة أطباء امتياز نعمل تحت اشراف نواب العظام.. في البداية تعلمنا منهم طريقة الكشف على المصاب والاشتباه في وجود كسر من عدمه.. وطلب عمل اشعة لإثبات وجود ومكان الكسر.. ثم طريقة تجبيس الكسر أو ربط الرباط الضاغط في حالة وجود جزع .. إلى آخرة.

وفي نهاية الشهر كنا اكتسبنا الخبرة اللازمة .. كان النائب يذهب ليستريح في السكن ويتركنا بمفردنا نستقبل الحالات ونتعامل معها. وأي حالة خطيرة نستدعيه فورا ليعاينها بنفسه.

وكما ذكرت كان الزحام شديدا على حجرة العظام خصوصًا في الفترة المسائية .. من السادسة مساءا وحتى الحادية عشر ليلًا.. وذلك لأنها الفترة التي يكثر فيها نزول الناس إلى الشارع وبالتالي تكثر الحوادث والاصابات.. وكان المشهد في حجرة العظام أثناء هذه الفترة كالآتي:

كل طبيب منا مشغول مع مصاب.. واحد يضع جبيرة والثاني يلف رباط ضاغط والثالث يرد كتف مخلوع.. وأمام باب الحجرة ينتظر باقي المرضى دورهم في الدخول.. مصاب يمسك بيده المجزوعة.. واخر يعلق يده برباط إلى رقبته.. واخر يجلس على الأرض ممددا ساقه المصابة أمامه.. والكل يعزف سيمفونية آهات وصراخ وعويل.. منظر يدعو إلى الضحك والرثاء في نفس الوقت.. ولكن ما باليد حيلة في ظل قلة عدد الأطباء.. ووفرة أعداد المرضى والكسور.

النساء والولادة:

وجاء ميعاد العمل بقسم النساء والولادة.. ذلك الفرع الذي كنت أخشاه واحترمه في نفس الوقت!.. والذي كاد أن يتسبب لي في عقدة بعد حالة الولادة اياها في الاستقبال.. لكن الأمر اختلف بمجرد أن بدأنا العمل بالقسم.. حالات الحمل والولادة كانت لا تتوقف.. ما شاء الله.. ستات مصر يضربون عرض الحائط بحملات تنظيم الأسرة والتي كانت على اشدها في هذه الفترة.. وكان اشهرها اعلأن المطربة فاطمة عيد (حسنين ومحمدين) .. وأيضًا اعلأن (حاجة ببلاش كدة) .. إلى آخر هذه الحملات للتوعية بضرورة تنظيم الاسرة وتحديد النسل.. والتي كانت تذهب ادراج الرياح!

كنت لا اصدق مقولة طفل كل 27 ثانية إلا بعد أن عملت في قسم النساء وشاهدت كم حالات الولادة التي لا ينقطع ليلًا ونهارا !

عمومًا هذا اتاح لنا فرصة للتعلم واكتساب خبرة .. في البداية كنا نشاهد.. ثم أصبحنا نساعد النائب في حالات الولادة.. ثم أصبحنا نولد السيدات تحت اشراف النائب.. ثم أصبح النائب يتركنا نتعامل مع حالات الولادة بمفردنا.. ويتفرغ هو لحالات الولادة المتعسرة والقيصرية.

ومع مرور الوقت زالت الرهبة واكتسبت الخبرة المطلوبة وكيفية التعامل مع الولادات.. وكنت أثناء نوبتجيتى استقبل الحالات القادمة من الاستقبال وأحدد موعد ولادتها وكل ما تحتاجه.

وفي أحد النوبتجيات الليلية.. كنت اجلس في القسم وقد قاربت الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل .. عندما فتح باب القسم واندفع منه طبيب زميل وهو يلهث ويبدو عليه الفزع.. قال لي: لو سمحت.. فين نائب النسا؟

قلت له: النائب في اودة العمليات

قال وهو يكاد يبكى: يانهار اسود !

قلت: اسود لية؟

قال: في واحدة في الاستقبال بتولد والقرن طش وأنا مش عارف اعمل معاها اية.

فهمت منه أنه طبيب امتياز جديد من دفعة الدور الثاني.. وهذا هو أول شهر عمل له في الاستقبال.. هدأت من روعة ونزلت معه إلى الاستقبال.. وبعد أن كشفت على السيدة وجدت أن أمامها عدة ساعات حتى تلد.. واوصيت بدخولها إلى القسم حتى تحين ساعتها.

نظر إلى الطبيب الزميل نظرة امتنان وشكرني بحرارة.. تركته وأنا ادارى الضحك.. فقد تذكرت نفسي في نفس موقفة عندما كنت اعمل في نفس هذا المكان من شهرين.

وأنتهي شهري النسا على خير.. تعلمت فيهما الكثير.. كنت قد تعلمت كيفية التعامل مع حالات الولادة الطبيعية.. سواء البكرية أو المتكررة .. وأيضًا كيفية استخدام الجفت والشفاط لإخراج طفل متعسر.

تعلمت أيضًا أن احتفظ بهدوئي وألا أتهور أو اقدم على شيء يمكن أن يحدث مضاعفات للسيدة الحامل.. هناك حد يجب إلا أتخطاه وان اقف عنده وان احيل الأمر إلى من هو أكثر

منى خبرة ودراية وتخصص.

تعلمت أيضًا الصبر.. ثم الصبر.. خصوصًا مع حالات الولادة .. كانت السيدة تصرخ وتستغيث وأنت تعلم أن لحظة ولادتها لم تأت بعد.. وان أمامها ساعة أو أكثر .. فلا تستعجل واصبر على رزقك حتى يأتي الميعاد.

كما تعلمت أن اسامح واعفو.. السيدة في حالة الولادة تعانى من ألام الطلق التي لا تحتمل.. لذلك فمن الممكن أن تشتم وتسب أي شخص أمامها بما فيهم الطبيب حتى ينقذها مما تعانيه.. فكنت اتقبل ذلك بصدر رحب وبالابتسام.

كل ذلك أفادني فيما بعد أثناء عملي بالوحدات الريفية كما سأسرد لاحقا.

أخيرًا:

وأخيرًا بقى لي شهران اقضيهما في قسم الباطنة.. وكانا شهران هادئان .. وفي الحقيقة اقتصرت المدة على شهر ونصف فقط.. لأن آخر أسبوعين منهما كانا عبارة عن الاستعداد وتحضير الاوراق لأنهاء فترة الامتياز والاستعداد لخوض مرحلة العمل الجدى الفعلي في عالم الطب.

كلمة لابد منها:

فترة الامتياز هي اهم فترة في حياة الطبيب.. هي الفترة التي يكتسب فيها الطبيب -حديث التخرج - الخبرة والدراية والثقة بالنفس.. ولا ابالغ عندما اقول أن بعض الخبرات التي اكتسبتها في سنة الامتياز استعين بها حتى الآن في عملي.

وللأسف بعض الأطباء الصغار يستهينون بسنة الامتياز ويحاولون (التزويغ) منها للعمل في اماكن خارجية لا تكسبهم خبرة أو علم.. ونصيحتي لكل طبيب حديث التخرج هي الاهتمام بهذه الفترة بقدر الامكان.. ومحاولة الخروج منها بأكبر قدر من التعلم والممارسة.. والتي حتمًا ستفيده بشدة في مستقبله المهني.

التكليف

عندما وُزعت علينا استمارات التكليف والتي نختار فيها بالترتيب المحافظة التي نريد قضاء سنة التكليف بها.. كتبت في أول رغبة محافظة القاهرة نظرًا لأنها المحافظة التي اقيم بها.. وتعلمت فيها.. وتخرجت من جامعتها.. وبالتالي فمن المفترض أن اعمل بها في فترة التكليف.

ولأنه كان يشترط أن نكتب جميع المحافظات بالترتيب في استمارة الرغبات.. فلقد كتبت محافظة الجيزة في الرغبة الثانية .. ثم تلوتها بباقي المحافظات حتى وصلت إلى الرغبة الاخيرة وهي محافظة أسوان.

ظهرت نتيجة توزيع أطباء التكليف على المحافظات.. ووجدت نفسي مكلفا في محافظة أسوان!.. آخر رغبة كتبتها في استمارة التكليف!.

ما هذا؟.. وكيف يحدث هذا؟؟.. وجاءت الإجابة أنه قرار السيد وزير الصحة.. قرر سيادته أن الأطباء الذين تم اعفائهم من اداء الخدمة العسكرية .. يوزعون على محافظة أسوان نظرًا لأن بها عجز في الأطباء (هكذا تصور سيادته) .. أما الأطباء الذين سيلتحقون بالخدمة العسكرية بعد شهور من تكليفهم.. فهم لا فائدة منهم ويتم توزيعهم على المحافظات المكتظة بالأطباء لحين تجنيدهم!

وحيث أني كنت اكبر إخوتي وأُعتبر عائل الاسرة بعد وفاة والدى.. حصلت على اعفاء مؤقت من التجنيد لحين تخرج أخي الأصغر والتحاقه بالخدمة.. لذلك.. كنت ضمن زمرة العديد من الأطباء المعفيين من التجنيد.. والمكلفين في محافظة أسوان حسب فرمان السيد الوزير.

ثار معظمنا على هذا الوضع .. كيف نذهب إلى اقصى الجنوب ونقضى سنة كاملة في محافظة على الحدود مع السودان؟

بدأنا التحرك للإفلات من هذا الفخ.. اقترح بعضنا أن نقدم شهادة مرضية تفيد بمرض أحد الوالدين بمرض مستعصى يلزم معه الرعاية ويتطلب وجود الابن .. أي الطبيب المكلف.. بجواره بصفة دائمة.

لم يرق لي هذا الاقتراح.. كيف ادّعى على والدتي المرض والعجز حتى افلت من التكليف.. عمومًا.. لم يلتفت أحد في وزارة الصحة لمثل هذه التظلمات وتم رفض معظمها.

البعض الآخر استعان (بواسطة) .. من داخل الوزارة أو من وزارات أخرى.. حتى يساعده على إلغاء هذا التكليف.

أخذت بدوري ابحث عن واسطة تطبيقا للمثل القائل (ايه اللي رماك على المر..) .. استعنت بقريب لي يعمل في إحدى الإدارات الصحية.. الذي استعان بدورة بمدير الإدارة الصحية.. الذي استعان بدورة بصديق له في مديرية الصحة.. الذي استعان بدورة بمسؤول في وزارة الصحة.. الذي وعد بإنهاء الأمر ونصحني بعمل تظلم حتى يوصى عليه ويتم إلغاء تكليف أسوان.

فرحت كثيرًا وقمت بتقديم تظلم .. وظهرت نتيجة التظلمات ووجدت اسمى في الكشف وأمامه: قضاء ستة شهور في محافظة أسوان.. وستة شهور في محافظة الجيزة!

رجعت إلى (الواسطة) .. فقال لي أن هذا أقصى ما يستطيع عمله وقال لي بالنص: احمد ربنا انك مش حتقضى السنة كلها في أسوان.. واهو نص العمى ولا العمى كله!

عرفت بعد ذلك من زملائي الأطباء الذين قدموا تظلمات مثلى أن كل تظلماتهم قد قبلت بشرط قضاء الستة أشهر الأولى في أسوان.. والمضحك في الأمر أنهم قدموا تظلماتهم بدون أي واسطة.. أي أن (سلسلة) الوسايط التي استعنت بها لم يكن لها أي دور ولم تفيدني في شيء.

سلمت أمرى لله.. ستة شهور تعدى بالطول والعرض.. ذهبت إلى الوزارة واستلمت خطاب التكليف الذي ينص على ضرورة استلامي العمل في مديرية الشئون الصحية بأسوان يوم أول مارس.

ذهبت للحجز بقطار النوم المتجه إلى أسوان فوجدت أن اقرب حجز بعد ستة أيام نظرًا للإقبال الشديد على السفر بهذا القطار.. وهذا يعنى أني سأصل أسوان يوم سبعة من شهر مارس.

أسوان

وصلت أسوان وسألت عن مديرية الشئون الصحية.. توجهت إلى هناك وسلمت خطاب التكليف وباقي الاوراق المطلوبة.. وجدت هناك عدد غير قليل من الزملاء من مختلف المحافظات الذين ساقهم حظهم مثلى لمحافظة أسوان.. وبعد أن انهينا اجراءات التسلم طلب منا الموظف أن ننتظر لمقابلة السيد مدير المديرية ليرحب بنا.. ويا له من ترحيب!!

دخلنا لمقابلة السيد المدير.. كان وجهه بشوشا وهو يرحب بنا بكلمات الود والترحاب.. وفجأة.. انقلب وجهه إلى العبوس والتجهم وقال بصوت حاسم: أنتوا جيتوا متأخر يادكاترة.. المفروض تكونوا هنا يوم واحد في الشهر.

حاولنا إفهامه أن السفر من مختلف المحافظات إلى أسوان يحتاج إلى وقت للحجز في القطارات .. بالإضافة إلى أن تخليص الاوراق من الوزارة احتاج إلى أكثر من يوم بسبب الروتين وهذا شيء خارج عن إرادتنا.. مع الأخذ في الاعتبار أن آخر يوم عمل لنا في فترة الامتياز هو 28 فبراير ومن المستحيل أن نكون في أسوان في اليوم التالي مباشرة.

اجاب سيادته بنفس الحسم: أنا اسف.. القانون قانون .. مضطر أحولكم للشئون القانونية وابقوا قولوا الكلام دا هناك.

ياله من استقبال رائع.. العمل في مديرية الشئون الصحية بأسوان يبدأ بتحقيق في الشئون القانونية.

اعترضنا كلنا ورفضنا جميعا المثول أمام الشئون القانونية.. فقال سيادته: أنتوا احرار.. وعلى العموم أهلا بيكم في أسوان!

بعد ذلك تم خصم ما يعادل سبعة أيام من راتبنا نظرًا لتغيبنا عن العمل بدون عذر (مقبول) .. وهكذا كانت أول القصيدة كفر.. ولم يقتصر الأمر علينا فقط.. بل على كل الأطباء الذين

توافدوا تباعًا في الأيام التالية.. يتم خصم الأيام التي تأخروا فيها.. لدرجة أن من أتوا آخر الشهر تم خصم شهر كامل من راتبهم!!.. والحمد لله أنهم تغاضوا عن فصلهم نهائيًا من الخدمة التي لم يبدؤوها بعد!!

مستشفى السد

ثاني مفاجأة كانت في انتظارنا هي مستشفى التكامل.. أو كما يطلق عليها مستشفى السد.. وهي المستشفى التي خصصها المسؤولون بالمديرية لتسكين هذا العدد الضخم من الأطباء المكلفين..

تقع مستشفى التكامل جنوب مدينة أسوان بالقرب من السد العالي.. هناك سوف نقيم شهران حتى يتم تدريبنا على الاعمال الفنية والادارية قبل أن نتسلم العمل في الوحدات الريفية.

بعد أن انهينا إجراءات تسلم العمل بالمديرية.. سألنا كيف نذهب إلى مستشفى السد .. كانت الإجابة عن طريق القطار الذي يتوجه إلى السد العالي.. حملنا حقائبنا وتوجهنا إلى محطة أسوان لنستقل قطار السد.. ومن المضحك أن مستشفى السد لا يوجد أمامها محطة ليقف عليها القطار.. ولكن سائق القطار يراعى شعور الركاب ويقوم بالتهدئة أمام مكان المستشفى لينزل فيه من يريد ثم يستأنف سيرة إلى السد العالي !.. يا لها من رحلة!

وصلنا إلى مستشفى السد.. كانت عبارة عن مستشفى مهجورة لا يعمل بها إلا العيادة خارجية.. يوجد بها طبيب واحد وهو مديرها.. إلى جانب عدد قليل من الموظفين والممرضين.. أما الاقسام الداخلية فكانت خالية من المرضى نظرًا لأنه لا يوجد مرضى.. ولا حتى اصحاء في المنطقة المحيطة!

قابلنا مدير المستشفى ووزعنا على حجرات الاقسام الداخلية والتي من المفروض انها حجرات المرضى!.. ومن حسن الحظ أن الحجرات والاسرة والمفروشات كانت جديدة لم تستعمل من قبل.

توالي وصول باقي الأطباء في الأيام التالية حتى وصل عددنا إلى ما يقرب من مائة طبيب.. عدد كبير من أطباء التكليف كان بمثابة مفاجأة للعاملين بمديرية الصحة انفسهم لدرجة أنهم تساءلوا .. حنوزع الأعداد دي كلها فين؟!

المهم.. بدأنا في التدريب.. كنا نذهب يوميًا عن طريق سيارات مؤجرة من قبل المديرية إلى أماكن التدريب المختلفة بالمديرية والمراكز الصحية.. تدربنا على الأعمال الكتابية والإدارية

والوقائية ونظام العمل بالوحدات والمراكز الصحية التي سنوزع عليها فيما بعد.. واشهد انها كانت فترة مثمرة واستفدنا منها استفادة كبيرة ظلت معنا لسنوات عديدة.

وفي المساء كنا ننزل إلى مدينة أسوان للتنزه والفرجة وشراء الطعام.. والحقيقة أن مدينة أسوان مدينة ساحرة.. تمتلئ بالأماكن الاثرية والطبيعية الجميلة.. وكانت الشوارع تمتلئ بالسائحين الذين كانوا يضيفون على المدينة جمالا وبهجة.

تعلمت الكثير في هذه الفترة.. فإلى جانب الامور الفنية والادارية.. تعلمت الطهي! .. كان الطعام في البداية يمثل مشكلة بالنسبة لنا نظرًا لأن المنطقة المحيطة بالمستشفى شبة مهجورة ولا يوجد بها محلات للأكل.. فكنا ننزل مدينة أسوان لشراء الطعام الجاهز أو للأكل في المطاعم .. ولما كان ذلك يكلفنا أموالا كثيرة .. فقد اقترح عليّ زميلي ويدعى (هاني) أن نقوم بطهي الطعام بأنفسنا توفيرا للنفقات.. كان هاني ماهرًا في الطهي ومن النوع اللي (بيعز) الأكل.. اشترينا حلة صغيرة وصينية وبعض الادوات البسيطة.. وبدأنا في شراء الخضار واللحمة أو الدواجن .. وبدأنا في الطهي.. تعلمت من هاني خطوات الطهي بالتدريج.. وقد أفادني ذلك كثيرًا فيما بعد.

كانت الصحبة في مستشفى السد جميلة ومسلية.. كنا نعود ليلًا من فسحة أسوان لنسهر سويًا نتسامر ونتسلى بلعب الكوتشينة والدومينو.. لذلك.. مرت علينا فترة التدريب في سعادة ومرح.

التوزيع

قارب الشهران على الانتهاء.. فاستعدينا للتوزيع على وحدات ومراكز المحافظة .. كان عددنا كما قلت كبيرًا.. واكتشفنا أن الوحدات الخالية من أطباء لا يتعدى عددها أصابع اليدين!.. وباقي الوحدات المشغولة لا تحتاج إلى كل هذا العدد من الأطباء.. مما سيضطر معه المسؤولون في المديرية –بعد أن يسدوا عجز الوحدات الخالية –إلى أن يكدسوا أكثر من طبيب في وحدات لا يحتاج العمل بها إلى أكثر من طبيب أو اثنان!

وبمعنى آخر .. فان سيادة الوزير جانبه الحظ عندما اعتقد أن محافظة أسوان بها عجز شديد .. وإنه قد ورط المديرية بهذا العدد الكبير من الأطباء الذين شاء حظهم العاثر أن يقذف بهم على الحدود الجنوبية.

بدأنا في حصر الوحدات الخالية.. والوحدات التي يطلق عليها (شغالة) أي أن العمل بها

كثير والرزق وفير.

بدأت روح المنافسة تظهر بيننا.. الكل يريد الفوز بالعمل في وحدة صحية شغالة حتى يستفيد ماديًا ويعوض إقامته في هذا المنفى .

وأدرك المسؤولون بالمديرية أن هناك تنافس وتزاحم من الأطباء على الوحدات المميزة يمكن أن يحدث مشكلة.. فاقترح كبيرهم أن يتم عمل اختبار على ما سبق تدريبة في فترة التدريب .. يضاف مجموع درجاته إلى درجات التخرج من البكالوريوس لكل منا.. ثم يتم ترتيب الأطباء حسب المجموع الكلي .. ثم يبدأ اختيار الطبيب للوحدة التي يريدها حسب رغبته.. وحسب الترتيب السابق لكل طبيب.

ادينا الامتحان.. وتم إضافة درجاته إلى درجات البكالوريوس لكل منا.. وتم ترتيب الأطباء حسب هذا المجموع.. كنت في ترتيب متوسط.. لا هو بالمتقدم ولا بالمتأخر.

انعقدت لجنة وبدأت في توزيع الأطباء على الوحدات والمراكز.. كل طبيب يدخل الحجرة حسب ترتيبه ويختار ما يريد من وحدات.. بالطبع دخل الأطباء الاوائل واختار كل منهم وحدة خالية ومميزة حتى انتهت الوحدات الخالية من أطباء.. ثم بدأ اختيار الوحدات التي بها طبيب أو أكثر.. جاء دوري.. دخلت وحسب معلوماتي السابقة نشنت على وحدة صحية بها طبيب واحد ويقال انها وحدة شغالة ودخلها لا بأس به.. اخترتها.. كانت الوحدة الصحية بقرية العدوة.. مركز ادفو.

الرحيل

في اليوم التالي حزمنا حقائبنا وودعنا مستشفى التكامل وتوجهنا إلى المديرية ليستلم كل منا خطاب التعيين ويتوجه إلى إدارته الصحية.. كان هذا اليوم يوافق يوم الخميس.. ولما كان السفر إلى الادارات الصحية البعيدة مثل إدارة ادفو يستغرق أكثر من ساعتين.. لذلك قام المسؤولون بالمديرية بالتنبيه على جميع موظفي الادارات الصحية بضرورة التواجد حتى يصل الأطباء ويتم تسليمهم العمل.. طبعًا علشان ما نوصلش الإدارة نلاقى الموظفين زوغوا على بيوتهم!

ركبت عربة اجرة مع مجموعة من الزملاء الموزعين على إدارة ادفو.. وصلنا مدينة ادفو بعد ساعتين وتوجهنا إلى الإدارة الصحية.. كانت الساعة قاربت على الواحدة ظهرا.. وجدنا الموظفين في انتظارنا وتم عمل اجراءات التسليم واستلم كل منا خطاب موجة إلى وحدته

الصحية التي سيعمل بها.. قابلنا السيد مدير الإدارة الذي رحب بنا والحمد لله أنه لم يقم بخصم أيام من راتبنا كما حدث في ترحيب المديرية!

أخذت خطابي وشرح لي أحد الموظفين كيفية الوصول إلى قرية العدوة.. توجهت إلى موقف عربات الاجرة بمدينة ادفو .. وهي عبارة عن عربات نصف نقل تم تغطية الصندوق ووضع كنب بداخلة ليجلس عليه الركاب.. أصبحت بمفردي بعد أن ودعت زملائي.. ركبت العربة واوصيت من بجواري أن يخبرني عندما نصل العدوة.. كانت أول قرية على الطريق السريع يليها باقي القرى تباعا.. وصلت العربة إلى العدوة فنزلت واستكملت السيارة طريقها إلى باقي القرى.. سألت عن الوحدة الصحية فوجدتها قريبة من الطريق .. سرت إلى هناك .. وهناك .. كانت في انتظاري مفاجأة من العيار الثقيل.

الوحدة الصحية بالعدوة

مبنى الوحدة مبنى قديم عبارة عن دور واحد على شكل حرف T .. سكن الأطباء على اليمين وسكن الممرضات على اليسار.. وفي المنتصف يوجد صف من حجرات الكشف والمعمل والصيدلية.. الخ

حوله حديقة جرداء ومهملة.. لا يوجد بها إلا اعشاب جافة يطلقون عليها (العجول) !

كانت الساعة تجاوزت الثانية ظهرا.. دخلت إلى الوحدة فوجدت الهدوء يشمل المكان.. توجهت إلى سكن الطبيب وطرقت الباب.. خرج لي طبيب الوحدة بالبيجاما.. نظر إلى نظرة متسائلة.. قلت له: أنا الدكتور الجديد وجاي استلم عند حضرتك.

قال وقد اتسعت عيناه من الدهشة: دكتور جديد؟!

قلت: ايوة.. ودا جواب الاستلام.

أخذ منى الجواب وقرأه.. ثم نظر إلى وأنا امسك بشنطتي وقال:

وأنت ان شاء الله حتقعد فين؟

قلت: في السكن

قال بحدة: أنا قاعد في السكن مع مراتي وعيالي.. والسكن الثاني عاملينه مخزن.. يعنى متبهدل وعاوز توضيب

قلت وأنا احول انقاذ الموقف: طب ماتوضبوه

قال وهو ينهي هذا الموقف السخيف: روح قولهم في الإدارة ييجوا يوضبوه.

ثم ناولني الخطاب، ودخل واغلق الباب.

أسقط في يدى.. لا مفر من أن ارجع إلى الإدارة واخبرهم بما حدث.. ما فيش سكن في الوحدة اقعد فيه.. واهي فرصة.. يمكن يقولولي روّح وأعود إلى مدينتي القاهرة التي

أصبحت افتقدها بشدة!

حملت حقيبتي وتوجهت إلى الطريق السريع لأنتظر السيارة المتجه إلى مدينة ادفو.. بعد قليل أتت السيارة .. ركبت ووصلت مدينة ادفو. كانت الساعة قاربت الثالثة.. توجهت إلى الإدارة الصحية فوجدت الموظفين انصرفوا ولا يوجد سوى الفراش.

ما العمل الآن؟.. اليوم الخميس وغدًا الجمعة إجازة رسمية.. ولابد أن أنتظر إلى يوم السبت لحين عودة الموظفين.. وحتى أقابل مدير الإدارة واشرح له ما حدث.

لم أجد حل سوى أن اقضى اليومين في فندق المدينة.. توجهت إلى هناك واستأجرت غرفة .. دخلت القيت بشنطة ملابسي وارتميت على السرير واستغرقت في النوم.

في المساء نزلت اتجول في مدينة ادفو لاستكشفها.. هي مدينة صغيرة ذات طابع ريفي.. بها معبد فرعوني واحد وهو مصدر جذب للسائحين.. شوارعها الرئيسية محدودة ولا يوجد بها سوى بضعة مطاعم شعبية.. تاقت نفسي إلى عشوة كباب وكفتة حتى اغير هذا (المود) المحبط.. سألت على مطعم للكباب فقالوا لي أنه يوجد كبابجى واحد فقط عند محطة القطار.. والوصول إلى المحطة يتطلب ركوب سيارة اجرة تأتى كل حين.. اجلت مشروع الكباب والكفتة واستبدلته ببعض البقسماط والعصائر حتى تمر الليلة .

مر يوم الجمعة في النوم.. والتسكع في الشوارع.. والجلوس على القهوة!

المواجهة

في صباح السبت توجهت إلى الإدارة الصحية .. وما أن وصلت حتى فوجئت بالمنظر .. معظم زملائي الأطباء المكلفين في ادفو حضروا مثلى إلى الإدارة .. الكل لدية نفس الشكوى.. الوحدات ليس بها سكن ولا امكانيات لاستقبالنا .. الأطباء القدامى بالوحدات قابلوا الأطباء الجدد بفتور واظهروا لهم العداء.. شيء طبيعي لأن الجدد سوف يقاسمون القدامى في رزقهم ومعيشتهم .. كانت مشكلة ما بعدها مشكلة.

دخلت بدوري إلى حجرة مدير الإدارة حتى اقص عليه الموقف السخيف الذي حدث معي في وحدة العدوة.. وما أن دخلت إلى حجرته حتى فوجئت بطبيب الوحدة إياه يجلس معه.. كان الطبيب في حالة ثورة وغضب.. كان يعتقد أنه الطبيب الوحيد في إدارة ادفو الذي ارسلوا له طبيب ثاني نكاية فيه.. وجدته يصرخ ويقول:

اشمعنى أنا اللي يبعتولى دكتور.. مابعتوش لية لباقي الوحدات؟

ضحك مدير الإدارة وقال له: مش أنت بس يا دكتور.. كل وحدات الإدارة راحلهم دكاترة

رد الطبيب: بس أنا متجوز ومراتي معايا.. القانون بيمنع وجود طبيب معايا في الحالة دي رد المدير وهو مازال يضحك: كل الأطباء المتجوزين راحلهم دكاترة.. دا شيء مش بمزاجنا زاد غضب الطبيب وقال: طب حيقعدوا فين دول؟؟

عندئذ مال المدير على اذنة وهمس ببعض الكلمات.. لاحظت أن الطبيب هدأ بعدها وأخذ يفكر في صمت.. وهنا.. تدخلت بالحديث حتى لا افقد صوابي.. قلت للمدير: أنا حاعمل اية دلوقتي؟؟

قال المدير الذي كان يتمتع بالحنكة والدهاء: خلاص يا دكتور.. روح الوحدة والدكتور حيسلمك الشغل.

خرجت من الحجرة يتبعني طبيب الوحدة.. الذي التفت إلى وقال وقد تغير أسلوبه إلى الرقة والمودة: ماتزعلش منى يا دكتور.. أنا بس فوجئت بيك جاي.. كان المفروض ينبهونا قبلها عشان نرتب الامور في الوحدة

قلت: طب العمل ايه دلوقتي؟

قال: تعالى نروح الوحدة ونتفاهم

قلت: بس لازم الاول اروح اجيب شنطتى من الفندق

قال: خلاص روح هات شنطتك وأنا حاسبقك على الوحدة .

توجهت إلى الفندق وأخذت شنطتى ودفعت الحساب.. وفي طريقي إلى الوحدة كنت افكر.. ماذا يقصد الطبيب بقولة (نتفاهم) ؟.. وكيف سيحل مشكلة الاقامة؟ .. ولماذا تغير موقفة من العداء إلى المودّة؟.. ترى.. ما الذي همس به مدير الإدارة في اذنة جعلة يتحول إلى قط وديع؟

وصلت إلى الوحدة فوجدت الطبيب في انتظاري في حجرة الكشف.. رحب بي وطلب لي كوب شاي.. اللهم اجعله خيرا .. عرفني على الموظفين الذين يعملون بالوحدة والذين لا يزيد عددهم عن عشرة موظفين.. منهم (خلف) كاتب الوحدة .. و (ياسين) فنى المعمل.. و (عبد الخالق) العامل.

سألت عن الممرضات فصدمتني الإجابة.. لا يوجد ممرضات بالوحدة.. ولا بأي وحدة

أخرى.. لماذا؟.. لأن الأهالي هنا لا يرغبون بعمل بناتهم في التمريض بالوحدات ويقصرون عملهم بالمستشفيات.. ولهذا السبب تم تحويل سكن الممرضات إلى مخزن للروبابيكيا والخردة.

بدأ سيادته في الاعتذار عن المقابلة الجافة التي قابلني بها أول يوم .. قال انها المرة الاولى في تاريخ إدارة ادفو .. بل وفي باقي الادارات .. أن يصل اليها كل هذه الأعداد من أطباء التكليف.. وانها كانت مفاجأة للكل بما فيهم مدير الإدارة .. مفاجأة تسببت في ارباكهم نظرًا لأن وحدات الإدارة لم يكن بها أي استعدادات أو امكانيات لاستقبالهم.

وبعد أن انتهينا من وصلة التعارف والاعتذار.. اعتدل السيد الطبيب في جلسته وقال بجدية: شوف يا دكتور مهاب.. توضيب السكن الثاني عاوز وقت طويل .. وحتى لو وضبناه مش حنلاقى فرش ولا اثاث مناسب ليك

قلت: طب اية العمل؟

قال بصوت هامس: أنت تروح بيتك وتيجي آخر الشهر تقبض مرتبك.. وعليه مصاريف سفرك هدية منى!

فوجئت واندهشت بشدة.. ما هذا العرض؟.. اقعد في بيتنا وأجي آخر الشهر اقبض مرتبي.. وعليه (بونص) كمان؟!..

حاولت أن اتكلم ولكنه قاطعني بسرعة وقال: الشغل هنا مش محتاج لاثنين دكاترة .. والوحدة زي ما أنت شايف ما فيهاش سكن مناسب.. ومش معقول حتروح تسكن في فندق وتيجى الوحدة كل يوم.

في الحقيقة.. احسست بارتياح عميق .. كنت قد وصلت إلى مرحلة من الزهق والملل من هذا الوضع المرتبك.. كما أصبحت افتقد بشدة بيتي وأصدقائي.. واشتقت إلى أمي وإخوتي الذين ابتعدت عنهم ما يقرب من شهرين لأول مرة في حياتي .. فجاء عرضة بمثابة طوق نجاة ينتشلني من هذا العك الإداري .

تظاهرت بالموافقة على مضض.. ولكى اعطى المشهد بعدا دراميا.. قلت وأنا اصطنع القلق: طب بالنسبة للحضور والانصراف؟

قال على الفور: ماتشيلش هم.. أنا حامضيلك كل يوم.. ولو حد سأل عليك حاقول دا عامل اجازة.

انتهي بيننا الحوار.. حملت حقيبتي التي احتارت معي ورجعت مرة أخرى إلى ادفو..

توجهت إلى الفندق وما أن رآني موظف الاستقبال حتى اندهش.. ما هذا الشخص الذي يترك الفندق ثم يأتي مرة أخرى بعد ساعتين؟؟.. استأجرت حجرة مرة أخرى.. تركت حقيبتي وتوجهت إلى محطة القطار .. حجزت كرسي في قطار الركاب القادم من أسوان والمتجه إلى القاهرة .. كان ميعاده في صباح اليوم التالي. ولم انسى أن اكل كباب وكفتة.. فشعرت ببعض الراحة النفسية!

رجعت إلى الفندق وأنا افكر وأتساءل.. ما هذه الفوضى والهرجلة؟.. كيف يقذف بنا إلى اماكن لا تحتاج إلى أطباء؟.. لماذا قالوا لنا أن هناك عجز بالأطباء بينما أن معظم الوحدات بها أطباء مقيمون فيها من سنين ويحرصون إلا يشاركهم أحد في العمل؟.. لماذا حشرونا في وحدات صحية لا تستوعب أكثر من طبيب واحد؟. لماذا عرّضونا لتلك المواقف المؤسفة والمحرجة؟.. ولماذا كان طبيب وحدة العدوة متحمسا لإبعادي عن العمل بالوحدة؟.. ولماذا يضحى ويدفع من جيبة مصاريف سفري وانتقالي؟؟.. ما الذي غير موقفة مائة وثمانون درجة إلى هذا الحد؟؟

فهمت الآن ما همس به مدير الإدارة في اذن طبيب وحدة العدوة.. لقد قال له: خلية يروّح ويجى آخر الشهر يقبض مرتبه.. ويادار ما دخلك شر!.

ياله من أسلوب .. ويالها من طريقة لإدارة الامور!!

في الصباح توجهت إلى المحطة وركبت القطار .. وتوجهت إلى مدينتي الساحرة.. . القاهرة.

العودة إلى العدوة

امضيت شهرا في القاهرة.. وسط أهلي وأصدقائي.. ولكى استمر في ممارسة مهنة الطب كنت اذهب أحيانًا إلى مستشفى الساحل واقضى نوبتجيات مع أصدقائي الذين مازالوا يعملون هناك.. كما كان لي صديق يسبقني بعام دراسي وكان قد افتتح عيادة في منطقة المقطم أو ما يعرف (بحي الزبالين) .. ونظرًا لأنه كان مجندا بالجيش .. فقد كنت اذهب لأعمل بدلا منه في الأيام التي يكون فيها متغيبا في الجيش.

وفي نهاية الشهر حجزت في قطار النوم وتوجهت إلى أسوان .. ثم ركبت السيارة إلى ادفو ومنها إلى قرية العدوة.. دخلت الوحدة وقابلت الطبيب الذي رحب بي ترحيبا فاترا.. ثم أعطاني مظروفا وقال: دا مرتبك بتاع الشهر.. قلت: وفين المصاريف؟.. اصطنع السذاجة

وقال: مصاريف اية؟.. قلت: احنا مش اتفقنا تديني مصاريف السفر والذي منه؟.. قال في ضيق: اصل بصراحة الشغل الشهر دا ماكانش قد كدة والدخل كان ضعيف.. قلت في اصرار: أنا ماليش دعوة بالكلام دا.. احنا كان بينا اتفاق.. يا أما أجي أقعد واشتغل وكل واحد ورزقة!

لا اعلم من اين اتيت بهذه الجرأة والتحدي.. صدق من قال أن الغربة تكسب صاحبها صفات جديدة غير عادية.

ادرك سيادته أني مصمم على موقفي وجاد في تهديدي.. قام ودخل السكن ثم عاد وبيده مظروف آخر به مبلغ لا بأس به.. واضح أنه كان قد أعده من قبل ولكن تركة بالداخل حتى يناور لعلة يفلح في إقناعي ويوفر المبلغ.

شكرته وانصرفت.. على امل العودة مرة أخرى الشهر القادم.. ولكن كانت هناك مفاجأة في انتظاري.

بعد أن امضيت شهرًا آخر في القاهرة رجعت إلى العدوة.. قابلت السيد الطبيب وأعطاني مظروف به المرتب.. انتظرت حتى يعطيني (البونص) ولكنى فوجئت به يقول لي: أنا عاوز اقولك على حاجة يامهاب

قلت وان اتوقع منه اعتذارا كالسابق: خير إن شاء الله

قال: شهر رمضان داخل علينا بعد أسبوعين وأنا بتعب جدًا في الصيام لأن الجو هنا بيبقى حر قوى.. فأنا ناوي أخد إجازة في شهر رمضان واسافر البلد (المحلة) .. اية رأيك تيجى تشتغل الشهر دا بدالي؟

وافقت بعد قليل من التفكير.. أردت أن أجرب العمل في الوحدات الصحية .. ولأكتسب خبرة ودراية.. واتفقنا على أن اعود بعد أسبوعين قبل رمضان بيوم كي ابدأ العمل طبيبا في وحدة العدوة الصحية.. وبالطبع.. لم اسأله عن (البونص) نظرًا للعرض الكريم الذي عرضة على بالعمل شهرا بأكمله بالوحدة.

طبيب في وحدة العدوة

أول يوم لي في وحدة العدوة هو يوم لا ينسى.. يوم ملئ بالإثارة والمفاجآت التي فاقت ما نشاهده في افلام هوليود.

وصلت إلى وحدة العدوة وأنا احمل حقيبتي.. كانت الساعة قد قاربت على الواحدة ظهرًا .. قابلت طبيب الوحدة الذي كان في انتظاري على أحر من الجمر.. سبحان مغير الاحوال!

قال لي: جهزنالك اودة في السكن الثاني .. تعالى شوفها.. كنت اتوقع أن اسكن في سكن الطبيب ولكن يبدو أنه محتفظ بأشيائه ويخاف عليها.. لا بأس .. دخلت معه إلى سكن الممرضات .. هو مثل سكن معظم الوحدات الصحية القديمة.. باب الدخول يؤدى إلى طرقة صغيرة .. على اليمين حجرة وعلى اليسار حجرة وفي آخر الطرقة مطبخ وحمام صغير.

دخلنا إلى الحجرة التي على اليسار.. وجدتها نظيفة بها سرير صغير يسمى سرير طوارئ.. قال لي طبيب الوحدة أنه احضره خصيصا من الإدارة.. كان جديدا لم يستعمل.. وكان بالحجرة منضدة وكرسي وكومدينو.. اثاث قديم ولكن بحالة جيدة.. أما الدولاب فهو مثبت في الحائط وعليه ضفتان من الخشب.

قال لي السيد الطبيب: أظن مش حتحتاج اكتر من كدة.. وأنا حاطلعلك الثلاجة من السكن بتاعي لأنك طبعًا مش حتقدر تقعد في الحر دة من غير تلاجة.. ثم نادى على عبد الخالق وأمره بنقل الثلاجة من سكنة إلى سكنى.. أو بمعنى اصح إلى الحجرة المخصصة لي.. ياله من كرم زائد!

الحجرة كما قلت بها باب على الطرقة .. وبها بلكونة تطل على الحديقة الجرداء .. والبلكونة بها سلم يمكن أن تنزل منه إلى الحديقة.. ولهذا اهمية ستتضح فيما بعد!

سألت عن الحجرة الأخرى التي كان بابها مغلقًا بالمفتاح فقال سيادته أنهم اضطروا إلى

تكديس كل المخزون فيها .. كان من بين الاشياء المخزنة دقيق! .. نعم.. أشولة دقيق كانت تأتى ضمن ما يسمى بالمعونة الأمريكية التي كانت تأتينا في هذا الوقت وتوزع على أهالي القرية.. كانت عبارة عن زيت ولبن ودقيق.. ونظرًا لرداءة نوعية الدقيق فان الأهالي كانوا يرفضون استلامة.. وبالتالي تم تخزينه في المخزن لحيت التصرف فيه نظرًا لأنه (عهدة) .. وأنا اركز هنا على موضوع الدقيق لسبب خاص سيأتي ذكرة فيما بعد.

انصرف السيد الطبيب .. جلست في الحجرة .. لا بأس.. يمكن أن اقضى شهرا هنا وأدبر حالي.. يالى من شخص طيب جدا!!

بعد قليل ودعني الطبيب وركب مع زوجته وأبناؤه عربة أجرة وانصرفوا.. ثم جاء خلف الكاتب وعبد الخالق العامل.. رحبوا بي وجلسوا معي قليلًا .. ثم سألوني إذا كنت احتاج أي شيء وعرضوا علىّ أن يحضروا طعام فشكرتهم وقلت لهم أني أحضرت معي بعض الاكل من القاهرة .. وبعد قليل انصرفوا على وعد بالعودة ليلًا للاطمئنان عليّ.

وضعت بعض ملابسي في الدولاب الحائطي.. واخرجت بعض الطعام وتناولته .. نمت حوالي ساعة وخيل لي أثناء نومى أني اسمع اصوات خبط ولكنى لم أبالى!

استيقظت وكانت الساعة تقترب من الخامسة مساءا.. ما أن غسلت وجهي وارتديت ملابسي حتى وجدت أول مريض يدخل الوحدة يريد الكشف .. خرجت إلى حجرة الكشف وتوالت الحالات المرضية تباعا .. حالة واثنان وخمسة و.. . المرضى يتوافدون بكثرة ويدفعون مقابل الكشف عليهم.. كان ذلك ما تعودوا عليه مع طبيب الوحدة وكان مسموحا لنا بتقاضي مقابل الكشف بعد مواعيد العمل الرسمية.. العمل كثير والرزق وفير على عكس ما كان يدعيه السيد الطبيب في المقابلات الاولى .. ياله من.. .. . ولا بلاش!

ليلة لا تنسى

ثم اتت اللحظة المرعبة.. كان الليل قد حل وكنت اواصل الكشف على المرضى .. اتى مريض يعانى من مغص كلوى ويحتاج إلى حقنة مسكنة.. ونظرًا لعدم وجود أدوية بصيدلية الوحدة .. كنت قد احضرت معي بعض الحقن من القاهرة للطوارئ.. تركت المريض وذهبت إلى السكن كي احضر الحقنة من الشنطة .. دخلت من باب السكن فوجدت منظرًا تسمرت أمامه .. فأر ضخم .. في حجم القطة بلا مبالغة.. خرج مسرعًا من باب حجرتي ودخل إلى المطبخ .. ما هذا؟.. لم أر في حياتي فأرا بهذا الحجم.. ترددت وفكرت في الخروج..

ولكن المريض يتألم وينتظرني في حجرة الكشف.. دخلت بحرص وتوجهت إلى الشنطة وفتحتها بسرعة واخرجت علبة الامبولات .. خيل لي أني اسمع اصوات في دولاب الملابس ولكني خرجت مسرعًا لألحق بالمريض.

انتهيت من الكشف على المرضى المنتظرين.. جلست لألتقط أنفاسي.. وفجأة.. تذكرت منظر الفأر الذي رأيته خارجا من حجرتي .. قلت لنفسي اذهب واستكشف الأمر ولكن.. من بعيد!

توجهت إلى السكن .. لم ادخل.. وقفت في الحديقة ونظرت من النافذة المفتوحة على الحجرة.. رأيت منظرًا مرعبا.. حوالي خمسة أو ستة فئران ضخمة تمرح في الحجرة وتقفز على السرير وتدخل وتخرج من الدولاب.. ياربى.. ما هذا؟.. ما هذه الاحجام ؟.. من اين اتت كل هذه الجحافل؟.. وكيف سأتصرف معها ؟.. بمن استغيث ولا يوجد بالوحدة غيرى؟.. وحدى مع هذه الكائنات العملاقة.. اخاف أن ادخل الحجرة.. لأول مرة في حياتي اشعر بالخوف!

رجعت إلى حجرة الكشف .. جلست على المكتب لا أدرى ماذا افعل.. كيف سأدخل الحجرة وانام مع هذه الكائنات المتوحشة؟؟

وبينما أنا اتخبط في حيرتي.. جاء خلف الكاتب.. دخل وصافحني وقال:

إزاي الحال؟

قلت: حال اية وزفت اية.. دا كلام ياخلف؟

قال في دهشة: في اية؟

قلت: في فيران في الاودة

ابتسم خلف وقال: الفئران ماتخوفش يا دكتور

قلت: دي لو كانت فعلًا فيران.. انما اللي جوة دي وحوش.. اية الاحجام دي؟

قال خلف: اصل الفئران دي متربية على دقيق المعونة.. كانت بتغذي عليه وهو مخزن في المطبخ

قلت: يعنى المعونة بدل ما تروح للناس خدتها الفئران!

قال خلف وهو يحاول تهدئتي: طب بس اهدي وتعالى ورينى.

ذهبت مع خلف إلى السكن.. أو بمعنى اصح.. ذهبت وراءه.. دخل خلف وفتح

الدولاب فوجد فأرا أمامه.. ظل يخبط في ضلفة الدولاب حتى هرب الفار إلى الخارج.. كنت اراقب المشهد من نافذة الحجرة وأنا اقف خارجا في الحديقة!!

اطمأن خلف إلى أن الغرفة لا يوجد بها فئران أخرى.. خرج لي وقال:

خلاص يا دكتور ما فيش حاجة في الاودة

قلت: وأنا اية يضمنلى أن الفئران ماتدخلش تاني؟

قال: طول ما أنت في الاوضة الفئران حتحس بيك ولا يمكن تخش

قلت: واضح أن الفئران عندها إحساس!

ودعني خلف على امل أن نلتقى في الصباح.. كانت الساعة قد قاربت على العاشرة.. جلست على حافة السرير وأنا ارتجف.. هل يمكن أن انام في هذا الجو المرعب؟.. وجاءني الجواب سريعًا.. أصوات خبط ورزع في المطبخ والحجرة المغلقة.. أنهم يمرحون هناك ولا يبالون بوجودي.. اتخذت قرارا سريعا.. لن ابقى في هذه الحجرة دقيقة واحدة.. أخذ شنطة هدومي واذهب إلى ادفو.. انام في الفندق إياه وآتى في الصباح لأمارس عملي.. أخذت شنطتى واغلقت باب السكن وخرجت من باب الوحدة.. توجهت إلى الطريق السريع ووقفت أنتظر عربة تقلني إلى ادفو.. مضت نصف ساعة ولم تأت عربة اجرة واحدة.. اتضح لي أن سيارات الأجرة تتوقف عن العمل ليلًا!.. كان الظلام يحيط بي ويكاد يكتم أنفاسي.. شعرت بالإحباط وكادت الدموع تتساقط من عيني.. ماذا افعل ياربى؟ .. استجمعت شجاعتي وهداني تفكيري إلى حل مؤقت.. ارجع إلى الوحدة وانقل السرير إلى حجرة الكشف بعيدا عن الفئران المتوحشة.. اقضى ليلتي في الحجرة والصباح رباح.. وبالفعل رجعت إلى الوحدة وقبل أن ادخل السكن أخذت اخبط بشدة على الباب حتى تخاف الفئران (مثلى) وتهرب إلى جحورها.. دخلت الحجرة وحملت السرير الذي كان يمكن طية وحملة بسهولة نظرًا لأنه سرير طوارئ.. ونقلته لحجرة الكشف.. دخلت الحجرة وغيرت ملابسي وارتديت البيجاما.. رقدت على السرير استعدادا للنوم.. وفجأة.. نظرت إلى الحائط فوجدت برص كبير يقف خلف ضلفة النافذة المفتوحة.. ما هذه الليلة الغبراء؟!.. استجمعت شجاعتى مرة أخرى وقمت بخفة واقتربت من ضلفة النافذة.. ثم دفعتها بشدة نحو الحائط حيث يقف البرص.. مات البرص من قوة الدفعة.. لا ادرى لماذا شعرت بارتياح.. شعور بالنصر ولو على برص!!.. اطمأنت إلى أنه لا يوجد في الحجرة

كائنات أخرى غيرى.. تمددت على السرير وأنا في شدة الاجهاد.. واستغرقت في النوم.

أول يوم عمل

في الصباح اتى خلف وعبد الخالق وياسين مساعد المعمل.. اصابتهم الدهشة عندما وجدوني اخرج من حجرة الكشف بالبيجاما.. قلت لهم: أنا لا يمكن ابات في السكن دا مع الفئران.. أنا من النهارده حانزل ادفو بعد العصر ابات في فندق وآجى كل يوم الصبح.

اقنعني خلف أن هذا حل غير عملي واقترح على اقتراح وجدته مناسبا.. قال: الفئران ساكنة المطبخ وبتدخل اودتك من الباب.. احنا نقفل باب الاودة خالص وحضرتك تدخل وتخرج من البلكونة على الجنينة على طول

قلت: ولو حبيت ادخل دورة المياه؟

قال خلف: مش حتبقى مشكلة.. لأنك مش حتستعمل دورة المياه غير خمس دقائق وغالبا بالنهار .. والفئران مش بتخرج بالنهار.. وفي حوض في حجرة الكشف تستخدمه في التشطيف لو حبيت.

وجدت أنه حل معقول.. تم إغلاق باب الحجرة نهائيًا.. وأصبحت ادخل واخرج من سلم البلكونة.. واذا اردت أن ادخل الحمام كنت اخبط أولًا بشدة على باب السكن .. ثم ادخل بحرص إلى دورة المياه بعد أن أتأكد من انها خالية من أي فأر.. وإن حدث ذات مرة أثناء جلوسي بداخلها أن سمعت صوت خربشة في السيفون.. .. نظرت إلى أعلى فوجدت فأرا يقف فوق السيفون وينظر إلى في فضول.. طبعًا لن احدثكم عما فعلته.. فقد خرجت مسرعًا من الحمام إلى الطرقة.. وانتظرت حتى تفضل جنابة بالخروج من الحمام إلى المطبخ .. ثم دخلت مرة أخرى واكملت.

أول حالة خطيرة

أول يومًان كانت الحالات المرضية عادية ولا تمثل مشكلة.. اكشف على المرضى واكتب لهم الروشتة .. .. وكان أحد اقارب المريض يتطوع بالنزول إلى ادفو لصرف العلاج من أي صيدلية هناك نظرًا لأن صيدلية الوحدة كانت خالية من الادوية.

وفي اليوم الثالث جاءت حالة كادت أن تفقدني ثقتي في نفسي وأنا في بداية عملي كطبيب.. فتاة في التاسعة من عمرها.. رفسها الحمار في خدها الايسر فاحدث جرحا غائرا طولة حوالي

ثلاثة سنتيمترات.. كان الجرح نافذ من الخارج إلى الداخل نتيجة شدة الصدمة.. فكرت في أن احولها إلى مستشفى ادفو ولكن بعد تفكير قليل قلت لماذا لا اتعامل مع الحالة بنفسي.. وبدأت العمل.

تطلب ذلك أن أخيط الجرح من داخل الفم.. ثم اخيط عضلات الصدغ من الداخل بالخيوط التي تذوب تلقائيا والتي كنت قد احضرتها معي من القاهرة تحسبا للطوارئ.. ثم اقفل الجرح من الخارج بالسلك.

انهيت عملي بدون مشاكل.. كنت قد تدربت أثناء فترة الامتياز على هذا التعامل مع الجروح.. ثم أعطيت الفتاة حقنة تيتانوس وانصرفت.

فوجئت بعد ساعة بأهل الفتاة يحضرونها وقد تورم خدها بصورة كبيرة.. اصبت بالحيرة..

ما هذا؟.. هل يمكن أن يكون قد حدث نزيف من شريان بالداخل ادى إلى هذا التورم؟.. أنا الآن وحدى ولا يوجد معي نائب أو أخصائي لأستشيره.. هل اطلب من أهل الفتاة التوجه إلى مستشفى ادفو لعرضها على أخصائي جراحة؟.. وماذا سيقولون عنى ولماذا لم اطلب منهم ذلك في البداية؟.. قررت أن اصبر قليلًا .. كتبت لهم حقنة مضاد حيوي وحقنة ضد الالتهاب احضروها وأعطيتها للفتاة.. طلبت منهم أن يتوجهوا إلى منزلهم وينتظروا قليلًا.. واذا زاد التورم يأتوا مرة أخرى .. لماذا؟.. لست أدري!

انتظرت وأنا في شدة القلق.. اللحظات تمر على بطيئة ومرعبة.. مرت ساعة.. وساعتين.. إلى أن أقبل الليل ولم يأتوا.. الحمد لله .. نمت.. وفي الصباح أتت الفتاة مع أهلها .. كان الورم قد خف .. نعم.. لم يكن سوى تورم من اثر الخبطة الشديدة .. فرحت كثيرًا وظللت أغيّر لها يوميًا على الجرح إلى أن نزعت السلك بعد أسبوع.. وأصبحت الفتاة صديقتي.. كانت تحضر لي اللبن الطازج هدية منها وعرفانا بالجميل .

شعرت بسعادة غامرة واكتسبت ثقة في نفسي.. كما اكتسبت شهرة بين آهالي العدوة نظرًا لأن الفتاة كانت من عائلة كبيرة وانتشر خبر علاجها على يدى .. وكان ذلك أكبر دافع لي خلال عملي في العدوة.. وبعدها أيضًا.

أول حالة ولادة

كنت اجلس في حجرتي عندما سمعت طرق على الباب.. فتحت الباب فوجدت شاب

يطلب منى التوجه معه إلى منزله.. لماذا؟.. لأن زوجته في حالة وضع.

من المعروف أن القرية بها داية تقوم بمساعدة السيدات على الولادة.. ولكن في حالات الولادة المتعسرة فأنها تنصح أهل السيدة بضرورة احضار الطبيب.. وهذا معناة أن أي حالة تتطلب تدخل الطبيب هي بالقطع ولادة متعسرة وبها مشاكل.

استعنت بالله وأخذت شنطتى وأدواتي وذهبت معه إلى منزله.. منزل متواضع جدا خالي تقريباً من الاثاث.. دخلت فوجدت المرأة نائمة على الأرض.. ولا اعلم السر في أن معظم حالات الولادة يجعلون السيدة تنام على الأرض.. يقولون أن هذا يساعد الام على انزال طفلها بسهولة!.. ولكن بالطبع هذا الوضع مرهق بالنسبة للطبيب المعالج!

انحنيت على الأرض وفحصت السيدة.. وجدت إنها بكرية أي انها أول ولادة لها.. رأس الطفل محشور وانقباضات الرحم بدأت تضعف بسبب طول مدة الولادة.. لابد من عمل (توسيع) حتى تمر رأس الطفل .. وهي عملية تسمى **Episiotomy** . كنت قد تدربت عليها في قسم النساء بمستشفى الساحل.. أعطيت السيدة حقنة مخدر موضعية وعملت شق جراحي صغير .. مع توالى الانقباضات نجحت في إخراج رأس الطفل .. سحبت الطفل وامسكت به من قدمية وقطعت الحبل السرى.. وفي هذه اللحظة حدث موقف كوميدي لا يمكن أن أ نساه.. كان بالخارج مجموعة من النساء والاطفال تجمعوا انتظاراً لولادة الطفل المتعسر.. ما أن سمعوا بكاء الطفل وأنا احمله حتى اندفعوا جميعا إلى داخل الحجرة يهنئون الأم بالمولود!.. كان المشهد كالآتي: أقف في منتصف الحجرة أحمل الطفل من قدمية.. وجمع من الاطفال يقفزون ويهللون حولي.. ومجموعة من النساء اتجهن إلى الام الراقدة يحتضنونها ويقبلونها مهنئين!!

مرت دقيقة وأنا احمل الطفل لا أعلم أين سأضعه.. كما كان على أن اباشر باقي خطوات الولادة وخياطة الشق الجراحي.. فجأة.. وجدتني اصرخ في الجمع واقول: برة.. كله برة.. وحد يأخذ منى الولد دا يلفه.

أنتبه الجميع وخرجوا.. وأخذت الداية منى الطفل.. استكملت عملي وبدأت في خياطة الجرح.. كان البنج الموضعي قد بدأ تأثيره يزول.. أخذت السيدة في الصراخ وطلب النجدة.. التفتت لي الداية وقالت: يا دكتور ماتتعبش نفسك.. هو حيلم لوحدة.. دول واخدين على كدة!.. نظرت اليها نظرة حادة جعلتها تصمت إلى الأبد.. كانت بالقطع تريد

أن ننهي العمل حتى تذهب لتستريح ولا يهم أمر السيدة مادام المولود جاء.. استمريت في عملي حتى أنهيته.

في اليوم التالي ذهبت للاطمئنان على الام وطفلها.. دخلت فوجدت الام على السرير.. الحمد لله لن أضطر إلى جلوس القرفصاء على الأرض مرة أخرى..

قلت لها: إزاي الحال دلوقتي

قالت وعلى وجهها علامات الاشمئزاز: الحمد الله كويسة.

قلت: ممكن اشوف الجرح

نظرت إلى بغضب وقالت: ليه.. حتخدلك غرزتين تاني؟!.. ماتيجى تاخدلك كمان غرزتين!!

فوجئت برد الفعل.. ضحكت وافهمتها أن هذا في مصلحتها ولمصلحة الطفل الذي كاد أن يختنق من طول مدة الولادة.. وأخيرًا.. سمحت لي أن اغير لها على الجرح .. ومرت أول حالة ولادة بسلام.

أول حالة تسنين

جرى العرف بالنسبة للفتاة المقبلة على الزواج ولا يوجد لديها شهادة ميلاد.. أن يقوم الطبيب بعمل شهادة تسنين لها حتى يمكن للمأذون أن يزوجها.. وهي شهادة تنص على أن الفتاة تبلغ من العمر حوالي ستة عشر عاما ولا يوجد لديها موانع للزواج.. ويقوم الطبيب بالتوقيع عليها ثم يقوم الكاتب بختمها بخاتم شعار الجمهورية.

في صباح أحد الأيام جاءني عبد الخالق العامل بصحبة أحد الاشخاص وأخبرني أن ابنة هذا الرجل ستتزوج ولا يوجد لديها شهادة ميلاد .. ومطلوب عمل لها شهادة تسنين.

قلت له لا مانع .. احضر الفتاة لأراها

نطق والدها وقال: البنت اصلها في البيت.. والبيت بعيد

قلت: أنا موجود على طول.. هاتها في أي وقت.

فوجئت بعبد الخالق ينتحى بي جانبا ويقول: أنا شفت البنت ولقيتها كبيرة

ابتسمت وقلت: أنت متأكد؟

قال بسرعة: طبعًا يا دكتور.

قلت: خلاص.. امضى أنت على الشهادة

فوجئ بالإجابة وقال: العفو يا دكتور.. سيادتك الكل في الكل

قلت: يبقى أنا اللي أحدد إذا كانت كبيرة ولا لسة عيّلة.

وعندما يأس عبدالخالق من إقناعي التفت إلى والد الفتاة وقال: خلاص نروح نجيب البنت عشان الدكتور يشوفها ويطمن.

في الواحدة ظهرًا كان العمل بالوحدة انتهي وكنت اجلس على مكتبي .. فجأة وجدت عبد الخالق يدخل من باب الحجرة ووراءه نفس الرجل ممسكا بيد طفلة يسحبها وراءه وهي تبكى! .. انتظرت أن تدخل ابنته التي يريد تزويجها فلم تدخل.

قال عبد الخالق وهو يبتسم: ادينا جبنا البنت معانا

قلت: هي فين؟

قال: سلامة الشوف يا دكتور.. أهه

شاور على الطفلة التي لا يتجاوز عمرها الاثني عشر عاماً.. قلت في دهشة: هي دي اللي عاوزين تجوزوها؟

قال الأب في فخر: ايوة.. عقبال أولادك!

قلت على الفور: حرام عليك.. دي لسة طفلة

قال الاب: لا دي كبيرة بس هي اللي شكلها صغير.. تعالى يابت.

تراجعت الفتاة للخلف في ذعر وصاحت: أنا عاوزة اروّح.. عاوزة ارجع لأمي قلت على الفور: أنا لا يمكن اسنن البنت دي .. خدها وروّح.

ظهر الضيق على وجه عبد الخالق.. كان بالطبع ينتظر اتمام عملية التسنين حتى يأخذ الحلاوة من والدها.. خرج عبد الخالق ونادى على (خلف) الذي كان يجلس في مكتبة.. همس له ببعض الكلمات فدخل خلف وقال: فين البنت دي؟.. شاور والد الفتاة عليها.. نظر اليها خلف وأخذ يتفحصها ثم التفت لي وقال: مالها يا دكتور.. .. ماهي كبيرة اهي

قلت ساخرا: فعلًا.. دي شكلها عدت الخمسين سنة.. بس برضة مش حاسننها. وتركتهم ودخلت حجرتي.

نظرت من شباك الحجرة فوجدت خلف وعبد الخالق يتبادلان الحديث.. بعدها اصطحب عبد الخالق الرجل وابنته وخرجوا.

وفي اليوم التالي سألت خلف عن ما تم بالنسبة للفتاة فقال: اخدوها لدكتور في وحدة

تانية وسننها.. قلت: مش حرام عليكوا بنت في السن دا تتجوز وهي لسة عيلة.. قال خلف: يا دكتور دا سلو بلدنا.. البنت بتتجوز اتناشر وتلاتاشر سنة.. قلت في سرى: ذنبهم في رقبتكم يامفترين.

وعلى ذكر (سلو بلدهم) .. أذكر أنه جاءني ذات مرة رجل في الثلاثينات من عمره.. قال لي أن زوجته مريضة ويريد الكشف عليها بالمنزل.. ذهبت معه إلى المنزل ودخلت إلى حجرة النوم .. جلسنا في انتظار قدوم الزوجة التي كانت في الحمام.. أثناء جلوسي معه سمعت صوت بالخارج يهمس: بس.. بسسسس.

كان الصوت قادما من خلف باب حجرة النوم.. قام الزوج وخرج من الباب.. سمعت صوت همهمات وضحكات طفولية من خلف الباب.. فجأة.. وجدت الزوج يدخل وهو ممسكا بيد زوجته التي لا يتجاوز عمرها الرابعة عشر.. في البداية ظننتها ابنته.. كان يبدو عليها الخجل والحياء وزوجها يشدها ويقول:

تعالى ماتتكسفيش.. دا الدكتور جاي يكشف عليك.

ارقدها على السرير وقال: اتفضل يا دكتور

قلت: هي دي المدام؟

قال: ايوة وبقالنا شهرين متجوزين

قلت: مش معقول

قال: ليه؟

قلت: دي صغيرة قوي

ضحك بصوت عالي وقال: ما هو الدكتور (...) قال كدة برضة لما جه يسننها قلت: ورضى أنه يسننها؟

قال وهو مستمر في الضحك: طبعًا.. دا حتى قعد يهزر معايا ويقولى تتربى في عزك!

قلت في سرى: منه لله.

كشفت على الطفلة.. .. اقصد على الزوجة .. وبعد أن انتهيت وجدت زوجها يقول في لهفة: طمني يا دكتور.. في حمل؟!

قلت: لا.. دا شوية مغص بس

قال في آسى: يا خسارة

قلت: أنت مستعجل ليه على الحمل؟

قال: اصل دي تاني جوازة ليا .. الأولانية ماكنتش بتخلف.

قلت: ربنا إن شاء الله حيرزقك منها بس ماتستعجلش عليها.

وكتبت لها الروشتة وانصرفت.. قررت بعدها قرارًا لا رجعة فيه.. لن اقوم بتسنين أي فتاة حتى لو كان سنها يسمح بذلك.. وحتى لا اشارك في (سلو بلدهم) الغريب.

وتمضي الأيام

مرت الأيام بسرعة.. كنت في غاية السعادة .. الامور تسير بصورة ممتازة.. العمل ممتع والرزق وفير.. كان طبيب الوحدة معه كل الحق في أن يدافع بشراسة عن وجودة في الوحدة الذي يدر عليه دخل لا يوجد في أي مكان آخر.

كنت قد تعودت على الحياة في الحجرة المتواضعة.. كان خلف قد احضر لي مروحة من منزله كي تخفف عنى الحر الشديد.. واحضر لي ياسين وابور (شرايط) كنت استخدمه في عمل الشاي والقهوة.. كما قمت بشراء بعض الآواني وكنت اقوم أحيانًا بالطبخ كما تعلمت من صديقي هاني أيام ماكنا في مستشفى السد.. وفي بعض الأيام عندما كنت أشعر بالملل من الوحدة.. كنت اذهب إلى أسوان اتغدى في مطعم سياحي.. وأجلس قليلًا في كافتيريا على النيل.. ثم اعود مرة أخرى إلى قواعدي بالعدوة.. من باب التغيير والترويح عن النفس!

تعودت أيضًا على التعامل مع أهل العدوة .. وتعرفت على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم.. كانت لهم لغة خاصة كمعظم أهل الجنوب.. فمثلا.. يحددون اتجاهاتهم بالاتجاهات الاصلية.. فيقولون أمشى مشرّق.. يعن امشى جهة الشرق.. أو روح مغرّب.. أي لجهة الغرب.. أو مبحّر .. أي لجهة الشمال.. أو مجبل. أي لجهة الجنوب.. والغريب أن الفرد منهم يعرف الاتجاهات الاصلية الصحيحة في أي موقع يقف فيه.

ومن الطرائف التي حدثت معي.. أني ذهبت ذات مرة في صحبة أحد الاشخاص لكشف منزلي.. كان ذلك أثناء الليل.. وأثناء مرورنا بطريق مظلم قال لي: حاسب يا دكتور في مية في الأرض

قلت وأنا لا ارى تحت قدمي: فين؟

قال: امشى مبحر!

وقفت لحظة أحاول أن أحدد الاتجاهات الأصلية.. توقعت أن يكون اتجاه الشمال

هكذا.. أخذت خطوة نحوه فوجدت نفسي في بركة المياه.. قال لي رفيقي بسرعة: لا يا دكتور.. طب تعالى بقى مغرّب

قلت وقد نفذ صبري: يعنى يمين ولا شمال ولا فين بالظبط؟

فاضطر هو إلى سحبي من يدى وإخراجي من البركة.

وبفضل الله لم تحدث أي مشاكل أثناء العمل.. استطعت أن اثبت ذاتي واكتسب ثقة في نفسي كطبيب ممارس عام.. وحقق لي هذا سمعة طيبة بين أهالي العدوة واكتسبت ثقتهم.. ولكن للآسف.. كان شهر رمضان قد ولّى وكذلك أيام عيد الفطر الثلاث.. وفي رابع يوم كنت اجلس في حجرتي عندما ترامى إلى سمعي صوت طبيب الوحدة ينادى على عبد الخالق.. لقد وصل (البيج بوس) مع أسرته.. شعرت بضيق وتملكتني حالة من الكآبة.. لقد جاء وقت الرحيل وترك الساحة له ليلعب فيها بمفرده.

ودعت خلف وعبد الخالق وياسين.. وودعت أهالي قرية العدوة.. وودعت العمل الممتع في الوحدة الصحية.. وودعت الطبيب الذي كان ينتظر رحيلي على أحر من الجمر حتى يعود إلى مملكته.

وعدت إلى القاهرة على امل العودة آخر الشهر لاستلام مرتبي.. والبونص الذي اتضح لي بعد عملي شهر بالوحدة أنه مجرد فتات يلقيها لي السيد الطبيب حتى اظل بعيدا عنه.

ولكن عند عودتي كانت هناك مفاجأة أخرى في انتظاري.

ابو سمبل

عندما عدت في آخر الشهر.. أبلغني طبيب الوحدة أنه جاءني إشارة من الإدارة بانتدابي لمدة شهر للعمل في مستشفى مدينة ابو سمبل .

ومدينة أبو سمبل هذه تقع جنوب أسوان على بعد ثلاثمائة كيلو متر.. بينها وبين حدود السودان خمسون كيلو متر فقط!

وهي مدينة صغيرة لا يتعدى عدد سكانها الالف نسمة.. بنيت خصيصا من اجل معبدي ابو سمبل اللذان يوجدان خلفها تماما.. في الموقع الذي نقلا إليه من موقعهما القديم بعد بناء السد خوفا من اغراقهما بمياه البحيرة.

معظم سكان القرية من النوبيين الذين هجّروا من قراهم بعد اغراقها .. وهم ناس طيبون جدا ويحبون المرح والبهجة ويظهر هذا واضحا في افراحهم التي تمتلئ بالرقص والغناء والطرب.

ونظرًا لبعد المدينة عن أسوان.. بل عن الجمهورية بأسرها.. فكان يتم انتداب اربعة أطباء بالتناوب كل شهر من كافة الادارات الصحية.. ووقع الحظ عليّ للانتداب هذا الشهر.

حاولت التملص من هذا الانتداب ولكن هيهات!.. كان قد بقى لي شهرين وتنتهي مدة تكليفي بأسوان ونقلى إلى محافظة الجيزة.. وكان عليّ أن انفذ الانتداب إلى ابو سمبل والا لن استطيع الحصول على اخلاء الطرف من مديرية أسوان!

توجهت إلى مدينة أسوان.. واستقليت من هناك الاتوبيس السياحي المتجه إلى مدينة أبو سمبل.. قطع المسافة في حوالي ثلاث ساعات.. كان الركاب كلهم تقريبا من السائحين الذين يذهبون لزيارة المعبدين.. وصلنا أبو سمبل وكانت الساعة حوالي الثانية ظهرا..

توجهت إلى المستشفى فوجدت الأطباء انصرفوا إلى السكن الخاص بهم.. توجهت إلى سكن الأطباء.. وهو عبارة عن فيلا خشبية ضمن مجموعة من الفيلات التي بنيت على نظام أوروبي.. كانت مخصصة للخبراء الأجانب والعمال الذين كانوا يعملون في نقل معبدي أبو سمبل إلى المكان الجديد.. وبعد أن رحلوا تم تخصيص هذه الفلل لمختلف الادارات الحكومية.

كانت الفيلا صغيرة تقع وسط حديقة.. عبارة عن صالة وغرفة كبيرة مكيفة وغرفة اصغر ومطبخ وحمام.

دخلت الفيلا فاستقبلني طبيب يدعى (بنيامين) عرفني بنفسه أنه نائب جراحة.. كما وجدت طبيب آخر يدعى (أسامة) كان طبيب تكليف مثلى.. وفي اليوم التالي حضر طبيب أسنان فأصبحنا أربعة أطباء.

نائب الجراحة هو مدير المستشفى.. ومستشفى أبو سمبل ليس بها قسم داخلي .. عبارة عن عيادات خارجية باطنة وجراحة وأسنان.. وأي حالة تحتاج إلى عمليات جراحية يتم نقلها إلى أسوان بواسطة سيارة اسعاف المستشفى.. أو بالطائرة إذا كانت الحالة حرجة.

امضينا وقتا لطيفا في أبو سمبل.. كنا نذهب إلى المستشفى في الصباح .. ثم نعود ظهرا لتناول طعام الغذاء.. كان غذاؤنا غالبا من الاسماك التي تأتى من بحيرة ناصر التي تطل عليها المدينة.. كانت أسماك بمختلف الاشكال والاحجام.. وكان أشهى ما نأكله هو فيلية السمك.. الذي يتم عمله من أسماك البلطي ذات الحجم الضخم المشهورة بها بحيرة ناصر. ألذ طعم سمك ذقته في حياتي ولا يمكن أن أنساه!

وفي المساء كنا نذهب قليلًا إلى المستشفى ثم نعود ليلًا لنجلس في تراس الفيلا المطل على الحديقة.. وأحيانًا كنا نذهب إلى قاعة خصصت لمشاهدة افلام الفيديو التي يحضرها المسؤول من أسوان نظرًا لأن الارسال التلفزيوني لا يصل إلى المدينة!

حذرنا الجميع من العقارب والثعابين المنتشرة في المدينة وحولها .. كنا نأخذ حذرنا دائمًا وخصوصًا عند لبس الاحذية نظرًا لأن العقرب كما قالوا لنا يحب الاختباء في الأماكن الضيقة مثل فتحة الحذاء.. كنت أمسك بالحذاء قبل أن البسة واخبط به بشدة على الأرض حتى اضمن أنه لا يوجد بداخله عقارب!

وجدنا ذات يوم عقرب صغير يجرى في الصالة.. أمسك كل منا بفردة حذاء وظللنا

نطارده من ركن إلى ركن حتى تمكنا منه وقتلناه.

أما الثعابين فكان اشهرها ثعبان الطريشة.. وهو منتشر في اطراف المدينة وعند معبدي أبو سمبل حيث الرمال والصخور.. وهو من اخطر انواع الثعابين ولدغته تقتل في دقائق.. وقد شاهدته عن قرب.. ففي أحد الامسيات وأثناء جلوسنا في تراس الفيلا .. مر أحد الاشخاص وهو يرفع أمامه عصا طويلة يتدلى من طرفها حبل.. وفي طرفة ربط ثعبان طريشة من منتصف جسمه.. كان هذا الشخص صياد للثعابين.. يقوم بتتبع أثارها في الرمال حتى يصل إلى مكان اختبائها.. ثم يقوم بتثبيت رأس الثعبان بطرف العصا.. وبيده الاخرى يقوم بربط طرف الحبل حول جسم الثعبان.. ثم يرفع العصا في الهواء فيتدلى منها الحبل المربوط به الثعبان.

نادينا على الرجل الذي وضع الثعبان على الأرض لنشاهده.. طولة حوالي ثلاثون سنتيمترا.. هي قرنان صغيران.. كان الرجل يقرب منه طرف العصا فيهجم عليها في سرعة خاطفة ويعضها ظنا منه انها عدو.. وفي النهاية يأس الثعبان من هذه المحاولات التي لا طائل منها.. فتراجع وانكمش في نفسه.. كان منظرًا لا يمكن أن أنساه.

وفي إحدى الليالي كان نجلس في التراس عندما فوجئنا بثعلب .. نعم ثعلب .. يقف عند باب الحديقة وينظر الينا في فضول.. في البداية ظننا أنه كلب.. ولكن بعد أن امعنا النظر وجدنا أن جسمه صغير ورأسه مدبب وذيلة منفوش.. انتظر قليلًا ثم استدار وانصرف.. عندما سألنا الأهالي في الصباح اخبرونا بأنه من المعتاد ظهور الثعالب ليلًا لأنها تأتى من الصحراء المجاورة للبحث عن فرائسها من الطيور وخلافة.. وهكذا.. شاهدنا في هذا الشهر من المخلوقات مالم نشهده من قبل.. ولا من بعد.

ورطة الصيدلية

جاء الدور على بنيامين نائب الجراحة ليرحل.. كان شهر انتدابه قد انتهي ولم يصبر لينتظر وصول نائب جراحة بدلا منه.. وكان عليه أن يسلم عهدته إلى طبيب آخر.. والعهدة هي صيدلية المستشفى.. كانت الصيدلية عامرة بالأدوية والمحاليل الطبية.. عكس صيدليات الوحدات الصحية الخاوية دائمًا.. وذلك لأنه لا يوجد صيدليات خاصة بالمدينة وبالتالي لا يوجد مصدر آخر لعلاج المرضى سوى أدوية المستشفى.

وكانت الصيدلية عهدة يتسلمها الطبيب الوافد وتظل في عهدته حتى يسلمها عند رحيله للطبيب الذي سيحل مكانة.. وبالطبع كان التسليم والتسلم يتم على اوراق ودفاتر العهدة الحكومية.

طلب الدكتور بنيامين من الدكتور أسامة استلام الصيدلية منه.. رفض الدكتور أسامة استلامها بحجة أنه باقي له حوالي أسبوع وتنتهي مدته ويرحل.. وعندما عرض عليّ بنيامين أمر استلامها رفضت بشدة.. فقد كانت عهدة الصيدلية مسؤولية كبيرة وقيد حديدي يربط الطبيب بالمكان حتى يأتي آخر ويتسلمها .. وسبق وإن أخبرنا أحد موظفي المستشفى أنه كان هناك طبيب ظل بمفرده لمدة شهران لا يستطيع مغادرة المكان نظرًا لعدم قدوم أي دكتور لاستلام العهدة منه. يعنى بالعربي الصيدلية كانت عبارة عن (تدبيسة) .. . وبعد إلحاح ومشادات نجح بنيامين في إقناع أسامة باستلام الصيدلية ورحل.

مرت الأيام واقترب موعد رحيل أسامة ولم ترسل لنا المديرية أطباء جدد.. ازداد خوفي وقلقي لأنى من المفروض أن استلم الصيدلية من أسامة نظرًا لأنه سيتبقى لي ثلاثة أيام بعد رحيله.. ولكن جاء الفرج أخيرًا.. فقد اتى نائب جراحة واستلم العمل.. كان ناقما وساخطا حيث اجبروه على المجيء رغما عنه.. هددوه بعدم إعطاءه إخلاء طرف ليعود إلى محافظته إذا لم ينفذ الانتداب لأبو سمبل.. وعندما عرض عليه أسامة استلام الصيدلية رفض على الفور.. وأخذ يسب ويلعن في من تسبب في (حدفه) لهذا المنفى .. وعندما وجد أسامة أنه لا فائدة منه عرض عليّ أن استلم الصيدلية فرفضت طبعًا متحججاً بأنه لم يتبقى لي سوى ثلاثة أيام وينتهي شهر انتدابي.. ثم بدأت أسب وألعن كما فعل نائب الجراحة حتى يأس أسامة تماماً وقرر أن يسلم الصيدلية إلى كاتب المستشفى رغم أن هذا لا يجوز قانونًا.. وفعلًا لم يعارض الكاتب واستلم الصيدلية وهو سعيد!.. وبالمناسبة.. كان هو كاتب المستشفى .. .. والممرض.. وسائق عربة الاسعاف نظرًا لعدم وفرة موظفين .. واضاف إلى مهامه صيدلية المستشفى حتى يكتمل (البرستيج) !.. ولم يتبق له إلا الحصول على منصب مدير عام المستشفى!

نهاية الشهر

رحل أسامة وبقيت مع نائب الجراحة أنا وهو فقط.. انتظرنا حتى يرسلوا أطباء جدد

فلم يحدث.. يبدوا أن الأطباء كلهم (زرجنوا) ورفضوا جميعا الحضور إلى هذا المنفى.

ومن الطرائف التي حدثت أن نائب الجراحة في أول يوم له التفت لي وقال بصوت مرتعش: أنا سمعت أن في هنا عقارب وتعابين.. الكلام دا صحيح؟

وحتى لا ازيد من خوفه قلت: دا بس كلام.. الحاجات دي موجودة جوة في الصحراء مش هنا.

وفي اليوم الثاني كنا عائدين ليلًا من المستشفى.. وأثناء مشينا في الشارع المؤدى للفيلا شاهدنا عقرب صغير يسير أمامنا.. ولشدة دهشتي وجدت زميلي يهلل فرحاً ويجرى وراء العقرب وهو يصيح: الله.. إية دا.. دا عقرب صغير.. شكله ظريف قوى!

طبعًا كتمت الضحك وحمدت ربنا أنه تقبل الموضوع بسرور وبهجة .

انتهى شهر انتدابي .. ودعت النائب الذي طلب من بإلحاح أن اخبرهم في المديرية بسرعة إرسال أطباء حتى لا يبقى وحدة في المدينة!

وصلت إلى مديرية الصحة بأسوان .. كان معي استمارة انتقالات بها مصاريف الانتقال إلى جانب مبلغ مالي آخر كان يعطونه (كمكافأة) نظير الانتداب أو بمعنى اصح نظير (النفي) لأبو سمبل.

أعطيت الاستمارة إلى الموظف المسؤول فقال لي: أنت جيت إزاي؟

قلت: في الاتوبيس السياحي

قال: أنا اقصد إزاي سبت المستشفى من غير مايبعتوا دكتور تكليف بدالك؟

قلت: الشهر بتاعي خلص

قال: كان لازم تستني لحد ما دكتور يوصل عشان يستلم منك الاجزخانة

قلت بلهجة المنتصر: الاجزخانة استلمها كاتب المستشفى.

فوجئ بإجاباتي وقال: يانهار اسود!

ثم قام ودخل حجرة مدير المديرية وأنا خلفه.. حكى له الموضوع فألتفت إلى المدير وقال بحدة: إزاي تسلم الصيدلية لكاتب المستشفى؟

قلت: مش أنا اللي سلمتهاله.. دا الدكتور أسامة

قال في حسم: الموضوع لازم يتحول للتحقيق

قلت وأنا غير مبالى: طب ممكن اعتمد الاستمارة عشان أصرف الفلوس؟

قال وهو يعطيني ظهره: لما يخلص التحقيق!

أخذت الاستمارة وخرجت.. تذكرت أن رئيس الحسابات بالمديرية كان قد زارنا في أبو سمبل مع لجنة لاستلام وحدة صحية جديدة في قرية مجاورة.. تعرفت عليه وقتها وضمني إلى اللجنة المشكلة كعضو فنى!.. ذهبت إليه وأخبرته بالأمر ابتسم وقال: فين الاستمارة؟ أعطيتها له فوقع عليها وقال: روح أصرف فلوسك.

انصرفت وأنا سعيد وصرفت نقودي.

رجعت إلى العدوة حتى اقبض مرتبي فوجدت في انتظاري مفاجأة من العيار الثقيل.. يبدو أن مدة تكليفي في أسوان كانت عبارة عن سلسلة من المفاجآت.

وداع في العدوة

وصلت العدوة وكانت الساعة تقترب من الثانية ظهرا.. دخلت فوجدت الوحدة خالية كما لو كانت مهجورة.. توجهت إلى سكن طبيب الوحدة وطرقت الباب فلم يجيبني أحد.. اين ذهب السيد الطبيب؟.. هل خرج في كشف منزلي؟.. ولماذا لم تجبني زوجته؟.. هل اصطحبها معه؟؟.. غير معقول طبعًا.. هل سافر مرة أخرى بدون أن يخبرني؟

وبينما كنت اقف غارقا في حيرتي.. وجدت (خلف) يدخل من باب الوحدة .. كان قد ذهب لإحضار طعام الغذاء.. ما أن رآني حتى رحب بي قائلًا:

حمدلله على السلامة يا دكتور .. إن شاء لله تكون انبسطت في ابو سمبل

قلت: مش وقت أبو سمبل دلوقتي.. فين الدكتور؟

قال: الدكتور مشى.. اخلى طرفة ورجع بلدة.

تملكتني الدهشة وقلت بعد فترة صمت: اخلى طرفة؟!.. إزاي؟

قال خلف وهو يضحك: خلاص.. عمل الخميرة اللي كان عايزها واستكفى بكدة.. شد حيلك بقى أنت دلوقتي طبيب الوحدة ما فيش غيرك.

ألجمتني المفاجأة.. الطبيب أخلى طرفة؟!.. ولكن لماذا لم يخبرني بنيته قبل ذهابي إلى أبو سمبل؟ .. ولماذا لم ينتظر حتى احضر واستلم منه الصيدلية التي سلمها لطبيب الوحدة الصحية المجاورة؟!.. ياله من شخص عجيب!

لكن المهم أنه رحل بلا رجعة.. أخيرًا أصبحت طبيب أول الوحدة الصحية بالعدوة .. فجأة .. تذكرت شيئا غاص له قلبي.. لقد بقى لي أقل من شهر على أنتهاء فترة تكليفي بأسوان اذهب بعدها إلى محافظة الجيزة.. ما العمل؟.. لابد أن اتدبر أمرى لأنها فرصة لا تعوض.. العمل بالوحدة الصحية بالعدوة بمفردي!

فتح لي خلف السكن الخاص بالطبيب.. دخلت فوجدته بالطبع يختلف تمامًا عن تلك الحجرة التي سكنت فيها من قبل .. سكن مؤثث بأثاث ليس جديدا ولكن نظيف .. والأهم من هذا كله أنه خالي من الفئران!

بعد تفكير عميق اتخذت قرار.. لابد من إلغاء قرار النقل إلى محافظة الجيزة كي أكمل فترة تكليفي كلها في العدوة.

كتبت طلبا بهذا وذهبت إلى مديرية الشئون الصحية بأسوان لأقدم الطلب.. كانت تنتظرني هناك آخر مفاجآت رحلة أسوان.. أكثر من طبيب ممن كان قد صدر لهم قرار بالنقل من محافظة أسوان بعد ستة شهور.. كانوا يطالبون نفس الطلب الذي اطلبه.. البقاء فترة التكليف كلها بأسوان بعد أن اكتشفوا مزايا العمل بالوحدات الصحية هنا!

ولكن.. تأتى الريح بما لا يشتهيه الأطباء.. فوجئنا برفض جميع الطلبات المقدمة بحجة أن هذا قرار وزاري !.. فبعد استشارة الوزارة في القاهرة افادت بأنه لا يجوز إلغاء قرار لجنة التظلم ويتحتم علي الأطباء الذين قبلت تظلماتهم من قبل انهاء تكليفهم في أسوان لاستلام العمل في المحافظات التي تقرر لهم استكمال تكليفهم فيها.

يا لها من قرارات جافة وروتينية.. لماذا تقف الوزارة دائمًا ضد رغباتنا؟.. عندما طلبنا في البداية عدم الذهاب إلى أسوان أصروا على أن نذهب إلى أسوان. وعندما رغبنا في الاستمرار في أسوان أصروا على عودتنا من أسوان!

يئست من محاولة البقاء.. وكان لابد من تنفيذ قرار النقل حتى لا اعتبر (ناشز) .. امضيت أسبوعين في وحدة العدوة.. كنت أعمل وأنا حزين لعلمي أني سأرحل في النهاية وأودع العمل في العدوة.. واودع أسوان كلها.. المدينة الجميلة التي أردت الاستمرار فيها ولكن الوزارة منعتني!

وجاء وقت الرحيل .. توجهت إلى الإدارة واخليت طرفي.. ثم إلى المديرية واستلمت خطابا موجها إلى مديرية الجيزة لتسليمي العمل فيها.. ودعت كل شيء وتوجهت إلى الجيزة.. وبدأت صفحة جديدة من العمل.. بل صفحات مليئة بالأحداث والتشويق والإثارة.

الجيزة

قبل أن أتوجه لاستلام عملي في الجيزة.. قررت إلا أسلم مصيري إلى المجهول .. وبمعنى آخر أن أحدد طريقي بنفسي حتى لا يحدث معي ما حدث في أسوان.. .. عندما تركت الصدف والأهواء تذهب بي حيثما تريد.. مرة إلى مستشفى السد.. ومرة إلى العدوة.. ومرة إلى أبو سمبل.

وكان السبيل الوحيد لتحديد اتجاهي بما يتوافق مع مصلحتي هي الواسطة!.. (واية اللي رماك على المر..) مرة أخرى.

توجهت إلى المسؤول الذي كان قد توسط لي من قبل في موضوع تكليفي بمحافظة أسوان.. ورغم فشل واسطته حينئذ إلا أني لم اجد غيره خصوصًا أنه كان يعمل وقتها في مديرية الصحة بالجيزة ويستطيع أن يوجهني إلى مكان مميز ومريح.. هكذا كنت اعتقد!

ذهبت إليه في مكتبة .. رحب بي وسألني سؤال مباغت: أنت تقدر تشتغل وتسد وتطول رقبتي؟

اجبت بكل حماس: طبعًا.. أنا مستعد أبات في الوحدة كل يوم.

ظهرت علامات الرضا على وجهه وقال: يبقى تروح إدارة إمبابة.. تستلم وحدة أتريس.

ذهبت بكل نشاط إلى وحدة اتريس .. وهي تقع على مسافة بعيدة عن إمبابة .. حوالي ساعة ونصف بالسيارة.. ولكن هذا لا يهم.. فهي وحدة شغالة كما قال لي المسؤول.. وكان من ضمن ما قاله أيضًا أن بها طبيبة واحدة سوف تترك الوحدة وتنتقل إلى وحدة أخرى يعمل بها زوجها .. حتى يعمل الاثنان معا في مكان واحد حسب رغبتهما.

وصلت إلى الوحدة .. رحب بي الموظفون ترحيبا فاترا!.. طلبت مقابلة الطبيبة فأدخلني أحد العمال إلى حجرة الكشف.. نظرت اليَّ الطبيبة نظرة استغراب .. ذكرتني بنظرة طبيب

العدوة عندما قابلته لأول مرة.. أعطيتها الخطاب الذي يتضمن قرار نقلى إلى وحدة اتريس ونقلها إلى الوحدة الاخرى.. ابتسمت في سخرية وقالت: ومين قال أني عاوزة اتنقل من هنا؟

فوجئت بإجابتها.. قلت: السيد المسؤول قالي كدة.

قالت وهي تعطيني الخطاب: أنا مش ماشية من هنا.. أنا قاعدة!

وكأنى اشاهد فيلم كوميدي سخيف.. نفس المشاهد تتكرر ولكن بأبطال مختلفين .. نفس الموقف الذي حدث معي في عدوة أسوان.

أخذت الخطاب ورجعت للسيد المسؤول.. اندهش وتعجب وقال: إزاي الكلام دا؟.. دي كانت عاوزة تشتغل مع جوزها.. . إيه اللي خلاها تغير رأيها؟

تسألني أنا؟!.. وأنا ايش عرفني؟!.. يمكن اتخانقت مع جوزها.. يمكن مش طايقه تشتغل معاه . المهم سيادتك حتتصرف إزاي دلوقتي؟؟

توقعت أن يتصل بها ويأمرها بإخلاء طرفها فورا تنفيذا للقرار الإداري الذي قام بالتوقيع عليه بنفسه.. ولكنني وجدته ينظر عبر النافذة ويفكر.. وقال بعد قليل: طب اسمع.. تروح برقاش.. الدكتور اللي هناك عاوز يمشى عشان يستلم النيابة بتاعته.

كدت أن اسأله: عاوز يمشى فعلًا ولا أروح الاقيه لغى النيابة وأرجعلك تاني بالجواب؟!.. ولكنى تراجعت وسألته سؤال آخر: برقاش دي وحدة كويسة؟

قال وهو يتحاشى النظر إلى: مش بطالة!

لم استرح لرده.. ولكن ما باليد حيلة.. أروح واكتشف بنفسي..

أخذت جواب (تانى) موجة إلى وحدة برقاش.. . وقررت الذهاب في اليوم التالي.

برقاش

وصلت إلى الوحدة التي تقع على مسافة قريبة من امبابة.. أي انها اقرب من اتريس.. دخلت الوحدة فاستقبلني الموظفون بالترحاب.. عكس مقابلة اتريس.. كان هناك عامل يدعى (حامد) بدا لي بشوشا وهادئا.. دعاني للجلوس في حجرة الكشف.. سألت عن الطبيب فقال لي أنه متعود ييجى متأخر.. واكد لي أنه ينوى الرحيل فعلًا.. الحمد الله .. أخيرًا وجدت طبيب يتنازل ويسلمني وحدة أعمل بها!.. سألته عن الكاتب فتجهم وجهه فجأة وقال: هو راح يفطر في بيتة وزمانة جاي!

تعجبت لذلك وقلت: هو متعود يفطر في بيتهم؟

قال لي وهو مازال متجهماً: ما هو بيتة قريب.. في الشارع اللي جنبنا.. حاعملك شاى.

بدا لي أنه لا يحب أن يتحدث عنه؟.. لا بأس.. لننتظر حتى يأتي الطبيب ويخلى طرفه.. ويأتي الكاتب بعد أن (يفطر) لينهي اجراءات الاستلام.

وصل الكاتب أولًا .. علم بقدومي فدخل إلى حجرة الكشف وهو ينظر إلى بتركيز .. كانت عيناه ضيقتان ونظراته حادة.. وجهه عابس ولا يبتسم ابدا.. مد لي يده في استعلاء قائلًا: يا مرحبًا.

لا ادرى لماذا وقفت منتصبا وأنا اسلم عليه.. منظره كان لا يوحي بأنه كاتب وحدة.. يعطيك انطباع بأنه ناظر عزبة أو مقاول انفار!

جلسنا وجه لوجه.. مازال ينظر إلى بنظرًاته الثاقبة.. القى علىّ ببعض كلمات الترحيب الجافة وسألني بعض الأسئلة الروتينية.. ثم أستأذن في الذهاب إلى مكتبه.

لم أشعر بارتياح.. منظرة لا يوحي بالثقة.. حاولت أن أقنع نفسي بان الانطباع الأول أحيانًا يكون خاطئا!

وصل الطبيب.. وما أن شاهدني حتى صاح فرحا: الحمد الله انك وصلت.. أخيرًا حامشى من هنا!

تغيرت المواقف .. بعد أن كنت أُقابل دائمًا بعدم ترحاب من أطباء الوحدات السابقة.. أصبحت الآن طوق نجاة لطبيب يريد أن يرحل اليوم قبل غداً.. ولكن.. لماذا هذا الاستعجال؟.. خمنت أن يكون السبب هو حرصة على استلام نيابته في أحد المستشفيات.. ولكنى اكتشفت السبب فيما بعد!

تجاذبنا بعض أطراف الحديث.. ثم قام وتوجه إلى مكتب الكاتب.. وبعد قليل سمعت مشادة كلامية بينهما.. توجهت إلى المكتب لأتبين ما يحدث.. وجدت الطبيب في حالة غضب وهو يقول: أنا قلت مش حامضي على الشهادة.. لازم اشوف الطفل بنفسي.

رد الكاتب: اجيبلك العيل إزاي وهو لسة ابن يومين؟

قال الطبيب: هو حييجى لوحدة؟.. امة تشيله وتجيبه.

قال الكاتب: تشيله إزاي وتنزل بيه ؟.. دي لسة نفسه (أي في فترة النفاس) وراقدة في سريرها.

اجاب الطبيب: أي حد من قرايبها يجيب العيل

قال الكاتب: يعنى مش حتمضى الشهادة؟

رد الطبيب: لا مش حامضيها غير لما اشوف الطفل بنفسي

قال الكاتب وهو يعطيه ظهره: يبقى أروح لمدير الإدارة يشوف حل للموضوع دا.

خرج الطبيب وأنا وراءه ودخلنا إلى حجرة الكشف.. سألته مستفسرا: هو اية الموضوع؟

قال: أنا قلت له مش حامضي على شهادة الميلاد لأي طفل غير بعد ما اشوف الطفل بنفسي.

قلت: واية السبب؟

قال في صوت منخفض: اصلى شاكك أنه بيعمل شهادات مضروبة.

قلت: مضروبة إزاي؟

قال وهو يخفض صوته أكثر: متهيألى بيطلع شهادات للأطفال وهميين!

ياعيني على الصبر.. أول القصيدة شهادات مضروبة.. دا اية الهنا دا.. دا الكاتب اللي المفروض حاشتغل معاه وحامضيله على شهادات الميلاد.. والوفاة كمان اللي سيادته

بيحررها.. أو بيضربها الله أعلم!

المصيبة أني حاختمها كمان .. لأني اكتشفت أن في الجيزة كان فيه تعليمات ادارية بان الختم يكون عهدة الدكتور.. عكس أسوان لما كان الختم عهدة (خلف) الكاتب.

اتفقنا أنا والدكتور أني استلم منه الوحدة بعد يومين.. حتى ينهي بعض الامور الخاصة به من الوحدة والإدارة.

مضى يومان وذهبت إلى برقاش في اليوم المحدد.. وقعنا على أوراق التسليم والتسلم.. استلمت منه الصيدلية و.. .. خاتم شعار الجمهورية.

سألته عن مشكلة شهادة الميلاد فقال أن الكاتب رضخ واحضر الطفل ليشاهده ثم قام بعدها بالتوقيع واعتماد شهادة الطفل.. حمدت ربنا أنه انهي هذه المشكلة قبل أن يرحل.

وأخيرًا ودعني وهو يقول: خلى بالك من الكاتب.. دا بيلعب بالبيضة والحجر.

طبيب أول وحدة برقاش

أصبحت طبيب أول وحدة برقاش.. وحتى تتضح الصورة .. فان الطبيب الاول ليس مجرد طبيب فقط.. هو طبيب يكشف على المرضى.. وصيدلي يستلم عهدة الصيدلية ويصرف الدواء للمرضى.. وطبيب شرعي يكشف على حالات الوفاة ليحدد سبب وفاتها.. ومفتش صحة يعتمد شهادات الميلاد والوفاة.. وطبيب وقائي مسؤول عن سلامة البيئة وصحة المواطنين بالقرية.. ومدير إداري مسؤول عن كل العاملين بالوحدة وعن متابعتهم والاشراف عليهم.. . أي إنها سبعة وظائف في وظيفة واحدة.

أضف إلى هذا مسؤولية خاتم شعار الجمهورية الذي استلمته وأصبح عهدتي .. وعندما استفسرت عن سبب إسناد مسؤولية الخاتم إلى طبيب الوحدة.. علمت من موظفي الإدارة أنه في الماضي القريب كان الختم في عهدة كتبة الوحدات.. كما هو الحال في أسوان.. ولكن تلاحظ تلاعب بعضهم بالختم واستخدامه في امور غير قانونية.. لذلك صدر الأمر بسحب الختم منهم وإسناد مسؤوليته إلى طبيب أول الوحدة.. والمذهل أن كاتب وحدة برقاش كان في طليعة الكتبة الذين دارت حولهم الشكوك في التلاعب بالختم!.. يا محاسن الصدف!

من أجل هذا كله .. بدأت العمل في برقاش وأنا في حالة توجس وحذر دائم .. خصوصًا في تعاملي مع هذا الكاتب الذي جمعت عنه معلومات أخرى لا تطمئن.

عرفت أنه كان مجرد عامل بالوحدة.. ونظرًا لوجود عجز في وظيفة الكاتب بالوحدات

.. صدر قرار غريب بترقية بعض عمال الوحدات الذين يجيدون القراءة والكتابة إلى وظيفة كاتب!

فأصبح بين يوم وليلة كاتب وحدة برقاش وامين عهدتها.. ولكنه لم ينس يومًا أنه كان عامل نظافة بالوحدة من قبل.. فأخذ يتعامل مع الكل باستعلاء وتكبر.. وكان الجميع يخشاه ويتجنبه لأنه كان أيضًا ينتمى إلى عائلة كبيرة بالبلد.. وقاده هذا الاستعلاء إلى الصدام مع الأطباء الذين عملوا من قبل في الوحدة.. كان يريد أن يفرض سيطرته على الطبيب حتى يصبح طوع يديه ولا يعارضه في أي شيء حتى ولو كان خطأ.. مما أدى إلى نفور الأطباء منه وترك العمل بالوحدة.. فهمت الآن لماذا كان الطبيب السابق متلهفا على اخلاء طرفة وتسليمي العمل!

علمت أيضًا أنه ورط طبيبا سابقا في شهادة وفاة ثبت بعدها أن صاحبها لا يزال على قيد الحياة! .. وأنه كان يريد الشهادة لتقديمها إلى المحكمة حتى يحكم القاضي بانقضاء الدعوى المقامة ضدة!.. وتم اكتشاف الموضوع وجرى فيه تحقيق انتهى إلى مجازاة الطبيب بخصم كبير ونقلة خارج الإدارة.. و(فلت) الكاتب بعد أن ألقى بالمسؤولية على الطبيب الذي اعتمد الشهادة وختمها بسلامة نية!

علمت أيضًا من حامد أن سيادته يقوم بنقل بعض الاشياء الخاصة بالوحدة إلى منزله!.. وإن من ضمن الاشياء التي استولى عليها ونقلها لمنزله انترية جديد كان قد وصل لتوه إلى الوحدة.. مما دعا بعض الاشخاص إلى ارسال شكوى ضدة من (مجهول) .. فتم تشكيل لجنة لجرد العهدة الخاصة به.. وبعد أن علم بموعد وصول اللجنة قام بإرجاع الأنترية إلى الوحدة.. وبعد أن انهت اللجنة عملها واثبتت أنه لا يوجد عجز في عهدته وانصرفت.. قام بنقل الأنترية مرة أخرى إلى منزله!

لذلك كله كنت حذرا في تعاملي معه .. وقررت إلا اعتمد أو اختم أي اوراق منه إلا بعد التأكد التام من انها سليمة.. وأي ورقة أو مستند اشك في صحته .. كنت أذهب فوراً إلى الإدارة الصحية لأسأل هناك عن مدى صحة وقانونية هذا المستند.. وعندما اتأكد من صحته أقوم بالتوقيع عليه واعتماده.

وقد تسبب هذا في صدام مستمر مع الكاتب.. كان يقول لي: يا دكتور أنت كدة بتعطلي شغلي.. مش كل حاجة تروح تسأل الإدارة.. لازم يكون في ثقة بيني وبينك.

ولكنى لم التفت إلى كلامة وصممت على موقفي.. عملا بالمثل القائل (لا خاب من استشار)

كان بالوحدة سكن مؤثث.. ولكن العمل بالوحدة كان ضعيفًا والدخل شحيحاً.. فلم يشجعني هذا على الإقامة الدائمة بالوحدة.. وكنت أذهب يومياً للوحدة ثم انصرف بعد انتهاء العمل عائداً إلى منزلي.

مضى على عملي بالوحدة شهران.. كانت المشاكل لا تنتهي في الوحدة بسبب الكاتب.. فبدأت افتقد حماسي ورغبتي في العمل.. وراودني التفكير في عدم الاستمرار وان اطلب نقلى إلى وحدة أخرى حتى ابتعد عن مضايقات هذا الكاتب.. إلى أن حدث الصدام الكبير بيني بينه.

كان يوجد معي بالوحدة طبيب أسنان.. وكان دائم الشجار مع الكاتب الذي كان يريد فرض سيطرته عليه.. فكان يقوم بالشطب عليه في دفتر الحضور عندما يتأخر.. ورغم أنني نبهته أكثر من مرة إلا يشطب على أحد بدون أذني.. إلا أنه كان يستغل عدم وجودي ويشطب أمام الغائبين في الدفتر.

وفي أحد الأيام حضر طبيب الأسنان فوجد أن الكاتب قد غيَّبة في اليومين السابقين وارسل مذكرة إلى الإدارة بغيابة وبدون علمي .. فتشاجر معه الطبيب ووصل الأمر إلى التشابك بالأيدي.

وعندما علمت بذلك اصطحبت الطبيب وذهبنا لمقابلة مدير الإدارة .. وبعد أن عرضنا عليه الأمر طالبته بمعاقبة الكاتب ونقله من الوحدة أن امكن حتى تهدأ الامور.

استمع المدير الينا ثم هز رأسه وقال: طيب روحوا أنتوا لشغلكم وأنا حاشوف حل للموضوع دا.

توقعت أن يستجيب المدير لطلبي وان يرسل قرار بنقل الكاتب أو حتى معاقبته .. ولكنه ارسل لنا بعد يومين قرارا بنقل طبيب الأسنان إلى وحدة أخرى!!

ايقنت أن كاتب الوحدة هذا له (حصانة) عند الإدارة .. والسبب أن كاتب الوحدة لا يمكن الاستغناء عنه لعدم وجود بديل له.. أما الطبيب فيمكن بسهولة الاستغناء عنه لوجود مائة طبيب يمكن أن يحل محله!

ساعتها قررت عدم البقاء في هذه الوحدة مع هذا الكاتب.. طلبت من مدير الإدارة نقلي

إلى وحدة أخرى.. حاول أن يقنعني بالبقاء ولكنى كنت مصممًا على قراري .. وعندما وجد المدير أنه لا فائدة من إقناعي عرض على أن اذهب إلى وحدة بعيدة جدا فرحبت بذلك.. كنت قد وصلت إلى طريق مسدود مع هذا الكاتب وكنت على استعداد أن اذهب إلى آخر الدنيا حتى لا أرى وجهه مرة أخرى!

وبالفعل.. صدر قرار بنقلي من وحدة برقاش إلى آخر وحدة في إدارة امبابة والجيزة كلها.. وحدة تقع شمالًا على حدود محافظة البحيرة.. وحدة بنى سلامة.

بنى سلامة

تقع قرية بنى سلامة كما ذكرت في أقصى شمال محافظة الجيزة.. على بعد ستة كيلومترات فقط جنوب مدينة الخطاطبة التي كانت تتبع محافظة البحيرة (تتبع الآن محافظة المنوفية) ..

مشهورة بما يسمى مرمدة بنى سلامة .. وهي منطقة أثرية بها بقايا بيوت وعظام بشرية لأقدم مدينة سكنية في العالم.. وان كانت لم تنل شهرة مثل باقي الآثار المصرية.

يقسمها فرع النيل إلى قسمين.. معظم القرية يقع شرق النيل.. وتوجد بعض المنازل في الغرب.. منطقة يسمونها (غرب المتر) .

أهل القرية طيبون ومسالمون .. أصولهم عربية .. ويوجد بعض العرب يسكنون في الجبل غرب المتر.. والحقيقة إنها بلد هادئة وجميلة تشعر فيها بالألفة والمودة.

توجهت إلى بنى سلامة في سيارة اجرة قطعت المسافة من امبابة إلى القرية في حوالي ساعة ونصف.. دخلت الوحدة وقابلت الطبيب الاول الذي رحب بي.. كان قد صدر له قرار نقل إلى مستشفى وردان القريبة ليتولى منصب المدير .. وكان سعيداً بهذا القرار الذي اعتبره ترقية وتقديرًا له (انقلب إلى ندم فيما بعد)

عرفني بموظفي وعمال الوحدة.. أول من سألت عنه كان كاتب الوحدة.. أخذ الطبيب يعدد محاسنة ووصفه بأنه اطيب كاتب في الإدارة كلها.. حمدت ربنا أني لن أدخل في صراعات كما حدث من قبل مع كاتب برقاش.

استغربت بشدة عندما علمت أن طبيب الوحدة لم يكن يبيت فيها .. بل كان يأتي يوميا بعربات الاجرة وينصرف بعد انتهاء العمل إلى منزله في إمبابة .. طبعًا جهد كبير ومشقة في السفر .. وعندما استفسرت عن سكن الأطباء قالوا لي أنه في حاجة إلى تجهيزات بسيطة.. قررت أن ادعهم يجهزون السكن استعداداً للمبيت في الوحدة.. لأنه كان من الصعب أن

اسافر يوميا من منزلي بشبرا إلى بنى سلامة .. رحب العمال بذلك ووعدوني بتجهيز السكن.

وأخيرًا استلمت الصيدلية والختم من الطبيب الذي أخلى طرفة وذهب ليستلم عمله الجديد في مستشفى وردان.. وأصبحت أنا طبيب أول وحدة بنى سلامة.

طبيب أول وحدة بنى سلامة

بدأت عملي في الوحدة وأنا سعيد.. كان جميع من بالوحدة طبيين وعشريين.. وكان كاتب الوحدة كما وصفة لي الطبيب السابق رجل مستقيم ومسالم ويراعي ضميره في كل ما يعمل.. على النقيض تماماً من كاتب وحدة برقاش.

كان فريق العمل يجتمع صباحًا قبل بدء العمل.. نجلس سويًا في الحديقة صيفًا أو في حجرة الحارس شتاءً.. نحتسى الشاي ونتبادل الحديث والأخبار.. ثم يتوجه الجميع إلى عمله بكل همة واخلاص.

كنت اعمل بالوحدة طوال أيام الأسبوع واسافر يومي الخميس والجمعة اقضيهما مع أسرتي.. ثم ارجع للمبيت في سكن الوحدة الذي تم تجهيزه.. كان السكن بسيطًا جدًا .. حجرة واحدة لي بها سرير ودولاب ومنضدة وكرسي.. ومطبخ به ثلاجة .. وحمام صغير.. وحجرة أخرى خصصتها للعامل النوبتجى الذي يبيت معي ليلًا.. رغم أني عرضت على العمال أن ينصرف النوبتجى ليلًا إلى منزله ويتركني أبات بمفردي .. إلا أنهم اصروا بكل شهامة على المبيت معي كل يوم .

كنت سعيداً بالسكن خصوصًا أنه لم تكن هناك هذه الفئران المتوحشة التي رايتها في سكن العدوة.. وان حدث ذات مرة اننا لاحظنا دخول فأر إلى السكن رغم اننا كنا نغلق الابواب والمنافذ جيدا.. وعندما بحثنا عن السبب اكتشفنا أن الفأر الملعون كان يتسلق الشجرة المقابلة للسكن.. ويمشي على غصن كبير يصل إلى نافذة حجرة العامل التي كان يتركها مفتوحة في الصيف.. ثم يقفز من خلالها إلى داخل الحجرة!.. وعندما اكتشفنا الأمر قمنا بقطع فرع الشجرة وتخلصنا إلى الأبد من مضايقات هذا الفأر الماكر.

بدأت العمل بالوحدة بكل همة ونشاط.. في الصباح اكشف على المرضى في العيادة الخارجية وأصرف لهم العلاج.. وبعد الظهر استقبل المرضى الذين بدأوا يتوافدون بعد انتشار خبر مبيتي في الوحدة ليلًا ونهارًا.. وأحيانًا كان يأتي بعض المرضى في منتصف الليل أو حتى فجرا حسب شدة المرض.. فكان العامل النوبتجى يوقظني لأقوم بالكشف على

المريض وصرف العلاج الضروري له.

كما كنت أخرج كثيرًا للكشف على المرضى الذين يمنعهم المرض الشديد من الحضور إلى الوحدة . كنت أنتقل من الوحدة إلى المنزل أما مشيا إذا كان المنزل قريبا.. أو بسيارة نصف نقل يحضرها أهل المريض إذا كان المنزل بعيدا.. أو بالمعدية إذا كان المنزل في غرب المتر.

وأحيانًا قليلة كنت أنتقل راكبا (حمار) إذا لم يستطع مرافقي أن يأتي بعربة تقلني .. ومن الطرائف التي حدثت معي أثناء ذهابي للكشف راكبا حمار.. إن الحمار كان يسير بمفرده لأنه كان يعرف الطريق!.. وصاحبة يسير بجواري .. إلى أن وصلنا إلى مجرى مائي ضيق (قناية) .. وقف الحمار أمامها قليلًا.. نظرت إلى صاحب الحمار فقال لي: ماتخافش يابية.. حيعديها.

وبالصدفة مرت إحدى السيدات بجوارنا وشاهدت المنظر.. قالت لصاحب الحمار: خلى بالك أحسن الحمار يفط (يقفز) ويوقع الدكتور.

ما أن سمعت ذلك حتى نزلت بسرعة من على الحمار وصاحبة يقول لي: ماتخافش يا دكتور مش حيحصل حاجة.

ولكني تجاهلته وقفزت من فوق القناية بخطوة واسعة إلى الجهة الأخرى وقلت له: خلى الحمار بقى ييجى على مهله هنا .

وانتظرت حتى قفز الحمار من فوق القناية فركبته مرة أخرى وانطلقنا في طريقنا.

عودة الطبيب

كنت سعيداً بالعمل وبالصحبة الطيبة واكتسبت سمعة طيبة بين أهالي القرية في زمن قليل.

وفي أحد الأيام-وكان قد مضى على عملي بالوحدة حوالي شهران - فوجئت بالطبيب السابق يحضر لمقابلتي ويعرض علىّ أمر غريب .. عرض علىّ أن يرجع مرة أخرى للعمل بوحدة بنى سلامة .. وان اذهب مكانة للعمل بمستشفى وردان!

كان قد وصل إلى مسامعنا في الفترة الماضية أن الطبيب واجة مشاكل كبيرة مع الموظفين والممرضات بالمستشفى.. حيث كان يريد أن يفرض عليهم نظام معين لم يقبلوا به.. وصل الصدام بينهم اشدة عندما تشاجر مع ممرضه بالمستشفى بسبب كثرة تأخرها عن العمل لظروف خاصة بها.. ووصل الصدام إلى ذروته عندما اعتدت عليه بزهرية ورد قذفتها في وجهه وتفاداها بأعجوبة!

وصل أمر الشجار إلى الإدارة .. واعتكف الطبيب في منزله وصمم إلا يذهب مرة أخرى للعمل بالمستشفى إلا بعد نقل الممرضة منها.. ولكن مدير الإدارة- كالعادة- تباطأ في اتخاذ أي اجراء ضدها انتظارا لما تسفر عنه التحقيقات.. وطال الأمر حتى يأس الطبيب وفكر بشدة في العودة إلى بنى سلامة خصوصًا أنه كان ينعم بالهدوء وراحة البال في الوحدة.

وبعد أن عرض عليَّ الأمر رفضت بشدة.. كان من الجنون أن اترك هذه الوحدة الهادئة (الشغالة) .. وأذهب إلى مستشفى بها من المشاكل ما يكفى لتطفيش أي طبيب يعمل بها.

لجأ الطبيب إلى مدير الإدارة وعرض عليه الأمر.. لكن المدير كان في صفى بعد أن علم بأني أبيت ليلًا ونهاراً في الوحدة وان أهل البلد كلهم متمسكون بي لهذا السبب.

يأس الطبيب السابق من العودة إلى بنى سلامة مرة أخرى.. وانتهت التحقيقات إلى مجازاة الممرضة بالخصم وعدم نقلها.. وعلمت بعدها أن الطبيب سافر إلى بلد عربي وترك وردان.. والجيزة.. ومصر كلها.

ذكريات بنى سلامة

ذكرياتي في بنى سلامة هي أجمل الذكريات ولا يمكن أن انساها مهما طال بي الزمن.. قضيت ثلاث سنوات من أجمل سنوات عمري.. وكان لي فيها مواقف طريفة ومثيرة.

أمسيات صيفية

في ليالي الصيف الهادئة كان يحلو لنا الجلوس معا.. أنا والعامل النوبتجى ومجموعة من جيران الوحدة الصحية الذين ينضمون الينا في جلسة أنس وفرفشة.. نجلس في حديقة الوحدة نحتسي الشاي الريفي ابو دورين .. ونتبادل الأحاديث والحكايات والطرائف حتى منتصف الليل.

كانت الصحبة جميلة ومسلية.. اذكر منهم عم (طلبة) .. الذي كان في الستينات من عمره.. كان يعمل حارس ليلى لإحدى الشركات القريبة.. كان دائمًا ما يسرد علينا الحكايات والقصص المملؤة بالخرافات والاساطير.. مثل حكاية الجنيّة ام الشعور التي تظهر ليلًا في الحقول.. والجني الأحمر الذي يجول يبحث عن حسناء ليتزوجها تحت الأرض!.. وعروس البحر التي تصعد أحيانًا من جوف النهر!

كنت استمع إلى هذه الخرافات وأنا اكتم الضحك .. وكان ما يزيد ضحكي هو منظر الجالسين وقد اتسعت عيونهم وهم ينصتون إلى حكاوى عم طلبة في دهشة واعجاب ورهبة!

وكان هناك أيضًا (ممدوح) صاحب محل العصائر والحلويات القريب.. والذي كان يتحفنا كل بضعة أيام بصينية عليها بعض انواع الجاتوة والحلويات.. كنا نظن انها كرم زائد منه.. إلى أن اكتشفنا أن الثلاجة التي في محل لا تعمل لوجود عطل بها.. وعندما توشك الحلوى على الفساد كان يأتينا بها على أساس إنها (كادو) .. ولم نكتشف هذا الأمر إلا بعد أن أصيب (سالم) العامل بالوحدة بمغص واسهال عقب تناوله لقطعة جاتوة منتهية الصلاحية!

وكان هناك أيضًا (منتصر) .. صاحب كشك السجائر المجاور للوحدة.. كان دائمًا ما يقص علينا حكاية زوجته الاولى التي انفصل عنها لسوء سلوكها.. وكيف انها (سودت عيشته) لأنها كانت نكدية وسيئة الطباع.. وكان لا يمل من تكرار الحديث عنها كل ليلة حتى كرهناها بدون أن نراها.. وكرهنا سيرتها.. وكرهنا منتصر نفسه من كثرة حكاياته عنها!

ومن الطرائف التي حدثت معه أنه اتى ذات ليلة وهو يحمل جهاز تسجيل وصندوق به شرائط كاسيت.. ثم جلس ووضع الجهاز أمامه وقال: حاسمعكم شوية أغاني ومواويل عجب.

ثم وضع أحد الشرائط في الجهاز فخرج صوت يشبه نعيق الغربان! يشدو بكلام لا يمكن تفسيره.. سألته: مين اللي بيغنى دا يا منتصر؟

قال: دا الريس دندراوى.. احسن واحد يقول مواويل.

لم أستطع سماع دندراوى لأكثر من خمسة دقائق فطلبت منه أن يضع شريط آخر.. وضع شريط لمطربة لا أتذكر اسمها ولا أريد أن أتذكره!.. كان صوتها لا يقل بشاعة عن صوت دندراوى .. عندئذ طلبت منه أن يغلق الكاسيت حتى نستمتع بالهدوء.. وبالفعل أغلق الكاسيت وبدأ يسرد علينا حكاية من حكايات زوجته الأولى!

كنت سعيدا بوجودي وسط هؤلاء الناس الطيبين .. ولم اشعر أبدًا بغربة في هذه البلد الجميلة.

حالة ولادة بالإكراه

كما هو الحال في معظم قرى مصر.. كانت توجد داية محترفة في بنى سلامة .. وكانت حريصة ولا تغامر.. إذا ما وجدت أن الولادة متعسرة كانت توصى باستدعاء الطبيب.. كما أن معظم أهل البلد كانوا على درجة من الوعى.. وأحيانًا كانوا يستدعون الطبيب مباشرة ولا يستدعون الداية.

وكنت في كثير من الأحيان أباشر حالات الولادة في المنزل.. وفي أحد المرات أتى إلى الوحدة سائق عربة نصف نقل اسمه محمد.. كنت اعرفه من قبل حيث قام بتوصيلي عدة مرات.. طلبني لمباشرة زوجته التي تلد بالمنزل.. ذهبت معه ودخلت إلى حجرة النوم حيث كانت الزوجة ترقد على السرير (الحمد الله انها لم تكن ترقد على الأرض)

كانت الزوجة متوترة جدا وعصبية.. كانت تصرخ بشدة مع بداية كل طلق.. وأثناء الطلق.. وبعد انتهاءه أيضًا!

طلبت منها أكثر من مرة أن تهدأ بلا فائدة.. كانت امها تجلس بجوارها على السرير.. وكان زوجها يدخل الحجرة على صراخها ويطلب منها أن تهدأ بلا فائدة.

إلى أن جاءت لحظة طلق عنيف.. فصرخت بكل قوة فيها.. فوجئت بالزوج يدخل مندفعا قائلًا: يابنت ال (.. .. .) .. حتأذى نفسك وتأذى العيل.

ثم قفز على السرير وأخذ يكل لها الصفعات يمينا وشمالا .. في تلك اللحظة بالذات خرج الطفل وتلقيته بيدي.. وكان الزوج مازال مستمراً في صفع زوجته.. قلت له مسرعًا: خلاص يا محمد.. الولد نزل.. كفاية ضرب بقى.

التفت إليها وقال: ما اسمعش صوتك تاني.. فاهمة؟

بعدها التزمت الزوجة الصمت التام.. وانهيت إجراءات الولادة وأنا أكتم الضحك من طرافة ما حدث.

رئيس نقطة شرطة وردان

من افضل من تعرفت عليهم أثناء عملي في وحدة بنى سلامة هو النقيب محمد صِدّيق.. رئيس نقطة شرطة وردان التي تتبعها بنى سلامة والقرى المجاورة.. كان شخصية ودودة ويتمتع بالذكاء والفطنة.. كان يستدعيني في حالة حدوث أي حادث على الطريق الزراعي.. فنذهب سويا إلى مكان الحادث كي اعاين أي جثة توفي صاحبها.. وأكتب تقريرا يتضمن سبب الوفاة.. يرسله النقيب محمد مع اوراق المحضر إلى النيابة لاستصدار تصريح بدفن الجثة.

كان هذا جزءًا من عملي كمفتش صحة بنى سلامة.. كتابة التقارير عن المتوفين في حوادث السيارات.. أما المصابين فيتم نقلهم عن طريق الإسعاف إلى أقرب مستشفى (غالباً مستشفى إمبابة العام) ليتلقوا العلاج هناك.. وتصدر المستشفى تقريرا نهائيا عنهم بعد علاجهم.

جثة بلا رأس

في إحدى المرات فوجئت بالنقيب محمد يحضر إلى الوحدة حوالي الساعة العاشرة مساءً بصحبة شيخ الخفر وبعض الخفراء .. وطلب منى أن اذهب معه إلى إحدى المحاجر القريبة

حيث وقع حادث لتبَّاع عربة نقل.. كان التباع قد سقط من العربة أثناء تحركها ووقع تحت العجل الخلفي ولم ينتبه السائق إلى سقوطه.

وأثناء ركوبنا سيارة الشرطة قال لي النقيب محمد : بيقولوا الجثة من غير راس!

قلت: إزاي؟

قال: اللي بلغوني قالوا كدة.

أخذت افكر.. كيف حدث هذا؟.. هل انقطعت راسة وتدحرجت بعيدا؟.. هل قطعت بفعل فاعل والأمر به شبهة جنائية؟.. عمومًا لنذهب ونرى.

وصلنا إلى موقع الحادث وتوجهنا إلى مكان السيارة.. فوجئت بالمنظر الرهيب .. التباع سقط تحت العجلات الخلفية أثناء تحرك السيارة.. فمرت العجلة فوق راسة ودهستها.. وفركتها تماماً لمسافة كبيرة فبدت الجثة بلا رأس!

كان منظرًا مؤلما وقاسيا.. لدرجة أن أحد الخفراء الواقف بجوارنا اغمى عليه من هول المنظر.. واضطرت إلى ترك الجثة والتوجه إليه لإفاقته.

السيارة الغارقة

كما قلت .. كان النقيب محمد يتميز بذكاء كبير .. وقد تبينت ذلك في واقعتين حضرتهما بنفسي.

الواقعة الاولى.. عندما خرجنا لمعاينة حادث سقوط سيارة نصف نقل سقطت في النهر.. وصلنا إلى مكان الحادث فوجدنا جمع من الأهالي في المكان .. لم يكن هناك أي متوفين أو مصابين.. وحسب المعلومات التي وصلتنا أن السائق ومن معه قفزا من السيارة أثناء سقوطها وهربا.. فقد كانت السيارة تحمل مواد غذائية مهربة.. كما انها كانت بدون نمر ولا رخصة!

تم استدعاء ونش لاستخراج السيارة .. وأثناء محاولة استخراجها وجدت النقيب محمد يتجول ببصرة بين الأهالي المتجمعين لمشاهدة الموقف.. ثم اقترب ببطء من أحد الأشخاص وبدأ يسأله: هي العربية دي منين؟

اجاب الاخر بلا اهتمام: دي مش من هنا.. دي من البحيرة.

قال النقيب: محدش يعرف صاحبها؟

قال الآخر بنفس اللامبالاة: صاحبها مش من بلدنا

قال الضابط: طب السواق فين؟

قال الاخر وهو يتحاشى النظر إليه: السواق خد بعضة وهرب.

وفجأة وبلا مقدمات.. وضع الضابط يده على كتف محدثة.. ثم نادى على الشاويش وأمرة بالتحفظ عليه في البوكس!

فوجئ المتحدث بهذا الأمر وقال: ليه يا بيه أنا ماليش دعوة.

قال الضابط: ماتخافش.. حنروح القسم نأخذ منك كلمتين عشان المحضر.

فوجئت أنا الاخر بهذا الإجراء.. لماذا أمر بالتحفظ عليه ؟

وبعد قليل وأثناء انشغال الجميع بإخراج السيارة.. وجدت في البوكس شخصا آخر تم التحفظ عليه بجوار الاول.. وبعد إخراج السيارة توجهت مع النقيب محمد إلى سيارة البوكس ووجه كلامه إلى الشخصين: مين فيكم بقى السواق.. ومين صاحب العربية؟

صمت الاثنان قليلًا ثم قال أحداهما في استسلام: أنا صاحب العربية.. ودا السواق!

تعجبت جدا.. وعندما ركبت بجوار النقيب محمد سألته: أنت عرفتهم إزاي من وسط الناس دي كلها؟

ضحك وقال: دي شغلتنا.. الناس كلها بتتفرج على العربية وهي بتطلع من الميه .. وأنا باتفرج على الواقفين.. اكتر واحد كان خايف على العربية يحصلها حاجة وهم بيطلعوها شكيت أنه صاحبها.. والتاني كان بيبص جوة العربية وهي طالعة زي ما يكون بيدور على حاجة تخصه جواها.. دا طلع سواق العربية.

ضحكت في سري وقلت: يالك من ضابط محنك.

الكاتب اللص

الواقعة الثانية .. كانت مرتبطة بشاب التحق مؤخراً بالعمل في الوحدة كاتب.. كان منقولا من وحدة أخرى نظرًا لسوء سلوكه.. وكنا جميعا نتجنبه ونأخذ حذرنا منه نظرًا لسمعته السيئة.

وحدث أن تم سرقة شقة في العمارة التي يسكن بها هذا الكاتب.. كان صاحب هذه الشقة قد توفي صباح هذا اليوم وخرج جميع من في المنزل لتشييع جنازته وتوصيلة إلى المقابر.. وعند عودة أهل المتوفي اكتشفوا كسر باب الشقة وسرقة نقود ومجوهرات من الدولاب.

بدأ النقيب محمد يحقق في هذه السرقة.. وبعد يومين جاءنا خبر أنه تم القبض على هذا

الكاتب بتهمة سرقة شقة المتوفي!

ذهبت إلى النقيب محمد حتى اتأكد من الخبر .. ثم سألته كيف توصل إلى معرفة السارق.

قال: أنا أخذت اقوال كل سكان العمارة واحد واحد.. ولما جه الدور على الكاتب لقيتة داخلي وفي إيده كتاب (عذاب القبر) .. قلت له أنت بتقرأ كتب دين؟.. قالي طبعًا أنا ماباقراش غير كتب الدين.. سألته سؤال بسيط في الدين فلم يعرف الإجابة .. تأكدت أنه دخل عليا بكتاب دين عشان يضللني ويثبتلي أنه راجل تقى وبتاع ربنا ويبعد الشبهة عنه.. . صرفت كل المشتبه فيهم ماعدا هو.. وخليته يقعد جنبي في وضع (القرفصاء) وسبتة.. بعد ساعة لقيتة ابتدأ وشه يصفر ومناخيره تسيل .. واترجانى أنه يروح يجيب برشامة من البيت.. اتضح أنه مدمن برشام.. قلت له طب اعترف الاول وأنا اريحك.. قام اعترف على طول بأنه غافل الناس المشيعين ورجع بسرعة إلى المنزل.. طبعًا كان عارف أن ما فيش حد في البيت كله.. كسر باب الشقة ودخل سرق الحاجة من الدولاب.. ورجع بسرعة على المدافن وشارك في دفن المتوفي!

قلت له: فعلًا.. شغل المباحث دا عاوز ناس اذكياء ويقدروا يحللوا الامور ويوصلوا للنتائج.

عندما اتهمت بالسرقة

اكبر مشكلة قابلتني في بنى سلامة هي اتهامي بالسرقة.. لم تكن تهمة سرقة اموال.. أو ادوية.. أو حتى سرقة اعضاء لا سمح الله.. انما كانت تهمة سرقة.. تيار كهربائي!

من المعروف أن الوحدات الريفية الصحية بُنيت بدون عدادات كهربائية.. على اساس انها وحدات حكومية خدمية للصالح العام.. واستمرت على هذا الوضع سنين طويلة منذ انشائها في اوائل الستينات.. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان..

في إحدى العصاري كنت اجلس في حديقة الوحدة احتسى الشاي.. عندما وجدت شخصا انيق الملبس يخترق شجيرات الحديقة قادما نحوى.. وكان أمامه شخص آخر يوسع له الاغصان كي يمر!.. وصل إلى حيث اجلس وقال لي بكل ادب: أنا المقدم (.. .. .) من مباحث الكهرباء.

دعوته للجلوس وشرب الشاي.. قال بكل هدوء: هي الوحدة دي فيها عداد؟ قلت: لا.. من ساعة ما أُنشئت وهي من غير عداد.

قال وهو يبتسم: بس دا غير قانوني.. طب أنا هاعمل مخالفة صغيرة بعشر لمبات بس.. تدفعوا غرامتها في إدارة الكهرباء لغاية ما تركبوا عداد عشان تبقوا في السليم.

اعتقدت أن الأمر بسيط.. خصوصًا أنه كان ودودا معي وفي غاية الظرف.. شرب الشاي وانصرف.

تاني يوم ارسلت عامل لإدارة الكهرباء للاستفسار عن مبلغ الغرامة حتى يتم مخاطبة الإدارة الصحية لدفعة.. فوجئ العامل بان هناك مئات من الافراد الذين تم عمل مخالفات لهم عن طريق الضابط الكيوت الذي قاد حملة موسعة على كل القرى التابعة لوردان وحرر عشرات المخالفات لعشرات الاشخاص الذين يستخدمون (بلاش يسرقون دي) الكهرباء بدون عداد.

خاف العامل من المنظر خصوصًا أنه سمع أن من كان يمتنع عن دفع الغرامة يتم اتخاذ الاجراءات القانونية ضده! رجع العامل كما ذهب ولم يتم الاستعلام عن مبلغ الغرامة أو دفعها.

لم اهتم لهذا الموضوع كثيرًا وقررت أن اخاطب الإدارة حتى تتولى دفع الغرامة بمعرفتها والبدء في إجراءات تركيب عداد للوحدة.

بالطبع فإن الاجراءات أخذت وقتاً طويلاً لدرجة إننا نسينا الموضوع كله.

بعد مضى شهرين على هذه الواقعة فوجئت بما لا يخطر على بال.. استدعاء من النقيب محمد صديق لمقابلته في نقطة شرطة وردان .. ذهبت إلى هناك فوجدت زميل لي وهو طبيب وحدة اتريس المجاورة حيث تم استدعاءه أيضًا.. قابلنا النقيب محمد الذي بادرنا بالسؤال: أنتوا عملتوا اية بالظبط؟.. قتلتوا عيان ولا اجهضتوا واحدة ست؟؟ قلت: طبعًا ماحصلش .. انما ليه السؤال دا؟

قال: كل واحد فيكم جايله حكم بست شهور سجن مع الشغل والنفاذ!

وقع علينا الخبر كعمارة من عشرة ادوار سقطت فوق رؤوسنا.. ستة شهور سجن؟!.. لية؟.. ليه وعشان ايه؟؟

كانت الإجابة أن أمر الضبط والاحضار يأتي بدون ذكر التهمة.. فقط بالحكم المطلوب تنفيذه.. ويجب ظبطنا واحضارنا .. وبدون أن نعرف السبب!

قال النقيب محمد: طبعًا المفروض دلوقتي احطكم في الحجز لغاية الصبح.. وبعدين

ارحلكم على النيابة تعملوا معارضة في الحكم لأنه صدر غيابي وتتحدد لكم جلسة تاني.
قلت: نبات في الحجز؟!.. دي اخرتها؟

ضحك النقيب محمد وقال: طبعًا مش ممكن دا يحصل معاكم.. أنتوا تروحوا دلوقتي على وحداتكم.. وبكرة الصبح تروحوا تعملوا معارضة للحكم وتجيبولي صورة من المعارضة.

رجعت إلى الوحدة وأنا في شدة الذهول .. ماذا فعلت حتى يحكم على بستة شهور سجن مع الشغل والنفاذ؟؟.. طول عمرى احترم القانون ولم ارتكب أي شيء يخالفه.

لم أنم ليلتها.. وفي الصباح الباكر توجهت مع زميلي لاستطلاع الأمر .. علمنا أن التهمة هي سرقة تيار كهربائي !

اتضح أن الضابط الظريف الودود الذي شرب الشاي معي .. كتب المخالفة باسمى بصفتي مدير الوحدة.. وحيث أن الغرامة لم تدفع.. تم تحويل المحضر إلى النيابة .. التي حولته بدورها إلى المحكمة (دون استدعاء) .. والتي حكمت علينا غيابيا بهذا الحكم.

تم عمل معارضة للحكم وحددت جلسة أخرى.. اضطرت إلى توكيل محامي ليترافع عنى في القضية (أصبحت قضية وأصبحت متهما)

ذهبت معه إلى الجلسة في اليوم المحدد.. انتظرنا دورنا في الرول.. وقفنا أمام القاضي الذي وجه سؤاله إلى المحامي: إزاي الوحدة تشتغل من غير عداد؟.. أخذ المحامي يشرح له أني طبيب ولست مسؤول عن عدم تركيب عداد.. وان السؤال يجب أن يوجه إلى الإدارة الصحية أو المديرية أو الوزارة أو أي جهة حكومية .. بالإضافة إلى أنه تم دفع الغرامة من قبل الإدارة.

ولكن القاضي كان مستعجلاً نظرًا لكثرة القضايا التي ينظرها والتي تجاوزت المائة.. فقال بسرعة: بس هو مدير الوحدة المسؤول.. الحكم آخر الجلسة.

كلمة الحكم آخر الجلسة معناها أن توضع في الحجز حتى ينتهي القاضي من نظر جميع القضايا .. ويدخل إلى حجرة المداولة.. ثم يصدر الاحكام لتلك القضايا .

ما أن نطق القاضي بهذه الكلمة.. حتى فوجئت بيد ثقيلة توضع على كتفي.. التفت فوجدت شاويش في حجم باب القاعة.. سحبني وأجلسني مع من تم احتجازهم لآخر الجلسة.. لحسن الحظ أنه لم يكن هناك قفص بالقاعة والا كنت حجزت بالقفص مع اللصوص والنشالين وقطاع الطرق.. فتم احتجازنا بنفس القاعة .. انتظرنا لمدة ساعتين كانا من اصعب الساعات التي مرت في حياتي.. إحساس انك محبوس لا تستطيع فكاكا!

أخيرًا.. خرج سكرتير الجلسة ومعه الاحكام.. سألناه عن قضيتنا فرفض أن يخبرنا بالحكم إلا بعد أن ندفع الحلاوة!.. دفعنا الحلاوة صاغرين فاخبرنا بالحكم.. وقف التنفيذ لأنه تم سداد الغرامة!

في البداية فرحت بالحكم.. ولكن بعد أن سألت أحد أقاربي الذين لهم صلة بالمحاكم .. اخبرني أن وقف التنفيذ لا يلغى الحكم.. وإنه يمكن أن يعتبر (سابقة) لي.. ويدون في الفيش والتشبيه!

ما هذا البلاء المستعصي؟!..

والعمل؟... قال قريبي: يجب عمل استئناف للحكم لإلغائه تماماً.

تم عمل استئناف.. وتم تحديد جلسة لنظر القضية .. اصطحبت معي محامي آخر نظرًا لأني تشاءمت من المحامي السابق!.. حضرنا الجلسة وانتظرنا دورنا.. وقفنا أمام قاضى الاستئناف الذي قرأ الاوراق بعناية ثم التفت إلى وكيل النيابة وقال: القضية دي جناية.. مش جنحة!!

ذهبت في جنحة.. فوجدت نفسي متهمًا في جناية.. والحقيقة انها لم تكن مفاجأة بالنسبة لي.. كان قريبي قد شرح لي أني موظف عام.. والكهرباء مال عام.. أي أن موظف عام سرق مال عام.. إذن فهي جناية.. والنتيجة.. حولت القضية من محكمة الجنح إلى محكمة الجنايات التي حفظت القضية لعدم الاهمية نظرًا لزوال أسباب التهمة بدفع الغرامة وتركيب عداد.

تم بالفعل حفظ القضية وانتهت المعاناة التي استمرت لستة شهور عشت فيها قلقا بلا مبرر.. بالإضافة إلى ما تكبدته من مصاريف وأموال بعد توكيل اثنين من المحامين.. كل هذا لسبب لا ذنب لي فيه.. وحدة أُنشئت في اوائل الستينات بلا عداد.. ولم يسأل أحد عنها طوال ربع قرن.. إلى أن استيقظ مسؤول من نومة بعد طول رقاد.. وقرر اعتبار الأمر جنحة سرقة تيار.. اقصد جناية سرقة تيار.. وكنت أنا الضحية.

وداعا بنى سلامة

قضيت في وحدة بنى سلامة ما يقرب من ثلاث سنوات كانت من أجمل سنين عمرى.. كانت عوضًا لي عما لاقيته من مضايقات في العدوة.. ومشاحنات في برقاش.. وعقارب وثعالب في أبو سمبل!

ورغم أن مدة تكليف الطبيب في الريف كانت سنة واحدة فقط يمكن بعدها أن يتقدم

لحركة النيابات ليختار التخصص الذي يرغبه (حسب المتاح من تخصصات في مختلف المحافظات)

إلا أن استمتاعي بالعمل في بنى سلامة جعلني اؤجل نيابتي سنة وراء الاخرى حتى مضت اربع سنوات على تكليفي.. وكانت آخر فرصة لي في التقدم للنيابات هي في نهاية السنة الرابعة.. لا يحق لي بعدها أن اتقدم لحركة نيابات الوزارة .. وأنتظر بعد ذلك لأقدم في نيابات الريف التي تحتم على أن اعمل في وحدات ومراكز الريف إلى مدى الحياة.

لهذا كنت في صراع مع نفسي.. هل اتقدم بأوراقي في آخر حركة نيابات متاحة لي .. ام استمر في العمل ببنى سلامة وتضيع عليّ آخر فرصة للعمل في مستشفيات الوزارة كأخصائي.

وبعد تفكير طويل اخترت التقدم لحركة النيابات الاخيرة.. واخترت تخصص القلب والاوعية الدموية.. وفي محافظة الجيزة أيضًا.

واستطيع أن اقول بكل شجاعة أن هذا القرار كان أسوأ قرار اتخذته في حياتي .. وندمت عليه اشد الندم .. وحاولت بعد ذلك الرجوع عنه ولكن كان قد فات الآوان.

وظهرت نتيجة حركة النيابات.. ووجدت اسمى قُبل في محافظة الجيزة.. نائبا لأمراض القلب والاوعية الدموية.

وجاءت لحظة الفراق المؤلمة.. ودعت العاملين ببنى سلامة وأنا في شدة الحزن .. واقيمت لي حفلة وداع اهدوني فيها هدايا رمزية تعبيرا عن حبهم وتأثرهم لفراقي.

وتوجهت لاستلام عملي الجديد في الطب العلاجي بمديرية الشئون الصحية بالجيزة.. نائب قلب واوعية دموية.

نائب قلب واوعية دموية

كنت سعيدا بهذا التخصص الذي اخترته.. أمراض القلب والاوعية الدموية.. فهو تخصص دقيق ومطلوب بشدة في هذا العصر نظرًا للحياة الصاخبة والتوتر الزائد الذي نعيشه.. والذي ينهك القلب ويصيبه بأمراض عديدة.

كنت أُمنى نفسي بالعمل في مستشفى كبير به قسم للعناية المركزة حتى امارس التخصص كما ينبغي واتعلم وافيد واستفيد.. ولكن كان في انتظاري مفاجأة كما هي العادة في وزارة الصحة.

بعد أن اخليت طرفي من وحدة بنى سلامة.. ومن الإدارة الصحية.. ومن الرعاية الاساسية (صحة الريف) .. توجهت لاستلام العمل في قسم الطب العلاجي بمديرية الجيزة.. وهو القسم الذي يعنى بعمل مستشفيات الوزارة.

انهيت اقرارات الاستلام وطلب منى الموظف أن أتوجه إلى رئيس قسم الطب العلاجي ليحدد لي المستشفى التي سأتعين بها.

دخلت مكتب وكيل الوزارة حيث كان رئيس العلاجي يجلس هناك مع آخرين .. توجهت إليه وأعطيته أوراقي.. نظر إلى الأوراق ولم ينظر إليّ .. قال وهو يكتب: حتروح مستشفى البدرشين .. وانتداب يومين في الأسبوع لمستشفى بولاق الدكرور.

لم افهم ماذا يقصد.. مستشفى البدرشين ولا مستشفى بولاق الدكرور؟!

سألته: يعنى أنا حأتعين فين بالظبط؟

قال وهو مازال يتحاشى النظر إلى: حتستلم في مستشفى البدرشين.. وتروح يومين في الأسبوع مستشفى بولاق الدكرور تتعلم هناك في العناية!

قلت مندهشا: طب ما تودينى سيادتك مستشفى بولاق على طول.

وكأنى قلت نكتة من نكات حمادة سلطان.. وجدت سيادته يقهقه بشدة حتى كاد أن يقع على قفاه . وشاركه الجالسين معه في الضحك.. وبعد أن التقط أنفاسه قال: تروح فين؟!.. بولاق الدكرور مقفولة من زمان .. مليانة دكاترة وما فيش فيها مكان لدكتور جديد.. أنت بتقول اييييية؟

أعطاني إحساس بأني نطقت كفرًا أو قلت شيء خارج نطاق الادب !.. سكت وأخذت منه الأوراق وانصرفت وأنا في شدة الحيرة والاضطراب.

مستشفى البدرشين

أخذت جوابا موجها إلى مستشفى البدرشين ينص على أن استلم العمل بالمستشفى على أن أحدد يومًان في الأسبوع انتداب لمستشفى بولاق الدكرور.

وصلت البدرشين التي تبعد عن الجيزة مسافة ثلاثون كيلومتر.. توجهت إلى مستشفى البدرشين .

فوجئت بمنظر المستشفى.. هي أقرب إلى المدرسة الإعدادي!.. عبارة عن مبنى مستطيل مكون من دورين فقط فوق الأرضي.. ملحق به بعض الابنية الصغيرة التي تتناثر حوله.

دخلت وسلمت الأوراق للسكرتيرة فاصطحبتنى لحجرة مدير المستشفى.. نظر المدير إلى الأوراق وقال: يعنى اية يستلم عندنا ويروح يومين في الأسبوع مستشفى بولاق؟!

كدت أن اقول له أنه هذا هو نفس السؤال الذي ظللت اسأله لنفسي، ولم اجد له إجابة عاقلة.. ولكن يبدو أنه تقليد جديد لم يتبع من قبل وكانت بداية تجربته معي أنا!

فوجئت بسيادته يدفع بالأوراق مرة أخرى للسكرتيرة وهو يقول: ماينفعش الكلام دا.. الدكتور بالشكل دا لا حيشتغل هنا ولا حيشتغل في بولاق!

ما شاء الله.. الرجل حكم عليَّ قبل أن استلم عنده وابدأ العمل .

عمومًا .. فرحت جدا.. قلت هذه فرصة لأرجع إلى رئيس قسم العلاجي بالمديرية .. ربما اقتنع بوجه نظر مدير مستشفى البدرشين والحقنى بالعمل بمستشفى بولاق الدكرور بعيدا عن هذه المستشفى المتواضعة.

رجعت مرة أخرى إلى المديرية ودخلت إلى مدير العلاجي الذي كان مازال يجلس في حجرة الوكيل مع صحبته.. أخبرته بما قالة لي مدير مستشفى البدرشين نظر سيادته إلى وكيل الوزارة وقال: سيادتك يعجبك كدة؟

قال الوكيل: معلش.. هو محتاج قرصة من ودنه!

طلبوا منى الانتظار بالخارج.. خرجت وانتظرت.. وبعد حوالي ربع ساعة تم استدعائي ودخلت.. قال لي مدير العلاجي: خلاص.. روح استلم في البدرشين.

قلت في محاولة اخيرة للنجاة: بس المدير مش راضي

قال في حسم: لا أحنا خلاص كلمناه .

كان يقصد أن يقول خلاص قرصنا ودنه.

خرجت من عنده وأنا أضرب كف بكف.. وتوجهت مرة أخرى إلى البدرشين .. دخلت إلى المدير للمرة الثانية .. لم يفتح الرجل فمه بكلمة.. أشّر على الورق لاستلام العمل ودفعة لي بدون أن يعلق..

واضح أن قرصة الودن كانت شديدة!

طبيب بمستشفى البدرشين

استلمت العمل بمستشفى البدرشين وتم تحديد يومي السبت والاحد من كل أسبوع للعمل بمستشفى بولاق الدكرور.

أول من تعرفت عليه في المستشفى كان النائب الإداري.. الذي يضع جدول نوبتجيات الأطباء بالمستشفى.. ما أن شاهدني حتى صاح مهللا: أهلا وسهلا.. أنت جيت نجدة من السماء.. دا احنا مستنيينك من زمان!

أعطاني إحساس بأن المستشفى تغرق وتنتظر قدومي من سنين لأنتشلها من الهوة السحيقة التي تغوص فيها!

قلت: أنا في الخدمة

قال: تاخد بقى النبتشية اللى فاضلة

قلت: نبتشية اية؟

قال: نبتسية الاستقبال.. أصلي حطيت الجدول ومش فاضل غير نبتشيية الخميس بالليل وماحدش عاوز يأخذها.. اهي بقت من نصيبك

كأن المستشفى كانت متوقفة على نبتشية الخميس بالليل.. وافقت حتى لا ابدو كالمعترض من أول يوم.. ووضع سيادته اسمى في شيفت الليلي يوم الخميس (بالليل) .

عندما بدأت اتعرف على اقسام المستشفى كانت في انتظاري عدة مفاجآت.. أول مفاجأة

صادمة هي عدم وجود قسم عناية مركزة.. وهو القسم الذي من المفترض أن امارس فيه علاج حالات القلب الحرجة.. عرفت الآن لماذا اضطر رئيس القسم العلاجي –على عينة– أن ينتدبني يومين لمستشفى بولاق الدكرور.. لابد أن قلبة رق وقرر أن يعطيني فرصة لأمارس تخصصي في العناية المركزة.. ولو ليومين فقط.. ياله من كرم!

ثاني مفاجأة كانت قسم الباطنة بالمستشفى .. وهو القسم الذي من المفترض أن امارس به العمل على مرضى القلب والاوعية الدموية.. وكانت المفاجأة أن قسم الباطنة عبارة عن حجرتين فقط.. حجرة للرجال واخرى للنساء.. كل حجرة لا يوجد بها أكثر من ثماني سرائر.. والغريب أنه قيل لي أني سأباشر كل حالات الباطنة .. والتي يكون معظمها لا علاقة له بالقلب .. ولا بالأوعية الدموية.

أما المفاجأة الثالثة فكانت سكن الأطباء.. دخلت السكن الذي من المفترض أن أبيت فيه مع زملائي أثناء النوبتجيات.. وجدته عبارة عن حجرتين يطلأن على حوش المستشفى.. به سرائر عليها ملاءات ومخدات تثير الاشمئزاز.. والقطط تمرح فوقها من وقت لآخر .. وملحق بالسكن مطبخ لأعداد الطعام للأطباء.. لا استطيع أن اصف منظرة حتى لا أثير الغثيان لدى من يقرأ.

وتذكرت لتوي سكنى الهادئ المنظم في بنى سلامة. والطعام الريفي الشهي الذي كنت أتناوله هناك.. وبدأ الندم يتسلل إلى قلبي.

أول نوبتجية

أول نوبتجية كانت يوم الخميس (بالليل) .. وكانت أول تعارف عملي بيني وبين المستشفى.. ذهبت في الموعد المحدد .. الثامنة مساءً حيث يستمر الشيفت الليلي إلى الثامنة صباحًا.. جلست في الاستقبال كما كنت افعل في استقبال مستشفى الساحل أيام الامتياز.. المترددون على الاستقبال قليلون.. حالات الباطنة التي استقبلتها لا يتعدى عددها اصابع اليدين.. كان يوجد معي نائب جراحة ونائب نسا.. استدعيهم إذا لزم الأمر.. وإن لم يلزم طوال شيفت الليلي!

في حوالي الساعة الحادية عشر توقف قدوم الحالات.. جلست في الاستقبال مع الممرضة والعامل نتجاذب اطراف الحديث.. ظللت كذلك حتى الساعة الثانية عشر عندما أتي نائب الجراحة من السكن وقال لي:

أنت حتفضل قاعد طول الليل هنا؟.. تعالى خش السكن اقعد معانا.

قلت: طب لو جات حالة في الاستقبال؟

قال: مين اللي حييجى في البرد دا.. وعمومًا لو جه حد العامل حيندهك.

كنا في شهر نوفمبر وكان البرد شديدًا.. استسلمت للفكرة وذهبت إلى السكن الذي يبعد بمسافة عن الاستقبال الذي يقع عند بوابة المستشفى!.. امضيت الوقت مع الزملاء حتى الواحدة ثم خلدنا إلى النوم.

في الرابعة صباحًا فوجئت بطرق على باب الحجرة وصوت العامل ينادى: يا دكتور اوهاب.. (يقصد مهاب)

قلت بسرعة: ايوة

قال: في حالة في الاستقبال.

قفزت من فوق السرير وأنا اقول: جاي على طول.

ارتديت البالطو بسرعة وخرجت من باب السكن.. كان علىّ أن اقطع مسافة طويلة في حوش المستشفى حتى اصل إلى حجرة الاستقبال.. كان البرد قارسا وكنت خارجا لتوي من تحت البطانية حيث الدفء والاحلام السعيدة.

وصلت إلى حجرة الاستقبال فوجدت برجل ضخم الجثة في الخمسينات من عمره.. معه ابناه اللذان لا يقلان ضخامة عنه.

كان الرجل يصرخ قائلًا: يابااااا.. يابااااا

هدأت من روعة وقلت: مالك ياحاج؟

قال: ضرسى.. ضرسى حيموتنى!

أتى فجرًا وايقظني من عز النوم عشان ضرسه.. وأنا اساسا نائب باطنة!

قلت: طب اهدى.. حاديك حقنة مسكنة

قال: ما أن خدت حقنتين في الارزخانة وماعملوش حاجة

قلت: حقنتين اية؟

قال: مش عارف!

قلت: ما أن لازم اعرف اسم الحقن دي اية؟

تدخل أحد أبناءه ليوضح لي الأمر وقال: حقنتين مسكن!

قلت: وما سكنوش الوجع؟

أنتحى ابنة بي جانبا وقال:

أصلة لمؤاخذة بيشرب مخدرات.. عشان كدة الحقن ماجابتش معاه.

وحتى يؤكد والدة على جملة الاخيرة.. صرخ فجأة: ضرسى حيموتنى.. ياباااا

قلت وأنا أحاول التخلص من الموقف: أنا مش حاقدر أديله حاجة دلوقتي.

فوجئت بالابن الآخر الذي كان صامتا طوال الوقت ينظر إلى شذرا يقول:

يعنى اية مش حتقدر تديله حاجة .. هو أنت مش دكتور؟.

فوجئت بالكلام المنطلق كالرصاص وقلت: ما اقدرش أديله حقنة ممكن يكون خد زيها في الاجزخانة وتعمله مضاعفات

قال بنفس اللهجة العدائية: طب والعمل اية.. حسيبة كدة يتلوى؟

قلت: يستحمل ساعتين بس لغاية الصبح وييجى لدكتور السنان في العيادة يشوفة

قال: طب ماتندهلنا دكتور السنان دلوقتي

قلت وأنا أحاول الاحتفاظ بهدوئي: مافيش دكتور سنان دلوقتي

قال وهو يستعد للأنقضاض: لية.. هي دي مش مستشفى والمفروض فيها كل الدكاترة.

هنا تدخل الاخ الاخر الأكثر هدوءًا وانهى الموقف قبل أن يتصاعد.. خصوصًا أن الاب كان قد هدأ وبدأ ينام!.. وقال: خلاص.. نروّح دلوقتي.. والصبح يحلها حلال.

نظر اليّ الابن الشرس نظرة قاسية .. قبل أن يصطحب والده ويخرجان.

رجعت إلى السكن وحاولت أن أنام فلم أستطع.. ومرة أخرى تذكرت بنى سلامة وأهلها الطيبين كانوا لا يناقشون ولا يحتدون.. يحترمون الطبيب ويقدرونه.. وازداد ندمي على ترك بنى سلامة.

مستشفى بولاق الدكرور

توجهت يوم السبت إلى مستشفى بولاق الدكرور.. دخلت إلى مدير المستشفى الذي وقع على الاوراق وقال: روح سلّم نفسك للدكتور حسام .. ذهبت للدكتور حسام رئيس قسم العناية المركزة.. استقبلني بالود والترحاب .. استقبال مختلف تماما عن استقبال مدير البدرشين.

والحقيقة أن كل شيء هنا مختلف كل الاختلاف.. العناية المركزة نظيفة ومنظمة .. يوجد حجرة خاصة لمبيت الطبيب بجوار العناية.. بها سريران نظيفان.. ولا يوجد بها قطط!

الاستقبال كبير ومنظم ويقع اسفل العناية مباشرة.. أي أنني لن أضطر إلى اختراق الحوش في البرد كما هو الحال في البدرشين.

التشابه الوحيد بين الاثنين كان في النائب الإداري.. ما أن علم بقدومي حتى رحب بي قائلًا: كويس انك جيت.

استنتجت بسرعة أنه (مزنوق) في نوبتجية.. وصدق توقعي.. بادرني بالقول: اية رأيك تأخذ نوبتجيه الثلاثاء؟

قلت: أنا موجود عندكم سبت وحد بس.

امتقع وجهه ولكنه قال بسرعة: خلاص.. تأخذ نوبتجيه السبت.. ونرحل بتاع السبت للتلات.

وهكذا أصبحت نوبتجيتي يوم السبت.. مسؤول عن العناية المركزة.. وعن الحالات التي تأتي للاستقبال.. من أول يوم!.. وبدون أي تدريب أو توجيه.. كأن كل المشكلة هي جدول النوتيات الذي يجب (تستيفة) ولا يهم من يكون في النوبتجية!

أول نوبتجية

أول نوبتجية كانت في الأسبوع الثاني مباشرة من استلامي للعمل.. كنت مسؤولا عن

العناية المركزة .. أعطاني النائب السنيور (الأقدم) فكرة سريعة عما يجب أن اقوم بعمله.. وأوصاني أن استدعى الأخصائي (من منزله) في حالة وجود أي طارئ لا أستطيع التعامل معه.. والحمد الله لم أتعرض لأى حالات حرجة تدعو إلى استدعاء الأخصائي.

وبالنسبة لحالات الاستقبال .. فهي حالات عادية تأخذ علاجها وتنصرف.. أو حالات طارئة تحتاج إلى حجز بالعناية .. فكنت اكتب لها دخول وأعطيها العلاج اللازم حتى يأتي الدكتور حسام وباقي الاخصائيين ليناظروا الحالة ويقرروا لها العلاج المستمر.. وذلك أثناء المرور الصباحى على مرضى القسم.

الشيء الذي فوجئت به هو أني مطالب بالكشف على الحالات المحولة من قسم بولاق الدكرور وكتابة التقارير عنها.. طبعًا ليست حالات الحوادث أو الاصابات أو الكسور لأنها ليست تخصصي.. لكني كنت مطالب بكتابة التقارير عن.. السكارى!

نظرًا لأن مستشفى بولاق تقع بالقرب من شارع الهرم وملاهيه.. والتي تتبع قسم بولاق الدكرور.. فكانت أحيانًا تحدث مشاجرات ومشاكل من السكارى رواد تلك الملاهي.. ويتطلب الأمر كتابة تقرير عن الحالة وبيان ما إذا كانت في حالة سكر بيِّن لإرفاقها بالمحضر.. والشيء المزعج في هذه التقارير انها كانت غالبا ما تأتي بعد الثانية صباحًا.. بعد أن يكون الشخص شرب و (عمل دماغ) .. اضطر ساعتها أن اقوم من نومى لأناظر الحالة وأعمل لها بعض الاختبارات حتى اتبين إذا ما كان صاحبها فعلًا في حالة سكر.. ام أنه مجرد (مبسوط شوية)

المهم أن أول نوبتجية مرت بسلام وبدون مشاكل .. رغم كثرة الحالات التي تتردد على الاستقبال والتي ظللت استقبلها حتى الثانية صباحًا.. خلدت بعدها للنوم.. واستيقظت صباحًا استعدادا للمرور على المرضى مع باقي الزملاء.

الصدمة الكبرى

أثناء استعدادنا للمرور الصباحى.. حضرت إحدى الطبيبات وأخذ الجميع يرحبون بها.. علمت انها طبيبة جديدة استلمت العمل بالمستشفى صباح اليوم.

بعد أنتهاء المرور على المرضى دعاني فضولي إلى أن أتوجه إلى الطبيبة واسالها: أنت منتدبة منين؟

قالت: أنا مش منتدبة من حتة.

قلت: يعنى أنت استلمت هنا في المستشفى؟

قالت: ايوة تعينت هنا خلاص

قلت: لكن دول قالولي في المديرية أن مافيش دكاترة بتتعين هنا

قالت وهي مندهشة: مين اللي قالك كدة؟

قلت: رئيس القسم العلاجي.. قالي المستشفى هنا مقفولة وماتقبلش دكاترة جداد قالت وهي تضحك: ما هو مش أي حد يستلم هنا

قلت: مش فاهم

قالت بلهجة ساخرة: تليفون من واحد قريبي.. خلى رئيس العلاجي يوافق على طول ويعيني هنا في مستشفى بولاق.

اسقط في يدى.. أحست بمرارة وانقبض قلبي.. هكذا تدار الامور .. الواسطة يمكن أن ترسلك إلى أي مكان تشاء.. بدون واسطة يلقى بك في دهاليز البدرشين .. حتى ولو كان تخصصك غير مطلوب فيها.

كانت هذه الواقعة بمثابة صدمة لي.. ظللت اعنى منها لفترة طويلة.. ولا ابالغ أن اقول انها اثرت في أدائي وقللت حماسي للعمل وأصابتني بإحباط شديد

ومن غرائب الامور أني ظللت لعدة أسابيع متتالية أرى وجوها جديدة لأطباء تم تعيينهم في مستشفى بولاق.. وطبعًا وبدون أن اسألهم.. كانوا جميعا قد جاءوا عن طريق الواسطة.. أو مجرد مكالمة تليفونية من مسؤول تأمر بالتعيين في أي مكان على وجه الأرض.

بين البدرشين .. وبولاق الدكرور

قضيت ما يقرب من سنة اتنقل بين مستشفى البدرشين ومستشفى بولاق الدكرور..

يومي السبت والأحد بمستشفى بولاق الدكرور.. أحضر نوبتجية السبت وأبيت إلى يوم الأحد.. اباشر المرضى بقسم العناية المركزة .. والاستقبال ليلًا.. وصباح الأحد أحضر المرور على المرضى مع رئيس القسم وباقي الزملاء ثم انصرف.

باقي أيام الأسبوع بمستشفى البدرشين.. كنا في قسم الباطنة حوالي ستة نواب .. قسمنا العمل بيننا على مدار الأسبوع.. كل طبيب يحضر نوبتجية 24 ساعة كاملة.. تشمل العيادة الخارجية صباحًا.. والاستقبال ليلًا .. والاشراف على القسم الداخلي (الحجرتين) طوال النهار.. وباقي أيام الأسبوع تقريبا (بلا عمل) ! نظرًا لقلة عدد المترددين على المستشفى .. ولأن قسم الباطنة مجرد حجرتين لا تتسع لعدد كبير من المرضى كما ذكرت.

والحقيقة أنه لا وجه للمقارنة بين مستشفى بولاق الدكرور ومستشفى البدرشين .. فالأولى مستشفى عام بها حوالي اربعمائة طبيب! في مختلف التخصصات.. بها أقسام كثيرة وتتسع للعديد من المرضى.. الاستقبال بها كبير ونظيف ويستقبل المرضى والمصابين على مدار الاربع وعشرون ساعة نظرًا لوقوعه في منطقة بولاق الدكرور المكتظة بالسكان.. والحقيقة أني استفدت كثيرًا نظرًا لمتابعتي للكثير من المرضى بأقسام العناية المركزة والباطنة والاستقبال.

أما مستشفى البدرشين .. فحدث ولا حرج.. مجرد مستشفى مركزي تقع في اطراف مدينة البدرشين.. أقسامها محدودة وبها عد قليل من الأطباء والاخصائيين الذين يعملون

في ظروف لا تساعد على التعلم والترقي في المهنة.. وبالتالي فان استفادتي كانت ضعيفة .. والشيء الوحيد الذي اسعدني في هذه المستشفى هو الصحبة الجميلة من زملاء المهنة .. نواب الجراحة والنساء والتوليد الذين كانوا يقضون معي النوبتجيات .. كنا نسهر سويا نتبادل الاحاديث والحكايات .. وأحيانًا كنا نقتل الوقت بلعب الكوتشينة أو مشاهدة برامج التلفزيون .. مما هوِّن علينا الأمر وجعل الاوقات تمر علينا بدون معاناة أو ملل.

تغيير النظام

بعد حوالي سنة .. وكنت قد سجلت اسمى في امتحانات دبلوم القلب والاوعية الدموية.. حاولت أن استفيد أكثر من عملي في مستشفى بولاق الدكرور.. قررت أن ازيد يومي الانتداب إلى اربعة أيام أسبوعياً حتى تتاح لي فرصة أكبر في الاحتكاك بالأخصائيين هناك والاستفادة من خبراتهم.

كتبت طلبا وذهبت إلى الدكتور حسام رئيس القسم فوافق ورفعة لمدير المستشفى.. ذهبت لمدير المستشفى الذي كان لسوء الحظ في حالة مزاجية سيئة.. كان منفعلًا وغاضبا لسبب لا اعلمة.. ما أن ناولته الطلب ليرفعه إلى المديرية حتى نظر إلى في غضب وقال: لا كفاية عليك يومين.. حلوين قوى كدة!

صُدمت من رده.. رجعت للدكتور حسام الذي قال لي: معلش.. روحله في وقت تاني يكون (هِدِي) شوية!

لم أنتظر حتى (يهدى) .. صممت إلا أضع نفسي مرة أخرى تحت رحمة مزاج ومود (المديرين) .. ذهبت إلى المديرية مباشرة ودخلت إلى رئيس القسم العلاجي .. وكان قد تولى المنصب حديثا بعد احالة رئيس القسم السابق إلى المعاش (بتاع مستشفى بولاق مقفولة!) .. شرحت له الموقف وأنني لا استفيد من مستشفى البدرشين نهائيًا لعدم وجود قسم للقلب بها تعاطف معي ووافق على الطلب.

أخذت قرار بانتدابي إلى مستشفى بولاق أربعة أيام في الأسبوع.. ما إن شاهد مدير المستشفى القرار حتى هاج وماج وقال: أنا قلت يومين كفاية.

تذكرت موقف مدير مستشفى البدرشين المشابهة عندما رفض تنفيذ قرار استلامي العمل عنده أول مرة.. هاهو التاريخ يعيد نفسه .. وكذلك المديرين!

رجعت إلى المديرية ودخلت إلى رئيس قسم العلاجي وأخبرته بالأمر.. اتصل الرجل

أمامي بمدير المستشفى .. حاول أن يقنعه ولكن بدا لي أن المدير متمسك برأيه.. غضب رئيس القسم العلاجي واغلق السماعة .. وتركني ودخل إلى حجرة وكيل الوزارة.. نفس المشاهد تتكرر ولكن بأبطال مختلفين!

تم استدعاء مدير المستشفى الذي دخل في اجتماع مع وكيل الوزارة ورئيس قسم العلاجي.. خرج بعدها ووافق على تنفيذ طلب الانتداب.. نفس قرصة الودن التي تتكرر دائمًا ولكن في اماكن مختلفة!

امتحان الدبلوم

استمريت في هذا النظام الجديد .. اربعة أيام في مستشفى بولاق الدكرور.. ويومًان فقط في مستشفى البدرشين.. كنت سعيدا بذلك رغم زيادة عبء العمل على.. حيث اصطادني مرة أخرى النائب الإداري لمستشفى بولاق وأعطاني نوبتجية أخرى في الاستقبال.. إلى جانب النوبتجية الاولى.. فأصبحت امضى نوبتجيتان في بولاق.. ونوبتجية اربعة وعشرون ساعة في البدرشين وتقبلت الأمر بكل سعة صدر حتى اكتسب الخبرة اللازمة .

بدأت استعد لامتحان دبلوم القلب .. كنت اذاكر بجد واجتهاد وشجعني على ذلك المنافسة الجميلة التي كانت بين أطباء العناية المركزة.. حيث كنا نتسابق في تحصيل المعلومات وتبادل الخبرات والآراء الطبية .

وحان وقت امتحان الجزء الأول للدبلوم.. دخلت الامتحان بشقية النظري والشفوي .. وظهرت نتيجة الامتحان ونجحت بدرجة جيد.. وكان ذلك انجاز يحسب لي حيث أن معظم الأطباء لا ينجحون من أول مرة. وهنأني زملائي في العناية وكانوا سعداء كعهدنا دائمًا عندما ينجح احدنا في أي امتحان للدراسات العليا.

النهاية المأساوية

كانت في انتظاري مفاجأة غير متوقعة.. نجاحي في الجزء الاول للدبلوم يعنى إلغاء انتدابي لمستشفى بولاق الدكرور!.. لماذا؟.. حاولت أن اجد اجابة عاقلة لهذا السؤال فلم اجد.. مجرد أن اللوائح تنص على إلغاء الانتداب في حالة النجاح في الدبلوم!

قطعت صلتي بمستشفى بولاق الدكرور وأصبحت طوع أمر مستشفى البدرشين

طوال الأسبوع .. أو بمعنى اصح .. طوال اربع وعشرون ساعة فقط في الأسبوع! .. وهي النوبتجية التي تخصني.

مضت شهور على هذا الوضع.. إلى أن وجدت نفسي محلك سر.. لا استفيد من عملي في مستشفى البدرشين.. لا اكتسب خبرات جديدة ولا اتلقى معلومات تفيدني.. بل أني لا امارس تخصص القلب والاوعية الدموية من اصلة!

والأدهى من ذلك أني أصبحت اعانى ماديا!!.. فلم يكن لي دخل سوى مرتبي فقط لا غير.. بالإضافة إلى بدل النوبتجيات الذي لا يتعدى خمسة جنيهات للشيفت الليلي!! (كنا نصرف ضعف هذا المبلغ لشراء طعام يؤكل من الخارج إلى جانب الشاي والقهوة وغيره) .

وأخذت اسحب مما ادخرت من سنوات عملي في الريف حتى قارب على النفاد.. فكرت في أن افتتح عيادة خاصة ازيد من دخلي.. لكني وجدت أن العيادة تتطلب اموالا كثيرة لإيجار شقة وتجهيزها بالأثاث والمعدات والدعاية وما إلى ذلك.. بالإضافة إلى أن العيادة الخاصة تحتاج إلى صبر ووقت طويل حتى تكتسب شهرة ويبدا الأهالي في التردد عليها بشكل معقول.

فكرت تفكير آخر وهو أن اعمل في المستوصفات الخاصة.. وبالفعل عملت في بعضها ولكن الدخل كان قليلًا وغير مقنع.. خصوصًا لشاب مثلى مقبل على الزواج ويحتاج إلى مصاريف كثيرة.

لذلك كان قراري الذي اتخذته بعد تفكير عميق.. العودة إلى العمل بوحدات الريف حيث الدخل معقول والعمل مريح وممتع!

ولكى احتفظ بمكاني في مستشفيات الوزارة كنائب قلب والاوعية الدموية.. قررت إلا اطلب نقلى نهائيًا إلى الرعاية الاساسية (صحة الريف) .. وقررت بدلا من ذلك عمل انتداب فقط ولفترة معينة اعود بعدها مرة أخرى إلى الطب العلاجي.

كتبت طلبا بذلك وتوجهت به إلى المديرية لأخذ موافقة.. دخلت إلى الموظف المختص فاستغرب واندهش من هذا الطلب الغريب!.. حيث جرى العُرف أن يطلب الأطباء الانتداب من وحدات الريف إلى مستشفيات الوزارة وليس العكس كما هو الحال معي.. رفع الموظف الطلب إلى رئيسة الذي استغرب واندهش .. والذي ادخلني إلى رئيس

القسم العلاجي الذي استغرب واندهش.. سألني عن سبب هذا الطلب الغريب.. قلت له بأنني اريد الاستقرار في ريف امبابة لأني انوى الزواج من هناك!.. وبعد الحاح وافق على طلب الانتداب.

فرحت جدا.. وذهبت إلى مستشفى البدرشين لأخلى طرفي.. كل من كانوا بالمستشفى اصابهم الاستغراب والدهشة.. حاول زملائي أن يقنعوني بالبقاء ولكنى كنت مصمما على موقفي.. اقنعت نفسي انها فترة مؤقتة أُكوِّن فيها نفسي ماديا .. اعود بعدها مرة أخرى للعمل بالمستشفى.. وقد كان.

بنى سلامة.. مرة أخرى

عندما قررت العودة إلى الرعاية الاساسية كان في ذهني العمل مرة أخرى في وحدة بنى سلامة .. حتى استعيد امجاد السنوات الثلاث التي كانت من احلى سنوات العمر.. ولكن كان في انتظاري مفاجآت كثيرة .. وكأن الفرصة تأتى مرة واحدة فقط ولا تتكرر.

أول عائق أن مدير الإدارة قد تغير وجاء آخر لا يعرفني ولا اعرفه.. وليس لي (دلال) عليه مثل سابقه.. لذلك كان من الصعب أن اقنعة بإلحاقي بوحدة بنى سلامة لأنه يوجد بالقطع وحدات أخرى تحتاج إلى أطباء ومن المحتمل أن يصمم على الحاقى بإحداهم.

العائق الثاني والاهم.. أن هناك طبيب مقيم في وحدة بنى سلامة مع زوجته وأطفاله .. وهو نفس الطبيب الذي سلمته الوحدة بنفسي قبل أن ارحل منها.. وحسب ما جمعت من معلومات فهو لا يغادر الوحدة ويقيم بالسكن لأسابيع متواصلة.. أي أن الفرصة معدومة في أن نتبادل العمل والاقامة بالوحدة!.. ومع ذلك فقد قررت المجازفة وليكن ما يكون.. سأدع الامور تسير كما يدفعها القدر بدون تخطيط أو تدبير منى.

دخلت إلى مدير الإدارة الجديد .. كان مشغولا وحوله افراد كثيرون يتناقشون في امور كثيرة متداخلة.. كان يبدو عليه التوتر وعدم التركيز.. وجدتها فرصة لأخذ موافقته بدون أن يعترض.. دفعت إليه بالأوراق وقلت: بعد اذن حضرتك أنا عايز اروح بنى سلامة.

قال: اشمعنى بنى سلامة؟

قلت: اصلى اشتغلت هناك مدة طويلة.. والناس عارفاني وتحبني.. واحتمال ارتبط من هناك.. واناسب عيلة من البلد.. لأن في موضوع قديم عاوز اكمله!

ظهر الأندهاش على وجهه.. ويبدو أنه لم (يجمع) كلامي أو يخرج منه بشيء مفهوم..

ولما كان في عجلة من أمرة لأنشغاله بالأمور الاخرى.. فقد وقّع بسرعة على الاوراق قائلًا: روح بنى سلامة.

تنفست الصعداء.. وخرجت من عنده وأنا اكاد ارقص.. أول عائق تخطيته بنجاح.. بقى العائق الثاني.. الطبيب المقيم هناك.. كيف سيكون الحال عندما يعلم أني التحقت للعمل بالوحدة معه؟

المواجهة

كان قرار نقلى إلى وحدة بنى سلامة بمثابة صدمة كبيرة لطبيب الوحدة.. اصفر وجهه وبدا عليه الذهول وهو يمسك بالقرار.. ظل صامتا لعدة دقائق لا يدرى ماذا يقول.

كان حديث التخرج رغم كبر سنة.. وكان هادئ الطباع وودود معي عندما سلمته الوحدة من سنين مضت.. ولكن مفاجأة رجوعي كانت صادمة.. خصوصًا أنه استقر في الوحدة هو وعائلته واعتبرها ملكا خاصا له.

قال بعد فترة صمت: اية اللي رجعك تاني؟

قلت: اصل زهقت من قسم العلاجي فقررت اشتغل شوية في الرعاية الاساسية .. فترة مؤقتة بس.

قال: واشمعنى بنى سلامة؟.. ما في وحدات تانية ما فيهاش دكاترة.

قلت: اصلى بأحب بنى سلامة وكنت مستريح فيها .

كدت أن اقول له سيبلى بنى سلامة وروح أنت أي وحدة تانية.

واكيد أنه كاد أن يقول لي ما أنا كمان بأحب بنى سلامة .. روح أنت أي وحدة تانية!

لكنه صمت قليلًا ثم قال: وحنشتغل إزاي احنا الاثنين؟

قلت: ممكن بالتبادل.. أنت يوم وأنا يوم.

قال: لما نشوف.

لم استرح للإجابة ولا إلى نظرته الاخيرة رغم أنه كان هادئا ولم ينفعل.. وقررت أن اخوض التجربة إلى النهاية.

وبالطبع.. فإنه لم يكن من المعقول أن ابيت في الوحدة نظرًا لأن أسرته مقيمة في السكن .. كما أن السكن الاخر (سكن الممرضات) تم تحويلة إلى عيادة أسنان!

لذلك.. قررت أن اذهب صباحًا واعود مساءا إلى منزلي رغم ما سوف يكبدني ذلك من

مشقة وجهد.. ولكن الأمر يستحق المجازفة .

ولا ادرى لماذا تذكرت في طريق عودتي إلى المنزل طبيب وحدة العدوة.. الذي صدم نفس الصدمة عندما سلمته قرار تعييني.. وكيف كان محتدا وعنيفا في رد فعله.. نفس الصدمة بالنسبة لطبيب بنى سلامة.. وإن بدأ رد فعله هادئًا وساكنًا كأنه تقبل الأمر.. أو هكذا خيل لي.

أول يوم عمل فاشل

بعد يومين توجهت إلى بنى سلامة .. توقعت من الطبيب أن يترك لي العمل في هذا اليوم نظرًا لأننا لم نتفق على أيام (التبادل) .. كما أنني تركته يومًان كاملأن ليعمل بمفرده!

استقبلني الطبيب ببرود (كما هو متوقع) .. ودعاني للجلوس بجواره في حجرة الكشف.. انتظرت أن ينصرف ويتركني اكشف على المرضى ولكنه لم يفعل .. وبعد فترة قصيرة فوجئت به يقول للعامل الذي يقف على باب الحجرة: دخل العيانين يابدوى.

هنا تدخلت بالحديث وقلت: احنا حنشتغل إزاي؟

قال: حنشتغل سوا أحنا الاثنين.

قلت: إزاي يعنى؟.. أنت تكشف على بطن العيان وأنا اكشف على ضهره؟!

قال: بدوى حيسأل العيان أنت تحب تكشف عند مين والعيان يختار براحته! قلت: هو احنا قاعدين في مطعم عشان العيان يختار براحته؟!

قال: اهو نجرب ونشوف.. دخل العيانين يابدوى.

بدأ بدوى في ادخال المرضى.. وطبعًا لم يسأل أحد أنت تحب تكشف عند مين!.. استمر دخول المرضى بطريقة عشوائية.. ولما كان هناك سرير واحد للكشف.. وسماعة طبية واحدة.. وجهاز ضغط واحد.. فكنت اضطر إلى الانتظار حتى ينتهي زميلي من الكشف على المريض الذي معه.. لأبدا الكشف على مريض آخر.. وينتظرني هو حتى أنتهي من الكشف ليبدأ هو!

وقد ادى ذلك إلى ازدحام العيادة وارتباك العمل.. واختلط الحابل بالنابل.. فلم اجد مفر من أن اترك العيادة بمرضاها وخرجت وجلست في الحديقة استمتع بالشمس الدافئة.

بعد انتهاء العمل بالعيادة وانصراف المرضى دخلت إلى الطبيب.. أخبرته أن هذا النظام فاشل ويجب أن نتبادل أيام العمل حتى لا تتكرر مثل هذه الفوضى مرة أخرى.. وافقنى على

مضض .. وتركته على أمل العودة بعد يومين لأعمل بمفردي.. هكذا كنت اتوقع!

ثاني يوم فاشل

عدت بعد يومين.. دخلت حجرة الكشف فلم اجد الطبيب بداخلها.. حمدت ربنا لأنه اقتنع وتركني اعمل بمفردي.. وقف بدوى على باب حجرة الكشف وبدأ في إدخال المرضى.. لاحظت أن عدد المرضى قليل .. ليس كما كان في أيام عملي السابق. بعد قليل دخل بدوى.. مال على أذني وقال: الدكتور بيكشف على العيانين برة.

قلت: بيكشف فين؟.. في الجنينة؟

قال: لا.. دا عمل اودة في السكن حجرة للكشف.. و (...) العامل بيدخله العيانين اللي بيدفعوا فلوس.

إذا.. أصبحنا فريقين.. أنا وفريقي القديم في حجرة الكشف.. والطبيب في سكنه مع فريقه الذي يضم بعض العمال الذين عينوا حديثا ولم يعملوا معي من قبل.

استمريت في الكشف.. كان العامل الذي يعمل مع الطبيب الاخر يشد المريض ويقنعه بالكشف عند الطبيب الاخر.. وفي المقابل.. بدأ بدوى في التصدي له.. محاولا اقناع المريض بالكشف عندي!

تماما كما كان يحدث في فيلم (الأستاذة فاطمة) .. عندما كان رياض القصبجي يخطف الزبون من سعيد ابو بكر ليدخله إلى مكتب فاتن حمامة!

وجدت أن الأمر عبث في عبث.. ركبت سيارتي لأنصرف.. لحق بي بدوى وهو يقول: اصبر شوية يا دكتور.

قلت: ما فيش فايدة.. دي مش طريقة شغل.

وانطلقت بسيارتي إلى الخارج.

حاولت في الأيام التالية اصلاح الأمر والاتفاق على أسلوب ارقى من ذلك للعمل .. ولكن يبدو أن الطبيب كان مصمما على موقفة.. واستمر الحال على ما هو عليه لمدة شهر حتى وصلت إلى نتيجة أني لن استطيع العمل في هذا الجو الملبد بالصراع والمنافسة غير شريفة!.. وأنني يجب أن اسلم بان الطبيب الاخر احق منى بالعمل بمفرده في وحدة بنى سلامة.. وأنني يجب أن ارحل لأعمل في وحدة أخرى واجرب حظى فيها.

توجهت إلى مدير الإدارة ووافق على نقلى.. ولحسن الحظ أنه كانت هناك وحدة صحية

تحتاج إلى طبيب.. وكما علمت.. كانت وحدة صحية كويسة وشغالة.. كانت وحدة القطا الصحية.

كلمة لابد منها

وقد قصدت هنا أن اكتب عن الصراعات التي كانت تدور بين الأطباء حول العمل في الوحدات الصحية الريفية.. بدءا من صراعي مع طبيب العدوة.. إلى صراعي مع طبيب وحدة بنى سلامة عند استلامي لأول مرة.. إلى صراعي مع طبيب نفس الوحدة بعد استلامي لثاني مرة.

وهو الأمر الذي افتقدناه الآن.. حيث أصبح الأطباء حديثي التخرج يهربون من العمل بالوحدات الصحية.. ويفضلون عليها العمل بالنيابات أو الانتداب إلى جهات أخرى مثل مستشفيات الوزارة والجيش والشرطة وتمضية فترة التكليف بها.

وقد ادى ذلك إلى عجز شديد في أطباء الوحدات الريفية .. وهو أمر جدير بالبحث عن أسبابه .

وربما يرجع ذلك إلى بعض الامتيازات التي سحبت من الأطباء (مثل الكشف على المرضى بمقابل مادى بعد مواعيد العمل الرسمية) .. والى كثرة المهام التي القيت على عاتقهم من اداريات واشراف على فريق العمل والمساءلة عن كل خطأ يقع فيه احدهم.. والى عدم تدريبهم على اساسيات العمل الإداري بالوحدات كما كان يحدث معنا في السابق.. ليجد الطبيب الحديث نفسه فجأة في مواجهة كاتب ومراقب صحى وتمريض لا يعلم عن طبيعة عملهم شيء ولا ما هو مطلوب منه تجاههم.. مما يجعله ينفر من العمل كله ويحاول الهروب منه بشتى الطرق.

وقد ادى عدم اقبال الأطباء الجدد للعمل بالوحدات الصحية إلى تراجع الخدمات التي تقدمها تلك الوحدات.. والى شكوى الأهالي من تدنى مستوى العمل بها.. علما بان الوحدات الريفية هي اساس ونواة العمل الطبي في مصر كلها.. حيث تستقبل مئات الالاف من المرضى ليتم علاجهم أو توجيههم إلى ما يحتاجونه من علاج في اماكن أعلى.. ويجب الاهتمام بها لإعادة دورها المهم في خدمة أهالي القرى الريفية الذين هم أحوج ما يكون للاهتمام والرعاية.

القطا

القطا بلد جميلة تبعد عن القاهرة حوالي 45 كيلومتر.. تقع مباشرة على نهر النيل.. بها أراضي زراعية رملية خصبة.. مشهورة بزراعة العنب والتين الشوكي صيفا.. والموالح شتاءً.

يوجد بها سجن القطا الذي يقع في الجهة الغربية (غرب فرع النيل) .. أي أنه يبعد عن البلدة نفسها وفي منطقة منعزلة.. وطوال مدة عملي في القطا لم ازر سجن القطا سوى مرة واحدة فقط.. عندما طلب منا أن نأخذ عينات دم من المساجين وارسالها للمعامل المركزية لاكتشاف أي اصابة بمرض الايدز!

قضيت في القطا مدة سنة ونصف .. السكن في الوحدة كان في الدور الثاني .. وكان يطل على حدائق واسعة بها اشجار برتقال ويوسفي.. كان المنظر رائعا والسكن مريح.. ولكن العمل في القطا كان أضعف منه في بنى سلامة.. وكان ذلك لسبب.. حيث فوجئت بعد استلامي العمل بالوحدة بان هناك قافلة من المركز القومي للبحوث تأتي للكشف بالوحدة يومًان في الأسبوع.. وكانت تضم اخصائيين في عدة تخصصات .. وبالطبع كان الأهالي يقبلون على الكشف بهذه القوافل وصرف العلاج منها.. وبالتالي كان المرضى المترددين على الوحدة في الأيام الاخرى قليلًا.

ولكن عمومًا .. كان العمل جيدا ولا باس به.. وكان طاقم العمل بالوحدة متعاونا (إلى حد ما) .. عدا الكاتب.. فقد كان مختلفا عن كاتب وحدة بنى سلامة.. فقد كان قليل الخبرة .. حاد المزاج ولا يتقبل أي توجيه أو نصيحة.. وأي نقد يوجه له كان يعتبره بمثابة اهانة له!.. والأدهى من ذلك أنه كان (شكاكا) .. كان يشك في كلمة تقال له.. شكا يصل إلى

حد الوسوسة.. فكنت مثلا إذا نبهته إلى خطأ ما يقول لي (هو في حد قالك عنى حاجة؟!) .. واذا رفضت أي طلب له يقول (هو في حد حذرك منى؟) مما سبب لي مشاكل كثيرة معه.

تصاعد الاحداث

في البداية سار العمل في الوحدة بصورة مرضية.. استطعت أن اكون صداقات واكتسب ثقة معظم أهل البلدة.. مما انعكس على أدائي ومنحنى راحة نفسية.

وفي المقابل .. كان هناك البعض من أهالي البلدة الذين كان لهم بعض الطلبات التي تخالف القانون.. مثل شهادات تسنين لفتيات صغيرات.. أو شهادة مرضية لموظف متمارض.. أو شهادة لاستخراج رخصة قيادة لشخص غير لائق طبيا.

كنت بالطبع ارفض الاستجابة لطلباتهم حتى لا اورط نفسي في امور لا يقرها قانون.. وقد ادى ذلك إلى صدام بيني وبينهم .. فبدءا يناصبونني العداء.. ويخططون لإبعادي عن العمل بالوحدة.. وللآسف .. انضم اليهم بعض المحليين (من اعضاء الوحدة المحلية) .. الذين كان لهم أيضًا بعض المطالب الغير مشروعة.

وبدأت المضايقات بإثارة الشائعات ضدي.. اشاعوا أنني اطلب من المرضى نقودا مقابل صرف العلاج لهم.. ومن لا يدفع لا يتم إعطاءه العلاج المناسب.. وأخذوا يتربصون لاصطياد أي واقعة تثبت صدق ادعاءاتهم.

وفي أحد الأيام .. وأثناء ماكنت اقوم بالكشف على المرضى المزدحمين أمام العيادة.. فوجئت بشخص يرتدى جلبابا وشبشب زنوبة يدخل العيادة ممسكا بزجاجة دواء في يده اليمنى.. وبشريط اقراص بيده اليسرى.. وخلفة سيدتان كنت قد كشفت منذ قليل على طفليهما.

قال: الست دي واخدة أزازه دوا لابنها.. والست دي واخدة شريط برشام.

قلت: وبعدين؟!

قال: اشمعنى دي تأخذ شريط برشام وماتاخدش دوا زي الثانية؟

فوجئت بالسؤال.. وكدت أن اضحك من سذاجته ولكنى امسكت نفسي وقلت: سيادتك مين؟

قال وهو ينفخ صدرة تحت الجلباب: أنا فلان الفلاني عضو اللجنة الصحية بالمجلس المحلى.

قلت: سيادتك دكتور؟

قال: لا.. أنا فلاح!

قلت: طب وأنت مالك بالعلاج اللي أنا بصرفه

قال: أنت إديت الست دي ازازة دوا عشان دفعت فلوس.

وهنا لم اتمالك أعصابي وصرخت في وجهه: اطلع برة بدل ماشيلك وارميك في الجنينة.

قال: بقى كدة.. طيب.. أنا حاستدعيك لجلسة سخنة في الوحدة المحلية.

واستدار وانصرف.

اكملت الكشف على باقي الموجودين.. ثم استقليت سيارتي وتوجهت إلى مدير الإدارة .. وكان في نفس الوقت عضو مجلس شعب.. حكيت له ما حدث فانفعل بشدة .. وأخذ يسب ويلعن .. وقال أنه لن يسكت عن هذه الواقعة وسوف يحاسب من قام بهذا التجاوز.

وبالفعل.. علمت بعد ذلك أنه قام باستدعاء مسؤول بالوحدة المحلية.. وطلب منه معاقبة الشخص الذي تعدى على في العيادة.. وحمدت ربنا أن المدير استجاب سريعا وتدخل لإيقاف هذه المهزلة.

رغم ذلك.. فان المضايقات استمرت أيضًا بعدها.. وزاد الطين بلة انضمام كاتب الوحدة إلى الفريق الذي يحاربني.. نظرًا لكونه صديق لهم ومن نفس بلدتهم .. فكثرت المشاحنات بيني بينه .. وأصبحنا نتصيد لبعضنا البعض أي اخطاء ولو بسيطة.

وعندئذ.. بدأت افكر جديا في ترك العمل بالوحدة والابتعاد عن هذا الجو المشحون .. حيث أن طبيعتي لا تتفق مع جو المعارك والتربص.

ظللت لفترة مترددا .. هل استمر في العمل بالوحدة واقاوم هذا الهجوم.. ام اكتفى بالمدة التي قضيتها في الريف واعود مرة أخرى لمستشفى البدرشين.

لم استطع حسم الأمر.. إلى أن حدثت واقعة الثعبان!

نهاية غير سعيدة

في أحد العصاري كنت جالسا في الفراندة ادون بعض الكتابات.. كانت الفراندة بها سلم طويل يؤدى إلى حديقة الوحدة.. نظرت فجأة تجاه السلم فوجدت ثعبانا يقف على الجدار الخارجي للسلم وينظر إلى في توجس.. في البداية لم اتبين منه سوى رأسه.. ظننت أنه مجرد سحلية.. قمت بهدوء واقتربت قليلًا ونظرت من اعلى .. وجدت أنه ثعبان متوسط

الطول.. حوالي نصف متر.

تسمرت في مكاني .. وعندما شاهدني الثعبان.. استدار وأخذ ينزل ببطء إلى الحديقة.

كان للحديقة سور يفصلها عن الساحة التي غالبا ما يلعب فيها بعض الصبية .. شاهدني احدهم وأنا اقف (متسمر) أعلى السلم.. ايقن الصبى أن هناك شيء ما.. قال بسرعة: في حاجة يا دكتور؟

قلت: ايوة.. في ثعبان

بسرعة.. قفز الصبى وخلفه آخر داخل الحديقة.. كان الثعبان قد نزل وسط الحشائش.. امسك الصبى بعصا قصيرة وأخذ يضرب رأس الثعبان الذي حاول الهروب منه.. بعد عدة محاولات مات الثعبان.. حمل الصبى الثعبان على طرف العصا.. وقفز مع زميلة من على السور وهما يهللان فرحا.. علمت بعد ذلك انهما يبيعان جلدة بثمن مرتفع.

كانت هذه الحادثة هي التي حسمت الأمر وكأنها علامة اتت لي مثل العلامة التي أتت لأحمد بدير في فيلم (كبارية) .. زجاجة البيرة التي كسرت وجعلته يترك العمل بالملهي.

كان ذلك الثعبان هو العلامة التي قررت بعدها الرحيل بلا رجعة.. وجدير بالذكر أني قابلت بعدها بمدة أحد أهالي القرية الذي اخبرني بشيء غريب.. قال أن كاتب الوحدة واحد العمال اشاعوا في القرية أنهم من وضعوا الثعبان بالقرب من السكن الخاص بي.. حتى يتملكني الفزع عندما أشاهده وارحل من السكن والوحدة كلها! .. وسواء كانوا على حق أو كانوا يشيعون ذلك لمجرد التباهي والاستعراض.. فأنني كنت قد اتخذت قراري وحسمت أمرى .. اخليت طرفي من الوحدة.. ومن الإدارة.. وعدت مرة أخرى إلى مستشفى البدرشين.

كلمة لابد منها

كاتب الوحدة الصحية هو محور اداء العمل.. فبالإضافة إلى أنه المسؤول عن مكتب الصحة الذي يصدر شهادات الميلاد والوفاة.. فهو مسؤول أيضًا عن المخاطبات والمراسلات والماليات الخاصة بالوحدة .. وأيضًا عن دفتر الحضور والانصراف الذي يمكن أن يتحكم من خلاله في موظفي الوحدة!..

فاذا كان أمينا في عمله .. سارت الامور بدون مشاكل بالنسبة للطبيب مدير الوحدة.. أما إذا كان من المتلاعبين عديمي الضمير.. فالمشاكل تكثر في الوحدة ويمكن أن يورط

الطبيب في امور كثيرة إذا لم يأخذ حذره منه .

وخلال عملي في أكثر من وحدة ريفية.. قابلت النوعين.. كتبة يراعون ضميرهم في عملهم .. وقلة لا تهتم إلا بمصالحها ولو على حساب الاخرين.

لذلك يجب الاهتمام بمنصب كاتب الوحدة واختياره بعناية وتشديد الرقابة عليه .

كما يجب توعية وتدريب الأطباء الجدد الذين يعملون لأول مرة في الوحدات الصحية .. حتى لا يصبحوا ألعوبة في يد كاتب منحرف يمكن أن يتلاعب بهم دون أن يدروا.

وخلال عملي أيضًا قابلت الكثيرين من اعضاء المجالس المحلية الذين كانوا يتعاونون معنا لمواجهة أي مشكلة والعمل على حلها .

وفي نفس الوقت .. كان هناك قلة لا يدرون شيئا عن طبيعة عملنا ولا عن الصعوبات التي تواجهنا .. وكان كل همهم الاستعراض والمنظرة .. وكل ما كانوا يستطيعون هو الهجوم على الوحدة الصحية لمجرد أخذ الغياب .. ثم يخرجون كما دخلوا.

لذلك.. إذا تعاونا سويا.. المحليات مع الصحة .. لتطوير الخدمات وتذليل الصعاب والعقبات.. لاستفاد الأهالي وتحسن مستوى الاداء واختفت معظم المشاكل.

مستشفى البدرشين – ثاني مرة

عدت مرة أخرى إلى مستشفى البدرشين بعد غياب حوالي سنتين.. وجدت كل شيء فيها كما تركته.. لا شيء تغير أو تبدل أو تحسن.. الاقسام الداخلية متواضعة كما هي.. العيادات تعمل بنفس الروتين والرتابة.. المرضى يأتون على امل الفوز بزجاجة دواء أو شريط برشام يخفف من آلامهم.. سكن الأطباء مازال يثير الاشمئزاز.. نظام العمل ممل ومحبط.

كل ما تغير هو طاقم الأطباء الذين كنت (أتونس) بيهم في النوبتجيات.. وجدت طاقم آخر سرعان ما تصادقنا وأصبحنا نتحايل على الظروف حتى تمر النوبتجية بلا مشاكل أو مضايقات.

مرت عدة شهور وأنا محلك سر .. لا استفادة طبية ولا مادية .. لا اكتسب خبرات جديدة أو اتقدم علميا.. كان عليا أن استعد لامتحان الجزء الثاني لدبلوم القلب والاوعية الدموية.. هذا الجزء يختص بأمراض القلب المزمنة والطارئة.. والتي تتطلب فحوصات وتحاليل وإشاعات غير متوفرة بمستشفى البدرشين.. كما يتطلب الطارئ منها علاجه في العناية المركزة التي تخلو منها المستشفى.

لذلك كان علي أن اذاكر نظري فقط بدون تطبيق عملي على المرضى.. وهو شيء أشبه بمن يتعلم الطيران من كتاب (كيف تقود طائرة) .. دون أن يركب أو يتدرب داخل الطائرة نفسها!

بالطبع.. قررت أن اذهب إلى مكان امارس فيه علم أمراض القلب كما يجب.. مكان يوجد به امكانيات ومعامل وعناية مركزة .. والاهم أن يوجد به اخصائيين واستشاريين

واساتذة .. حتى استفاد من علمهم وخبراتهم.

بحثت عن هذا المكان في الجيزة فوجدت أن مستشفى ام المصريين هي الأنسب لي كي اتعلم فيها واكتسب خبرة.. نظرًا لإمكانياتها الكبيرة وتوافر الاساتذة بها .. لذلك قررت عمل انتداب إلى مستشفى ام المصريين.

تروح فين يا صعلوك.. بين الملوك

قالوا لي في المديرية أن مستشفى ام المصريين (مقفولة) .. أي انها لا تقبل أي انتدابات من الخارج نظرًا لأنها (مكتظة) بالأطباء.

تذكرت لفظ (مقفولة) الذي سمعته من مدير الطب العلاجي إياه.. الذي قالة لي عندما طلبت منه أن اذهب إلى مستشفى بولاق الدكرور في بداية تعييني.. .. وكيف اكتشفت بعد ذلك أن (المقفول) يمكن أن يُفتح بكارت واسطة أو مكالمة تليفونية.. كما اكد لي بعض الزملاء الذين عُينوا بمستشفى ام المصريين.. أن الواسطة يمكن أن تفتح أي باب (مقفول).

عقدت العزم مرة أخرى وأخذت ابحث عن واسطة .. وجدت أحد أقاربي له صديق يعمل بإحدى مديريات الصحة.. اخبرني أن له دلال عند مدير مستشفى أم المصريين ويمكن أن يكون واسطة خير.. أخذنا منه كارت توصية موجهة إلى مدير المستشفى.

كتبت طلب اطلب فيه الانتداب للعمل بمستشفى ام المصريين.. وتوجهت إلى مكتب المدير.. كان المدير شخصية بارزة ومشهورة.. دخلت أولًا إلى مكتب السكرتيرة ومعي الطلب وكارت التوصية.. في الحقيقة كنت محرجا ولا ادرى كيف اتصرف في مثل هذه المواقف.. هل اعطى الكارت للسكرتيرة مع طلب الانتداب؟.. ام اطلب الدخول إلى المدير نفسه وأعطية الكارت؟

ظللت في حيرة لا ادرى ماذا افعل.. وقفت أمام السكرتيرة التي كانت تجمع اوراق عديدة من على مكتبها .. قلت لها في تردد: أنا معايا طلب انتداب و.. . . .

لم تنتظر حتى اكمل.. قالت لي بسرعة: هات الطلب.

أعطيتها الطلب بيدي اليمنى.. ويدى اليسرى مازالت ممسكة بالكارت لا ادرى حتى هذه اللحظة ماذا يجب أن افعل به.

فوجئت بأغرب شيء شاهدته في حياتي.. لمحت السكرتيرة الكارت في يدى.. مدت يدها وخطفته منى وهي تقول: هات يا دكتور!

تناولت الدباسة ودبست الكارت في الطلب.. ثم فتحت دوسيه أمامها مكتوب عليه (عرض على السيد المدير) ووضعت فيه الطلب.. القيت نظرة خاطفة على الدوسية أثناء فتحة وهالني ما رأيت.. عشرات الطلبات فوق بعضها معظمها مدبس به كارت.. يبدو أن من اهم شروط تقديم الطلب أن يكون مرفق به كارت توصية!

طلبت منى السكرتيرة أن احضر ثاني يوم لمعرفة نتيجة الطلب.. انصرفت وحضرت ثاني يوم.. دخلت إلى السكرتيرة.. ناولتني الطلب الذي اشر عليه سيادة المدير بعبارة (مرفوض لوجود وفرة في أطباء العناية) .. لم اجد كارت التوصية مع الطلب.. الذي غالبا تم نزعة وإلقاءه في سلة المهملات.

احباط.. احباط

بعد خروجي من المستشفى أخذت افكر.. هل اخطأت عندما قدمت كارت التوصية مع الطلب؟.. تذكرت فيلم لعبة الست!.. ربما كان مدير المستشفى مثل سليمان نجيب الذي كان ينتظر أي شخص يدخل إليه بدون كارت توصية ليوظفه.. تمنيت لو كان الكارت احترق في جيبي مثل ما حدث مع نجيب الريحاني!

وأثناء سيرى قابلني أحد الأصدقاء القدامى.. ولما وجدني مكتئب وحزين سألني عن السبب فأخبرته بان مدير المستشفى رفض طلب انتدابي .. سألني: ما جبتش واسطة؟

قلت: جبت كارت توصية مع الطلب ورغم ذلك اترفض.

قال: كارت من مين؟

قلت: من فلان الفلاني اللي بيشتغل في منصب كذا بمديرية الصحة.

ضحك وقال: ودا ينفع دا؟!

اندهشت وقلت: وما ينفعش ليه؟

قال: يا صديقي مدير المستشفى دا شخصية سياسية مهمة.. والواسطة لازم تكون على مستوى أهميته.. معلش.. دوِّر على حد تاني يكون في منصب مهم .. ساعتها طلبك حيتقبل على طول.

أصابني احباط شديد.. هكذا تجرى الامور.. على أن ابحث عن واسطة في منصب (مهم) .. حتى يوافق سعادة المدير (المهم) على طلبي.. وحتى لو قبل طلبي.. ستنتهي مدة انتدابي لأعود مرة أخرى إلى مستشفى البدرشين .. دائرة مغلقة محبطة وكئيبة.

جلست مع نفسي افكر .. على أن ابحث عن مصلحتي.. مصلحتي في العودة إلى العمل بوحدات الريف .. حيث الهدوء والسكينة والمقابل المادي الجيد.. كان علي أن اضحى بالتخصص والعمل بمستشفيات الوزارة قبل أن يصيبني الاحباط واليأس.. وحتى لا اظل طوال عمرى ابحث عن واسطة من شخص (مهم) لأعمل في مكان محترم به تخصصي.

قررت قرارا مصيريا.. أن اقدم طلب نقل نهائي من الطب العلاجي إلى الرعاية الأساسية.. وان اعمل في الوحدات الصحية الريفية.. اعالج اهالينا الفلاحين البسطاء الطيبون.. هناك يمكن أن احقق ذاتي واشعر بأهميتي وأرضى ضميري.. ويكون لي دور مؤثر في عالم الطب والعلاج. وعندما سألني بعضهم عن سبب قبولي العمل بالريف .. تذكرت جملة سمعتها في إحدى الحلقات الاجنبية.. جاءت على لسان بطل الحلقات عندما سألوه لماذا قبلت وظيفة أقل من وظيفتك الحالية؟ قال في سعادة:

Here.. I feel Stimulated.. I feel Alive

كلمة لابد منها

لو كانت الواسطة رجلا لقتلته.. هي السبب الرئيسي في احباط ويأس معظم الشباب.. الواسطة تضع من لا يستحق مكان من يستحق.. وتذهب بمن يستحق إلى مكان لا يستحقة.

وقد شاهدت بنفسي في مستشفى البدرشين أطباء قُذف بهم إلى هذه المستشفى لأن ليس لديهم واسطة.. رغم أن تخصصاتهم لا توجد بأقسام المستشفى.. مثل تخصص القلب والاوعية الدموية والمخ والاعصاب والجراحات الخاصة والدقيقة وغيرها.

مما ولد لديهم نوعا من الحقد تجاه زملائهم الذين عينوا في اماكن مميزة عن طريق الواسطة.. وزرع فيهم الاحباط واللامبالاة التي انعكست على ادائهم وسلوكهم.. ودفعت معظمهم إلى التفكير الجدى في الهجرة خارج البلاد رغم ما كانوا يتمتعون به من مهارة وتفوق كان من الممكن استغلالها لو عينوا من البداية في اماكن مناسبة تتيح لهم فرصة الابداع.. ولنا في أطباء المهجر النابغين.. الذين تفوقوا في بلاد أخرى.. افضل مثال على ذلك.

الرعاية الاولية

وصلت إلى محطتي الدائمة.. الرعاية الاساسية.. أو كما يطلق عليها الرعاية الاولية.. أو كما كانت تسمى في الماضي.. صحة ريف.

تلك التي تهتم بكل الشئون الصحية للريف المصري.. من مستشفيات قروية ومراكز صحية ووحدات الرعاية الاساسية ومكاتب الصحة بكافة قرى ومدن مصر.

وكانت وجهتي إلى الإدارة التي عملت بها من قبل واعرفها جيدا.. إدارة امبابة الصحية .. والتي انقسمت بعد ذلك إلى إدارة منشأة القناطر وإدارة الوراق وإدارة كرداسة.. ثم انقسمت إدارة منشاة القناطر مرة أخرى إلى شرق وغرب منشاة القناطر.. وذلك نتيجة زيادة أعداد سكان القرى وحتى تستوعب الادارات كل هذه الزيادة المطردة وتسطيع أن تقدم لهم الخدمة.

استلمت في إدارة امبابة عام 1994.. وبالطبع لم اكرر التجربة الاخيرة في وحدة بنى سلامة.. وقررت أن ابدأ في وحدة صحية خالية من الأطباء .. وعلى مر السنوات لم استقر في وحدة واحدة.. وأخذت اتنقل من وحدة إلى أخرى.

الجدير بالذكر أن موضوع (بيات) الطبيب بالوحدة كان قد اختفى نظرًا لعدم الاهتمام بسكن الطبيب في معظم الوحدات وتحويلة إلى مخزن أو حجرات كشف!.. وأصبح المتبع أن يحضر الطبيب إلى الوحدة صباحًا.. وبعد أن ينتهي من عمله يعود إلى منزله في المساء.. هكذا كان الحال معي في كل الوحدات التي عملت بها.

بدأت العمل في وحدة الاخصاص.. عملت بها حوالي سنة ثم انتقلت إلى مستشفى قروى المنصورية.. والتي لم استمر بها سوى بضعة اشهر نظرًا لوجود طبيب آخر بها..

انتقلت إلى وحدة جزاية التي تقرر بعد ذلك هدمها ونقلت إلى مستشفى قروى نكلا.. ثم إلى وحدة صفط اللبن.. وبعد بضعة اشهر انتقلت إلى وحدة ام دينار حيث طالت فترة إقامتي فيها إلى ما يقرب من ثلاث سنوات (من سنة 1996 إلى سنة 1999) حتى تقرر هدمها أيضًا وبنائها من جديد (يبدو أنني كنت عامل فعال في تجديد واحلال الوحدات الصحية المتهالكة!)

انتقلت بعد ذلك إلى وحدة جزاية مرة أخرى بعد أن تم بناءها وتجديدها.. امضيت في هذه الوحدة اطول فترة من سنة 1999 إلى سنة 2006.. حوالي ستة سنوات كانت من اجمل وامتع الفترات .. إلى أن اضطررت إلى النقل منها بعد خلاف مع مديرة الرعاية الاساسية بالمديرية.

قف للتفتيش

بدأت المشكلة مع مديرة الرعاية الاساسية بالمديرية بعد شكوى ارسلها (مجهول) إلى المديرية .. يشكو فيها من سوء الخدمة بوحدة جزاية الصحية وعدم اهتمام الطبيب بالمرضى .. وتأخره عن الحضور إلى ما بعد العاشرة .. وطلبه لمقابل مادى نظير العلاج والكشف.. إلى آخر هذه (الإسطمبة) من الشكاوى التي أصبحت قوالب جاهزة يكتبها أي مجهول لا يعجبه منظر وهيئة الطبيب.. ويرسلها إلى أي مسؤول.. لتنقلب الدنيا بعدها على رأس هذا الطبيب المسكين.

ونتيجة لذلك.. فوجئت في أحد الأيام بتفتيش مفاجئ من المديرية يتكون من طبيب أسنان يعمل تحت رئاسة مديرة الرعاية .. مصطحبا معه شاب صغير السن من التفتيش المالي والإداري بالمديرية.

هجم الاثنان على الوحدة الصحية وأخذا يقلبان في دفاتر الكاتب والممرضات والمراقب الصحي لاصطياد أي اخطاء.

وجاء الدور على شخصي.. جاءني هذا الشاب الصغير وطلب منى أن أفتح حجرة الصيدلية بالوحدة والتي هي عهدتي.. ودار بيننا الحوار التالي:

-لو سمحت يا دكتور افتح لي الصيدلية.

-ليه؟

-عشان اجردها.

-سيادتك دكتور؟

-لا

-امال حتجرد الادوية إزاي؟

-حاشوف كل صنف في دفتر 118 بتاع العهدة.. وأعد الكراتين اشوفها مطابقة ولا ل.

-دي مش كراتين شيبسى .. دي ادوية.. كل صنف دوا لية اسم علمي واكتر من اسم تجارى لنفس الصنف.. وسيادتك مش حتفهم الكلام دا.

-أنا من حقي اجرد الصيدلية

-لا مش من حقك.. فيه لجنة من قسم الصيدلة بالمديرية بتيجى تجرد الصيدلية بصفة دورية .. وممكن سيادتك تبعتهم يجردوا في أي وقت تحبه

-يعنى بترفض أني اجرد الصيدلية بتاعتك؟

-ايوة بارفض.. واتفضل برة خلينى اشوف شغلي.

خرج أخينا وهو في قمة الغضب.. وذهب إلى طبيب الأسنان واشتكى له.. فوجئت بطبيب الأسنان يدخل حجرة الكشف غاضبًا ويقول: دكتور مهاب.. افتحلي الصيدلية.

احتفظت بهدوئي وقلت له: حاضر.. اتفضل.

فتحت الصيدلية ودخل الطبيب ووقف في منتصف الحجرة .. لم يدر ماذا يفعل نظرًا لأنه طبيب أسنان ولا يعلم شيئا عن عهدة الصيدلية ودفاترها.. أخذ يجول ببصرة يمينًا وشمالًا ثم التفت إلى وقال: انده بتاع التفتيش المالي يجرد الصيدلية

قلت: بتاع التفتيش مش حيدخل هنا

قال: ليه؟

اعدت على مسامعه ما قلته لبتاع التفتيش.. قال وقد احمر وجهه:

أنت كدة بتحط نفسك في موقف صعب

قلت: أنا قلت اللي عندي ومش حاتراجع عن موقفي.

خرج وهو يهدد وتوعد.. واغلقت باب الصيدلية وتوجهت لاستكمل الكشف على المرضى.

مقابلة عبثية

بعد يومًان فوجئت باستدعائي لمقابلة السيدة مديرة الرعاية الاساسية.. توجهت إلى

المديرية.. قابلتني بوجه عابس ونظرًات استنكار.. كان السيد طبيب الأسنان قد نقل اليها صورة شنيعة عنى.. أني شخص عنيد.. قاومت السلطات- اقصد قاومت التفتيش- ورفضت فتح الصيدلية للجرد ووجهت إليه كلاما لا يليق!.. وافهمها أنني لم احترم شخصه وبالتالي فأنني لا أحترم سيادتها نظرًا لأنها من أرسلته.

قالت لي: أنت إزاي ترفض جرد الصيدلية؟

قلت: أنا رفضت أن التفتيش المالي والإداري هو اللي يجرد الصيدلية

قالت: دا من حقة .

قلت: لا مش من حقة.. لأنه مايفهمش في أسماء الادوية .. يعنى مثلا دوا اسمه العلمي باراسيتامول.. واسمه التجاري ابيمول.. ممكن يشوف في دفتر العهدة اسمه العلمي.. ييجى يدور على نفس الاسم في الصيدلية مايلاقهوش.. يبقى حيكتب في تقريره أن الدوا غير موجود في الصيدلية رغم أنه موجود فعلًا باسمه التجاري.

لم تستوعب سيادتها ما قلته.. أو بمعنى اصح لم ترد أن تستوعبه حتى لا يتضح انها على خطأ.. واصرت على موقفها .. واصريت أنا على رأيي.. وكانت النتيجة صدام بيني وبينها أنتهي بان ارسلت إلى الإدارة قرار نقلى من وحدة جزاية إلى أبعد وحدة في الإدارة.. تدرون ماهي؟.. كانت وحدة بنى سلامة!

المحطة النهائية

حاولت بشتى الطرق إلا انفذ هذا القرار نظرًا لأن موقفي كان سليما ولم اخطأ في شيء.. ولكن كان التيار اقوى منى .. واضطر مدير الإدارة إلى تنفيذ القرار حتى لا يغضب السيدة مديرة الرعاية.

قلت لابأس.. لأذهب إلى بنى سلامة واستعيد بعض الذكريات القديمة.. وبالفعل نقلت إلى بنى سلامة .. بالطبع كانت كل الظروف قد تغيرت بعد مضى حوالي عشرون سنة على عملي بها.. كان بها طبيب من نفس البلدة.. وكان السكن قد تحول إلى مخزن وبوفية لعمل الشاي والقهوة للعاملين!

امضيت ثلاث شهور فقط بها.. قررت بعدها أن اهجر العمل بالوحدات الريفية نهائيًا وان اتجه إلى العمل بالإدارة الصحية.. وجاءت الفرصة عندما خلا منصب رئيس قسم التثقيف الصحي بالإدارة بعد بلوغ صاحبة سن المعاش.. ورشحني مدير الإدارة لهذا

المنصب وقبلته على الفور.. وبدأت رحلتي كمشرف في الإدارة الصحية بمنشأة القناطر.. وتقلدت أكثر من منصب.. رئيس قسم التثقيف الصحي.. ورئيس قسم الجودة.. ورئيس قسم الرعاية الاساسية.

ثم انتدبت إلى إدارة أوسيم رئيسا لقسم الرعاية الاساسية بها.. ثم إلى إدارة غرب منشأة القناطر رئيسا لقسم صحة البيئة والتثقيف الصحي.

كلمة لا بد منها

ما حدث معي في وحدة جزاية يحدث الآن كل يوم في كل وحدات الرعاية الاساسية.. تفتيش بلا هدف سوى اصطياد الاخطاء وأخذ الغياب وتستيف اوراق المرور التي يصرف على ضوئها الحوافز والبدلات .. مما ادى إلى نفور الأطباء من العمل بالوحدات الصحية .. والعجز الدائم في الأطباء الذي تشكو منه الادارات الصحية.. حيث يضيق الطبيب من الجزاءات التي توقع عليه لأتفه الاسباب.. مع عدم توفير الجو المناسب له والامكانيات التي تمكنه من العمل بصورة ترضية وترضى متلقى الخدمة .. ناهيك عن المقابل المادي الذي لا يكفى متطلبات شاب في مقتبل العمر مقبل على الحياة ويريد الزواج والاستقرار.

لذلك يهرب معظم الأطباء من العمل بالوحدات الريفية ويفضلون العمل في المستشفيات الخاصة والمراكز والمستوصفات الخارجية املا في زيادة الدخل.

لذلك يجب الاهتمام بطبيب الوحدة الصحية وتوفير الامكانيات التي تساعده على العمل بكفاءة .. وتوجيهه وإرشاده وتدريبه بدلا من تقريعه وتوقيع الجزاءات عليه بسبب وبدون اسباب.

وان كان ذلك يتطلب جهدا وفيرا من كل المعنيين بالصحة في هذا البلد.

المستشفيات الخاصة

عملت في المستشفيات الخاصة أثناء فترة الجفاف الاقتصادي التي صاحبت عملي في مستشفى البدرشين المركزي.. وذلك لتحسين الحالة المادية واكتساب مزيد من الخبرة والمهارة الطبية.

وكان لي تجربتان لم تشهد أي منهما نجاحا وكان مصير كل منهما الفشل.. ربما يرجع ذلك إلى طبيعتي التي تتطلع دائمًا إلى المثالية وترفض أي تهاون أو تجاوز في حقي كطبيب.

التجربة الاولى كانت في مستشفى صغير بمنطقة المنيل.. لم تكن مستشفى بالمعنى المفهوم.. كانت عبارة عن مبنى صغير من دورين .. كل دور عبارة عن شقة بها ثلاث أو أربع حجرات.. الدور الأرضي كان به حجرة للاستقبال وحجرة للكشف الطبي وحجرة مدير المستشفى .. والدور الثاني به حجرة عمليات صغيرة وحجرتان لإقامة المرضى.

كان صاحب المستشفى طبيبا متخصصا في أمراض العيون.. انشأ هذه المستشفى في هذا المنزل الذي كان ملكا لعائلته.. وتعاقد مع بعض الشركات الصغيرة بالمنطقة للكشف على عمالها .. وكان يقوم بعمل بعض العمليات الجراحية البسيطة بالاشتراك مع أحد الجراحين.. وكان يوجد حجرة لاستقبال الحالات الطارئة التي يمكن أن تأتى المستشفى لإسعافها وذلك نظير مقابل مادى .

عرفني أحد الأصدقاء على مدير المستشفى الذي رحب بي وشرح لي نظام التعامل .. مقابل مادى بسيط للشيفت.. وكل كشف بالاستقبال نصيبي منه الثلث من قيمته المادية.. أي أنه كلما كثرت حالات الاستقبال يكثر المقابل المادي .

ثم عرض عليّ جدول النوبتجيات الذي كان معظمة خاليا!.. وافقت على الحضور شيفتين (أي فترتين) من الثالثة ظهرا وحتى العاشرة ليلًا .. ثم استمر من العاشرة وحتى صباح اليوم التالي.. وذلك لثلاثة أيام في الأسبوع.. ولكن الذي حدث أني تركت العمل قبل

أن ينتهي اليوم الاول!

حضرت في اليوم الاول والأخير في ميعادي تماما في الثالثة ظهرا.. توجهت إلى حجرة الاستقبال وجلست أنتظر أن تأتى الحالات .. طال انتظاري حتى السادسة مساءا ولم استقبل سوى حالتين .. احداهما جرح بالقدم والاخرى مغص معوي!

ذهبت إلى الممرض والذي هو في نفس الوقت الكاتب والمحصل وسألته.. قال أنه تأتى أيام يكثر فيها المترددون على الاستقبال.. وأيام أخرى يكون الشغل فيها (نايم) .. يبدو أني قد بدأت العمل في يوم (نايم) نوما عميقا!

في السادسة جلست في حجرة الكشف استقبل المرضى المترددين من عمال الشركات المتعاقد معها.. والذين يأتون للكشف وصرف العلاج دون مقابل مادى نظرًا لأن شركاتهم هي التي تدفع التكاليف حسب اتفاقها مع مدير المستشفى .

في التاسعة مساءا كان (المولد) قد انفض.. الاستقبال خالي والعيادة اغلقت.. جلست في الشرفة مع الكاتب.. فهمت منه أن المستشفى لا تصرف وجبات غذائية للعاملين نظرًا لعدم وجود مطبخ بها.. واننا يجب أن نحضر العشاء على حسابنا .. أعطيته بعض النقود وذهب واحضر لنا عشاءً بسيطا.. تناولناه واستمرت جلستنا حتى الساعة الثانية عشر.. سألته في براءة: أنا حانام فين؟

قال: حضرتك ما فيش حجرة للطبيب.. ممكن تنام في حجرة العيادة

قلت: انام في العيادة إزاي؟

قال: على سرير الكشف.. وحاجيب لحضرتك بطانية من حجرة المرضى!

قلت: متشكر.. مالوش لزوم.

تركته ودخلت حجرة الكشف وجلست على المكتب افكر.. ما هذا؟.. مستشفى بلا مرضى.. لا يوجد سرير لمبيت الطبيب.. لا يصرف غذاء أو عشاء للطاقم الموجود .. المقابل المادي ضعيف.. ولا توجد فرصة لاكتساب خبرة جديدة .. ومطلوب منى أن انام على سرير كشف المرضى!.. ما الذي أنتظره من هذا المكان؟!

كانت الساعة قد قاربت الواحدة عندما نهضت وخلعت البالطو ووضعته في شنطتى وخرجت.. كان الكاتب ممددًا على مرتبة اسفنجية في الصالة بين اليقظة والنوم .. نظر إلى بعينين نصف مفتوحتين وقال: في حاجة يا دكتور؟

قلت بسرعة: أنا مروّح

قال وكأنه اعتاد على مثل هذا الموقف: براحتك!

ثم اغلق عينية وسحب البطانية على رأسه.. خرجت من المستشفى واستقليت عربتي وانطلقت إلى منزلي بلا رجعة.

التجربة الثانية

ثاني تجربة كانت في مستشفى كبير ومعروف في منطقة مصر الجديدة.. كانت تملكه وتديره سيدة اعمال!

وعلى العكس من مستشفى المنيل.. كان بالمستشفى اقسام عديدة وبه استشاريون واخصائيون يتابعون المرضى.. إلى جانب النواب المقيمون وطاقم التمريض الذي كان على مستوى مهني محترم.

كان الفضل لاحد معارفي الذي توسط لي للالتحاق بالمستشفى كنائب باطنة .. ونظرًا لازدحام جدول النوبتجيات أخذت يومين فقط في الأسبوع.. كل يوم شيفت واحد من الثالثة عصرا وحتى العاشرة مساءا.

كان العمل ممتعا والمقابل المادي لا بأس به .. المستشفى نظيفة وبها سكن محترم للأطباء الذين يصرف لهم وجبات غذائية ولا يتركون (للرمرمة) من السوق الخارجي!

لاحظت أن المستشفى تتعاقد مع شركات كبيرة عامة وخاصة.. كما انها متعاقدة مع بعض النقابات للكشف على أعضائها.. كان عمال هذه الشركات يأتون للعلاج في المستشفى .. سواء للكشف بالعيادة أو للحجز بالأقسام الداخلية وتتولى شركاتهم بعد ذلك دفع مصاريف علاجهم واقامتهم بالمستشفى.

كان عملي ينحصر في المرور الروتيني على مرضى قسم الباطنة وتدوين أي ملاحظات جديدة في التذكرة كي يطّلع عليها الأخصائي الذي يباشر الحالة عندما يأتي في الصباح ويتخذ ما يراه مناسبًا من اجراءات.

كما كان علىَّ أن استقبل حالات الطوارئ التي تصل الاستقبال وأعطيها ما تحتاجه من اسعاف حتى تتحسن الحالة وتنصرف.. أو احجزها بالقسم الداخلي إذا ما تطلبت حالتها ذلك.

استمريت في العمل لحوالي ستة شهور إلى أن وقعت الواقعة التي اطاحت بي خارج

المستشفى.

وصل إلى الاستقبال رجل أربعيني يعمل بإحدى الشركات المتعاقد معها.. يشكو من صداع ودوخة وزغللة بالعينين.. ذكر أنه يعالج من ارتفاع ضغط الدم ولكنه اهمل في تناول العلاج مؤخرا.. قست له الضغط فوجدته 95/ 160 أي أن هناك ارتفاع بسيط غير مقلق.. أعطيته العلاج اللازم حتى تحسنت حالته.. ثم قمت بقياس الضغط مرة أخرى فوجدته أصبح 80/ 140 .. أخبرته أنه يمكن أن ينصرف مع الالتزام بتناول العلاج الموصوف.. فوجئت به لا يريد الانصراف ويطلب منى أن احجزه بالقسم الداخلي!.. حاولت إقناعه بان حالته لا تستدعي الحجز بالقسم الداخلي ولكنه أصر وقال أن طبيب الشركة قال له (لازم يحجزوك في المستشفى) . !

قلت له أنا الذي اناظر الحالة وأنا الذي أحدد من يدخل القسم ومن لا يدخل.. وتركته وانصرفت.

اتصل الرجل بطبيب الشركة.. الذي اتصل بالمدير الإداري للمستشفى وأخبره بأني ارفض حجز المرضى الذين يرسلهم للمستشفى.. وان ذلك سوف يتسبب في فسخ التعاقد بين الشركة والمستشفى.

استدعاني المدير الإداري فشرحت له الأمر .. وان حالة المريض لا تستدعى الدخول.. لكنه طلب منى رغم ذلك كتابة دخول له للمستشفى.. وقال وهو يضحك: إحنا خسرانين اية.. أهو يقعد له يومين في القسم يغير جو وأحنا برضة المستفيدين!

لم يعجبني هذا الأسلوب وصممت على موقفي.. اضطر المدير الإداري إلى طلب أخصائي ليكتب للمريض دخول .. وتم تصعيد الأمر إلى صاحبة المستشفى التي ما أن علمت بهذه الواقعة حتى اصدرت فرمانا بالاستغناء عن خدماتي.

تركت العمل وأنا حزين.. لكني لم اندم على ما فعلته لأن هذا هو ما أملاه علي ضميري.

قابلني بعد ذلك أحد زملائي بالمستشفى وأخبرني أن طبيب الشركة.. وغيرة.. يحولون بعض المرضى للحجز بالمستشفى بدون داعى .. وذلك لأنهم يتقاضون مقابل مادى نظير كل حالة تحجز بالمستشفى.. والتي تستفيد بدورها من ذلك.. نظرًا لأنها تتقاضى كامل مستحقاتها من الشركة التي يعمل بها المريض.

وكان هذا آخر عهدي بالعمل في المستشفيات الخاصة.

العيادات الخاصة

مثل أي طبيب حديث التخرج كنت حريصا على أن افتتح عيادة خاصة تحمل اسمى واستقبل فيها مرضاي.. لكن الواقع كان ينبأ بصعوبة تحقيق مثل هذا الأمر!

فبعد تخرجي فوجئت أنا وكثير من زملائي بحال (سوق) الطب في مصر.. المستوصفات الخيرية في كل حي وشارع.. والناس يقبلون عليها نظرًا لانخفاض تكاليف العلاج بها.. المراكز الصحية والمستشفيات الخاصة صغيرة الحجم (التي تتكون من شقة واحدة أو شقتين متجاورتين) كانت قد بدأت تنتشر ويعمل بها اخصائيون واستشاريون.. وأيضًا منخفضة التكاليف.. إلى جانب عيادات كبار الأطباء وصغارهم أيضًا التي تملأ الشوارع .. ولا مكان لعيادة جديدة.

اذكر أنه أثناء عملي بمستشفى بولاق الدكرور.. فكرت أنا وأحد زملائي أن نفتتح عيادة مشتركة بجوار المستشفى.. سمعنا عن شارع شعبي جدا اسمه (همفرس) .. ذهبنا كي نعاين المكان ونستفسر عن امكانية استئجار شقة به.. فوجئنا بكم العيادات والمستوصفات والمراكز الطبية الموجودة.. لدرجة اننا وقفنا مذهولين أمام عدة يفط على ناصية الشارع تشير كل يافطة منها إلى اسم عيادة أو مستوصف.. شاهدنا أحد تجار المنطقة ونحن نتطلع إلى اليفط ففهم أننا أطباء جداد نفكر في اقتحام المكان.. وجدناه يضحك ويقول: المنطقة مستكفية والمشرحة مش ناقصة قتلى!

ورغم ذلك كان لي تجربتان لم تكتملا بسبب ظروف خارجة عن إرادتي.

عيادة فيصل

الاولى عندما شجعنى صديق يسكن في حي فيصل على أن افتتح عيادة بالمنطقة . واختار لي

شقة صغيرة في شارع جانبي قمت بدفع مقدم ايجارها وفرشتها وبدأت العمل فيها.. بالطبع كان الاقبال ضعيفا نظرًا لكثرة العيادات والمستوصفات بالمنطقة.. ولكنى كنت أُمنى نفسي بالصبر على امل أن ازداد شهرة ومعرفة بين أهالي الحى والاحياء والمجاورة.. ومرت عدة شهور كان تردد المرضى على العيادة يزداد ولكن ببطء شديد.. وكان دخل العيادة بالكاد يغطى مصاريف ايجارها واجرة الممرضة التي تعمل معي.. إلى أن ارتبطت بالخطوبة وبدأت استعد للزواج.. وجدت أن دخل العيادة لن يوفر مصاريف زواجي وأنه من الافضل أن استفيد من ثمنها حتى استطيع أن اوفر شقة للزواج.. وبالفعل اتفقت مع صاحبة المنزل على أن اترك لها الشقة في مقابل أن استرد المقدم الذي دفعته.. وانتهي عهدي بعيادة فيصل.

عيادة بنى سلامة

التجربة الثانية كانت في بنى سلامة.. البلدة التي احببتها وقضيت فيها أياما سعيدة.

كنت اعمل وقتها في القطا.. زارني بعض الأصدقاء من قرية بنى سلامة وعرضوا على أن افتتح عيادة بالبلدة نظرًا للشهرة التي اكتسبتها هناك أثناء عملي بالوحدة الصحية.. وافقت بعد تردد .. استأجروا لي شقة متواضعة طبعًا بدون مقدم أو خلو كما هو الحال في القاهرة.. وفرشتها بفرش متواضع.. وبدأت العمل.

كان تردد المرضى معقول والدخل لابأس به.. كنت أتوجه يوميا من القطا إلى بنى سلامة بسيارتي مسافة عشرون كيلومتر.. ثم ارجع مرة أخرى لسكنى في وحدة القطا في العاشرة ليلًا.. بالطبع كان هذا يستلزم منى مجهودا كبيرًا في الذهاب والعودة خصوصًا أثناء العودة ليلًا في الطريق .. حيث أنه طريق زراعي والاضاءة فيه غير كافية.. لكني كنت أحاول السير على مهل ولا اجازف أبدًا أثناء قيادتي.

استمر الحال على هذا المنوال لحوالي خمسة اشهر إلى أن وقع لي هذا الحادث المؤسف أثناء عودتي.. كنت اقود سيارتي في طريق العودة .. وكانت هناك سيارة نقل معطلة تقف على جانب الطريق المظلم.. لم تكن هناك أي إضاءة تشير اليها.. لم اراها حتى اقتربت منها .. ولم تسعفني فرامل سيارتي في تجنب الاصطدام بها.. لم تكن الصدمة قوية ولكنها احدثت بعض التلفيات بسيارتي والتي احتاجت إلى بعض الوقت لإصلاحها.. وتزامن ذلك مع نيتي في ترك العمل بوحدة القطا والعودة إلى العمل بمستشفى البدرشين.. لذلك قررت إغلاق عيادة بنى سلامة والاكتفاء بالمدة التي قضيتها فيها.

المستوصفات والعيادات الشاملة

على مر السنوات عملت في العديد من المستوصفات وعيادات الغير.. اذكر منها تجربتين لا يمكن أن امحوهما من ذاكرتي.

اولهما كانت في عيادة طبية شاملة.. وشاملة تعنى أن كل الخدمات تقدم فيها.. الباطنة والجراحة والنساء والولادة والتحاليل المعملية والأشعة التشخيصية.. والمدهش والمثير في الأمر أن من كان يقوم بكل هذه التخصصات.. طبيب واحد!!

كانت العيادة تقع في مدينة الخطاطبة بالبحيرة.. كان صاحبها طبيبا مشهورا بالمدينة.. بدأ العمل كطبيب ممارس عام منذ عدة سنوات حيث لم يكن هناك سوى بضعة عيادات لا تتجاوز اصابع اليد الواحدة.. وبدأ يكتسب شهرة بالتدريج فساعدة ذلك على التوسع في نشاط العيادة .. فالحق بها معمل للتحاليل.. ثم اشترى جهاز اشعة تشخيصية.. ثم استأجر شقة مجاورة وجهز بها حجرة للعمليات .. ولأنه كان مغرمًا بالجراحة فقد بدأ في إجراء العمليات الصغرى مثل الزائدة والبواسير واستئصال اللوز وغيرها.. كما كان يجرى عمليات الولادة الطبيعية والقيصرية .. وكان أحيانًا يقوم بنفسه بتخدير الضحية.. اقصد المريض!

أيضًا كان يمارس تخصص العظام.. فكان يستقبل حالات الخلع والكسر ويجرى لها تصوير بالأشعة ثم يقوم بعمل الجبائر اللازمة لها.

كان طبيبًا شاملًا بمعنى الكلمة!

التحقت بالعمل عنده عن طريق صديق مشترك اخبرني بأنه يريد طبيب يساعده في الكشف على أمراض الباطنة والاطفال كي يتفرغ هو للعمليات والكسور!

كما اخبرني أنه استأجر شقة ثالثة وأسسها للمبيت والاقامة.. أي أنني يمكنني الاقامة الكاملة

هناك لعدة أيام على أن اعود مرة أخرى لمنزلي في اجازة أحددها بالاتفاق معه.

بالفعل.. قلت أذهب وأجرب.. ذهبت وكانت دهشتي شديدة عندما رأيت نظام العمل. بدأت عملي بالكشف على المرضى المترددين على العيادة.. كان عدد المرضى مرتفع نظرًا لشهرة العيادة في المدينة.

لكني كنت مستغربا جداً من جرأة هذا الطبيب .. يقوم بعمل كل شيء .. وأي شيء.

حضرت معه عملية زائدة دودية كمساعد.. لم يعجبني اداءة ولكنه اتم العملية بنجاح.. كما شاهدته وهو يصنع جبيرة لفتاة اصيبت بكسر في ساعدها.. وأيضًا لم ارتاح إلى طريقة عمل الجبيرة.

امضيت في عملي ثلاثة أيام ثم استأذنت في العودة للقاهرة للذهاب في اليوم التالي لنوبتجيتى بمستشفى البدرشين.. على أن أعود بعد يومين.. ولكن في واقع الأمر كنت قد عقدت العزم على إلا اعود مرة أخرى والعمل بهذه الطريقة التي تحمل شعار (احنا بتوع كله) .. فليس هكذا تورد الإبل.. وليس هكذا يمارس الطب.

وعندما تأخرت في العودة اتصل بي الطبيب الشامل ليستفسر منى عن سبب تأخري.. فاعتذرت له عن عدم إمكاني مواصلة العمل معه.. وتعللت بصعوبة الجمع بين عملي بالحكومة.. وعملي بعيادته (الشاملة) .

التجربة الثانية

كانت في عيادة بإحدى قرى محافظة الجيزة.. لم يكن صاحبها طبيب.. انما كان ممرضا!

كان رجلا مشهورا في هذه القرية.. ورث مهنة التمريض عن والدة الذي كان يعمل (حلاق صحة) .. ولكنه اكمل تعليمه في مدرسة التمريض وأصبح ممرضا في إحدى الشركات الحكومية.

كان يملك منزلا في القرية وقام بتحويل شقة في الدور الأرضي إلى عيادة.. خصص حجرة منها كعيادة للطبيب.. وخصص حجرة أخرى كعيادة له!

كان يفعل كل شيء.. وأي شيء!.. وكما كان في الخطاطبة طبيبا شاملا.. كان هو ممرضا شاملا!

كان يقوم بإعطاء الحقن.. والغيار على الجروح وعمل الغرز الجراحية.. وفتح الخراريج.. وطهارة الاولاد.. وازالة الاكياس الدهنية.. كما كان يقوم – في غياب الطبيب – بمعالجة بعض الاعراض المرضية البسيطة مثل المغص والصداع والتهابات العيون وغيرها.. وكانت شنطته لا

تخلو من الادوية والامبولات بجميع أنواعها.

فاتحني صديق في امكانية العمل معه في عيادته.. وشرح لي مزايا العمل حيث أن تردد المرضى على عيادته كبير نظرًا لشعبيته.. ونظرًا لأنه يقوم بعمل دعاية كبيرة للطبيب لأنه بالطبع يستفيد من وراءه.

قلت لا مانع من خوض هذه التجربة .. وبالفعل التحقت بالعمل في عيادته.. كنت اجلس في حجرة الكشف على المكتب.. ما أن اسمع وقع اقدام تدخل من باب الشقة حتى أنتظر.. أما أن يكونوا زبائن للممرض اتوا لأخذ حقنة أو للغيار على جرح.. واما يكونوا في حاجة إلى كشف طبى فيدخلهم الممرض إلى حجرتي لأقوم بالكشف عليهم.. وينتظر هو في لهفة إلى أن اكتب الروشتة.. فاذا ما تضمن العلاج حقن يقوم هو بإعطائها للمريض نظير مقابل.. أي أنه كان المستفيد في جميع الحالات.

ولا ابالغ عندما اقول أني كنت أحيانًا اشعر بالغيرة عندما تأتى أيام يكثر فيها زبائنه.. بينما اجلس أنا وحيدا لا أجد (زبونا) واحدا اكشف عليه!

عملت في هذه العيادة لأكثر من سنتين.. والحقيقة أني كنت سعيدا بنوعية العمل والتعامل مع هذا الممرض.. الذي اشهد بأنه كان رجلا ماهرا ونشيطا ويقدس عمله ويحترم الطبيب الذي يعمل معه.

وأخيرًا اضطررت إلى ترك العمل بعيادته حتى اتفرغ لمنزلي وأسرتي وبقيت ذكريات تلك الأيام في مخيلتي إلى الآن.

كلمة لا بد منها

سوق العمل الطبي في مصر كان.. ولازال في حاجة إلى تنظيم.. العشوائية والارتجال مسيطران عليه.. ما أكثر المستوصفات والمراكز التي تعمل بدون ترخيص .. ويمارس فيها الطب وتجرى فيها العمليات بدون ادنى اشتراطات صحية.. إلى جانب ما يجرى أحيانًا من عمليات غير مشروعة مثل الاجهاض ونقل الاعضاء.. ناهيك عن فوضى العلاج بالأعشاب التي انتشرت مؤخرا.. ورغم الجهد المبذول من وزارة الصحة ونقابة الأطباء في ملاحقة هؤلاء.. إلا أن الأمر يتطلب المزيد من الجهد والمراقبة حتى نحد من ظاهرة الاخطاء الطبية والعشوائية في العلاج.. وحتى يجد صغار الأطباء وكبارهم أيضًا مجالا للعمل الحر دون أي ضغوط أو تنازلات .. وحتى نضمن لهم حياة كريمة تليق بمستواهم العلمي.

حكايات ومواقف لا تنسى

1 - الجوالة

كانت الدراسة في كلية الطب صعبة ومرهقة.. والمواد الدراسية طويلة ومتشعبة .. وكان ذلك يشكل ضغطًا عصبيًا ونفسياً شديداً علينا.. خصوصًا عند الاستعداد للامتحانات التحريرية والشفوية التي لا ترحم.. حيث كانت تزداد حالات القلق والتوتر.. والاكتئاب.. واشياء أخرى!

وحتى نخفف من حدة الأمر وثقل سنوات الدراسة.. كان الطلبة يلجأون إلى ممارسة الأنشطة الاجتماعية والترفيهية التي يشعرون فيها بالمتعة والسعادة .. وتلهيهم ولو مؤقتا عن روتين الدراسة في الكلية.. وكان حظى سعيدا عندما انضممت إلى أحد أهم الأنشطة في الكلية وهو نشاط الجوالة .

كان انضمامي إلى عشيرة الجوالة هو محض صدفة لم اخطط لها.. فقد اقنعني أحد الأصدقاء بالانضمام إلى عشيرة الجوالة في بداية السنة الاولى لنا بالكلية.. وكانت حجته أن الجوالة تنظم رحلات ومعسكرات إلى الدول الاجنبية مما يتيح لنا فرصة السفر والفسحة (ببلاش) .

كان صديقي هذا من عشاق السفر إلى الخارج.. وكان ينتهز أي فرصة في أي مكان ليسافر إلى أي دولة اجنبية .. لهذا اقنعني بالانضمام إلى عشيرة الجوالة .. فقط.. كي نسافر إلى الخارج.

وبالفعل انضمينا إلى عشيرة الجوالة .. وكانت المفاجأة أن كل المعسكرات والرحلات

التي قامت بها الجوالة كانت داخل القطر المصري!.. وقبل أن تنتهي السنة الأولى كنا قد حضرنا معسكرات في ابو قير وحلوان والسويس.. وانتظر صديقي أن تعلن الجوالة عن معسكر في أي دولة اوروبية أو حتى افريقية.. الأمر الذي لم يحدث.. فقرر صديقي ترك الجوالة غير آسفا عليها.

أما أنا.. فكنت على العكس تماماً.. انجذبت بشدة إلى حياة الجوالة .. كانت هناك فرصة لممارسة كل الأنشطة المحببة إلى نفسي.. المعسكرات والتخييم والأنشطة الثقافية والفنية والرياضية.. إلى جانب الصحبة الممتازة والأصدقاء الذين ارتبطوا معاً في صداقة لم تزل أواصرها متينة حتى يومنا هذا.. وأصبحت عشيرة الجوالة جزءا لا يتجزأ من حياتنا في كلية الطب.. كنا نمضى معظم اوقاتنا في مقر العشيرة.. لا نتركه إلا كي نحضر سكشن أو محاضرة ثم نعود بسرعة كي نمارس ما نحب من نشاط.

اكتشفت أن حياة الكشافة والجوالة هي انسب ما يمكن أن يمارسه الشباب صغارا وكبارا.. فهي تنمى فيهم المواهب السوية وروح الجماعة وتبعدهم عن مخاطر الانحراف والتطرف .

أما عن الرحلات الخارجية.. والتي كانت سببا في انضمامي للجوالة.. فقد اتت متأخرة جدا وللأسف لم استفد منها اطلاقا!

فقد حدث بعد ذلك موقفا لا يمكن أن أنساه ابدا.. فأخيرًا وبعد أن أصبحت في السنة الرابعة.. اعلنت هيئة الشباب والرياضة عن معسكر خارجي يقام في المانيا الغربية .. والاختيار يكون عن طريق مسابقات تجرى بين المتقدمين الذين كانوا بالمئات.. تقدمت للسفر وتم اختياري ضمن مجموعة من الكلية.. ثم دخلنا في منافسة مع اخرين من كليات أخرى فنجحت.. ثم دخلنا في منافسة مع مجموعات من جامعات أخرى .. ونجحت.. وأخيرًا تم اختياري ضمن الوفد المسافر إلى المانيا.. وعندما تم الإعلان عن موعد المعسكر كانت الصدمة شديدة.. المعسكر لمدة ثلاث اسابيع تبدأ مباشرة قبل بدأ الامتحانات النهائية للسنة الرابعة والتي كانت في شهر سبتمبر.. وأسقط في يدى.. لا يمكن أن اسافر لأعود ليلة الامتحان .. وكان قراري الذي حزنت عليه حزنًا شديدًا.. اعتذرت عن السفر إلى المعسكر.. وما أن اعلنت ذلك حتى فوجئت بأحد اعضاء الشباب والرياضة يزورني في منزلي.. قال لي: أنا سمعت انك مش حتسافر المانيا

قلت: للأسف ايوه.. عشان امتحاناتي بعد المعسكر على طول.

قال: طيب ممكن تكتبلي تنازل عن السفر

قلت: ليه؟

قال: عشان ابنى يسافر مكانك!

كتبت له تنازل عن السفر فأخذه وهو في قمة السعادة.. وخرج من منزلي ولسان حاله يقول:

يالك من عبيط.. حد يسيب سفرية زي دي لألمانيا؟!

2 - أخوك فين يا أشرف

حدثت هذه الواقعة الطريفة عندما كنت أعمل في مستشفى الساحل التعليمي أثناء فترة الامتياز.

كانت الساعة تقترب من الرابعة فجرا.. كنت أحاول أن انام ساعة أو ساعتين بعد ليلة عمل شاقة في الاستقبال.. فجأة استيقظت على نداء عامل الاستقبال: اصحى يا دكتور مهاب.. في حالة مستعجلة.

فتحت عيناي بصعوبة ورديت بصوت نائم: حاضر.. أنا جاي حالا.

قمت من سريري ولبست البالطو وخرجت.. توجهت إلى سرير الكشف بالاستقبال .. وجدت شابا ممددا على السرير يمسك جانبه الأيمن بيده ويتأوه بشدة.. بدأت في الكشف عليه وأنا بين اليقظة والنوم.. وضعت يدى على جانبه الايمن فصرخ .. ايقنت أن الحالة التهاب حاد في الزائدة الدودية .. نظرت إليه بعينين المنتفختان وقلت: احتمال يكون عندك التهاب في الزائدة.. فاستدعى نائب الجراحة يعملك دخول للقسم و.....

وفجأة نظرت إلى وجه المريض وصعقت.. أنا اعرف هذا الشاب.. أنه شقيق اشرف.. واشرف هذا زميلنا في الكلية ويصغر عنا بسنتين.. وهو صديق من شلة الجوالة بالكلية.. كما أن منزله يقع بالقرب من منزلي في حي شبرا .. وكنا أحيانًا نجتمع في منزله مع بعض الأصدقاء لنتسامر.

قلت للشاب: مش أنت اخو اشرف الصغير؟

قال: ايوة يا دكتور مهاب.. أنا افتكرتك مش عارفني

قلت: لا إزاي.. أنا ياما شفتك هناك لما كنت بأزور اشرف.. امال هو ما جاش معاك لية؟

قال: مقلتش لحد في البيت أني جاي.. أنا لما حسيت بالمغص اتسحبت وهم نائمين

وجيت المستشفى عشان ماأقلقش حد منهم

اهتممت به وأوصلته إلى قسم الجراحة وأوصيت عليه نائب الجراحة والممرضة بالقسم.

وعندما انتهت نوبتجيتى في الثامنة صباحًا خرجت من المستشفى وتوجهت مباشرة إلى منزل اشرف الذي كان نائما.. استيقظ وفتح لي الباب ودعاني للدخول وهو مندهش.. بادرته بالقول: اخوك فين ياأشرف؟

قال: نايم جوه.. لية؟

قلت: اخوك مش جوه.. اخوك عندنا في المستشفى.

وقبل أن يصاب بصدمة هدأته.. وأخبرته أن حالته مستقرة وهو الآن في قسم الجراحة ينتظر اجراء عملية ازالة الزائدة.. ثم تركته ليرتدي ملابسه ويتوجه للاطمئنان على أخيه.. وتوجهت أنا إلى منزلي لأخذ قسط من الراحة بعد ليلة استقبال عاصفة.

3 - الصباع المخلوع

أكثر ما كان يدعو إلى الضيق هو كتابة التقارير الطبية للحالات المحولة من اقسام الشرطة إلى استقبال المستشفى .. وهي الحالات التي تكون بها اصابات نتيجة مشاجرة أو اعتداء.

يكون نائب الاستقبال ملزما بكتابة كل جرح أو خدش أو الكدمة مع ذكر مكانها وشكلها وعددها .. والأهم أن يكتب في نهاية التقرير المدة اللازمة لعلاج تلك الاصابات .. واذا ما كانت أقل أو أكثر من واحد وعشرين يومًا.. وهي جملة فاصلة ومصيرية لأنها تحدد إذا ما كانت القضية جنحة.. أو جناية.

وعندما كنت أعمل في مستشفى الساحل أثناء فترة الامتياز .. كان المصاب يأتي من القسم وبيده خطاب تحويل للكشف عليه.. يعطيه لنائب الاستقبال الذي يكتب التقرير ثم يسلمه إلى المصاب نفسه .. والذي يقرأه بالطبع قبل أن ينصرف من الاستقبال .. وأحيانًا يدخل في جدال ومناقشة مع النائب.. لماذا لم تذكر هذه الاصابة؟؟.. ولماذا كتبت أن الجرح سطحي؟؟.. ولماذا لم تؤكد انها ضربة مطواة قرن غزال؟!.. ولماذا لم تكتب أن العلاج أكثر من واحد وعشرين يوم؟؟؟..

وكان النقاش يتطور أحيانًا إلى معركة يكون الضحية فيها هو نائب الاستقبال .. خصوصًا إذا كان المصاب أصلًا من فئة البلطجية ويريد تقرير لإيذاء شخص ما أو تهديده.

ولكن تم تدارك هذا الأمر فيما بعد وأصبح المصاب يأتي من القسم في صحبة أحد العساكر الذي يقوم بتسلم التقرير من النائب ولا يعطيه للمصاب إلا في مركز الشرطة.

ومن الطرائف التي حدثت في مستشفى الساحل عندما كنت نوبتجيا بالاستقبال.. حضر شاب وهو يمسك يده اليسرى باليد اليمنى ويتأوه بشدة.. أعطاني اشارة من مركز الشرطة للكشف عليه وكتابة تقرير بالإصابات.. سألته عن الاصابات التي به فرفع كف يده اليسرى لأشاهده.. وجدت الإصبع الصغير (الخنصر) على شكل رقم 6.. واضح أن

هناك خلع بالمفصل الاوسط للأصبع.. واخبرني المصاب أن شخص ما اعتدى عليه بشومة مما ادى إلى خلع مفصل الصباع!.. ودخل في نوبة بكاء وهو يترجاني أن آتى هي بحقة من المعتدى!

استدعيت نائب العظام الذي كتب في التقرير خلع بمفصل الاصبع يحتاج علاج أقل من واحد وعشرون يومًا.. فاستمر اخينا في البكاء مطالبا النائب أن يكتب علاج أكثر من واحد وعشرين يومًا حتى يأخذ المعتدى جزاؤه.. ولكن النائب رفض لأنه تم علاج المفصل وردٌّة إلى مكانة.

مضى على هذه الواقعة شهران.. كنت اعمل وقتها في قسم العظام بالاستقبال.. عندما حضر نفس الشخص بنفس الاصابة يطلب تقريرا طبيا يفيد تعرضه للاعتداء!!

جاء نائب العظام ليفحصه وكان طبيب آخر غير السابق.. انتحيت به جانبا وأخبرته أن نفس الشخص اتى منذ شهرين بنفس الاصابة .. اصبع الخنصر مخلوع!.. فهم النائب الموضوع.. هذا الشخص لدية قدرة على خلع مفصل أصبعه وقتما يشاء لأن اربطة المفصل ضعيفة .. ثم يقوم بعمل محضر بقسم الشرطة متهما آخر بالاعتداء عليه.. ويأتي بخطاب تحويل لأخذ تقرير بالإصابة كي يدين الشخص الذي يتهمه.. وعرفنا بعد ذلك أنه بلطجي يفعل هذا كي يبتز ضحاياه.

قام النائب برد المفصل إلى مكانة.. وكتب في التقرير أن الشخص سليم ولا توجد به اصابات .. وعندما علم صاحبنا بذلك حاول التعدي على النائب.. ولكن تم إخراجه من الاستقبال عن طريق الشرطي الموجود.. ولم نراه بعد ذلك مرة أخرى.

4 - الهمجي

ذهبت مع مجموعة من الأصدقاء لمشاهدة مسرحية (الهمجي) للفنان محمد صبحى.. كنت وقتها قد انتهيت لتوي من فترة الامتياز واستعد لبدء مرحلة التكليف.

في نهاية الفصل الاول كان مشهد المشاجرة بين الفنان محمد صبحى وزوجته الفنانة سعاد نصر.. تحمس صبحى وطار في الهواء مقلدا (بروس لي) فوقع على ركبته .. امسك الفنان بركبته وايقنت الفنانة سعاد نصر بأنه يتألم بشدة فأشارت إلى العمال لإغلاق الستار .

اعتقد المشاهدون أن الفصل قد أنتهي وحان وقت الاستراحة .. ولكن الاستراحة طالت ولم يفتح الستار.. وفجأة.. خرج أحد الكومبارس من خلف الستارة وهو يقول: في هنا دكتور عايزين دكتور بسرعة.

تشجعت ورديت عليه: ايوة .. أنا دكتور

صعدت على خشبة المسرح ودخلت من خلال الستارة المغلقة.. وجدت الفنان محمد صبحى راقدا على خشبة المسرح وحوله الممثلون.. اتجهت للكشف على ركبته .. ولما كنت قد مارست طب العظام أثناء فترة الامتياز وكنت متمرسا فيه.. فقد ايقنت أن هناك جزع في اربطة مفصل الركبة .. ويحتاج علاجه إلى فترة لا تقل عن شهر.. هدأت من روع الفنان ثم قلت له: دا جزع في الركبة يلزمه رباط ضاغط الآن وراحة لمدة شهر.

التفت لي الفنان بسرعة وقال لي باستنكار: شهر؟.. لا يمكن!

كان بالطبع حريصا على إلا يقف عرض المسرحية ولو ليوم واحد حتى لا تحدث خسائر مادية لفريق العمل كله.

صمت.. وطلبت من أحد الممثلين أن يحضر رباط ضاغط من الصيدلية.. قمت بربط الرباط الضاغط ووقف الفنان محمد صبحى على قدمية وقال: يلا يا جماعة .. حنفتح الستارة.

تعجبت اشد العجب.. كيف سيكمل المسرحية بعد هذه الاصابة؟؟.. نزلت إلى مقاعد

المتفرجين الذين كانوا في أشد حالات القلق.. وتم بالفعل فتح الستار وتحامل الفنان على نفسه واكمل المسرحية .. وصفق له المشاهدون على إصراره على عدم إلغاء العرض.

بعد يومين قرأت في الصحف أن الفنان محمد صبحى اصيب وهو يؤدى دورة وسيتم ايقاف عرض المسرحية لمدة شهر على الأقل لحين شفاء البطل.. وبالطبع لم يشر أحد إلى شخصي المتواضع الذي شخص الحالة وعالجها على خشبة المسرح.

وحدث أن قابلت الفنان محمد صبحى في أحد المناسبات بعد هذه الواقعة بسنوات .. وذكرته بها وبأني أنا من قمت بعلاجه على المسرح.. فضحك وقال:

أنت بقى الدكتور اللي عالجني غلط!

5 - النقابة وكوسوفا

أثناء عملي في وحدة بنى سلامة.. وبعد أن تعرضت لتهمة سرقة تيار كهربائي وتم الحكم عليّ غيابيا بستة اشهر سجن مع الشغل والنفاذ!.. وبعد أن عملت معارضة للحكم وتحدد جلسة أخرى للقضية .. نصحني أصدقائي بان أتوجه إلى النقابة لأطلب منهم المساعدة وامكانية التدخل لوقف هذه المهزلة التي لا ذنب لي فيها.

وبالفعل توجهت إلى النقابة وطلبت مقابلة أحد اعضاء المجلس.. قابلت شاب متوسط العمر عرفني بنفسه بأنه عضو في المجلس.. شرحت له الموضوع من البداية عندما حضر ضابط المباحث وحرر محضرا بسرقة التيار إلى أن تم تحديد جلسة محاكمة لنظر القضية.

اعتدل الشاب في جلسته وأخذ نفسا عميقا ثم بدأ في الكلام.. كان كلامة أشبه بمحاضرة يلقيها على اعضاء جمعية عمومية!.. قال لافض فيه اننا كأطباء ضحايا مجتمع لا يقدر العلم والعلماء!.. واننا نتهاون في حقوقنا ولا نطالب بها إلا بعد فوات الآوان .. واننا يجب أن نقف وقفة رجل واحد في مواجهة كل التحديات والعقبات التي تواجهنا... وأخذ يسهب في دور مجلس النقابة ومواقفة القوية تجاه كل ما يمس مهنة الطب والأطباء.

وبعد أن انهي المحاضرة سألته .. وماذا عن موقف النقابة تجاه قضيتي؟..

قال وعلى وجهه ابتسامة خجولة: للآسف.. مش حنقدر نعملك حاجة لأن حضرتك جيت متأخر والموضوع دلوقتي في ايد القضاء ولا نستطيع التدخل في عمله!

شكرته.. وعندما هممت بالانصراف فاجأني بسؤال:

هل تبرعت للمجاهدين في كوسوفا؟

كنت قد شاهدت صندوق خشبيا في مدخل النقابة مكتوب عليه (تبرعوا لإخوانكم المجاهدين في كوسوفا الشقيقة)

اعتذرت له وقلت أني سوف اتبرع في وقت آخر عندما تسمح الظروف.. وخرجت من النقابة وأنا ادعو لمجاهدي كوسوفا بالنصر المبين.

6 - عفاريت بنى سلامة

عندما بدأت العمل في وحدة بنى سلامة قررت المبيت فيها طوال أيام الأسبوع .. وطلبت من العمال تجهيز السكن للإقامة والمبيت.. وكان الوضع قبل مجيئي مختلفا.. حيث كان الأطباء الذين تتابعوا للعمل في بنى سلامة لا يبيتون بها .. وكانوا جميعا ينصرفون عصرا بعد انتهاء العمل .. وكانت الوحدة تغلق ابوابها قبل مغيب الشمس حتى صباح اليوم الثاني.. وكان الناس يخشون الاقتراب من سور الوحدة ويفضلون الابتعاد عنها.. والسبب أنه منذ عدة سنوات مضت وقعت حادثة مات فيها أحد الاشخاص .. ونقله الأهالي إلى داخل الوحدة.. وأمرت النيابة بانتداب طبيب شرعي لفحص الجثة قبل التصريح بدفنها.. وبقى المتوفي داخل الوحدة في حراسة الخفراء لمدة يومًان حتى اتى الطبيب الشرعي وفحص الجثة وكتب تقريرا بعدم وجود شبهة جنائية.. ثم تم بعدها نقل الجثة للمقابر ودفنها.

ومنذ ذلك الحين وهناك اعتقاد سائد بين بعض أهالي القرية بان الوحدة يظهر بها عفريت هذا المتوفي .. وأخذت الاقاويل تتردد عن شبح يحوم بحديقة الوحدة ليلًا.. واصوات تصدر من خلف الاشجار .. إلى آخر هذه الخزعبلات .

وكان قراري بالمبيت بالوحدة مفاجأة لأهالي القرية.. ولعمال الوحدة الذين اضطروا لقبول الأمر والمبيت معي.

وكان هناك عامل يدعى عم عبدة.. كان في اواخر الخمسينات من عمره وكان يؤمن بالأشباح والعفاريت والجن.. وباقي ظواهر ما وراء الطبيعة!

وفي أول يوم مبيت له معي في نوبتجيتة .. فوجئت به في العاشرة مساءا .. وبعد أن دخلت السكن الخاص بي .. يطرق باب السكن .. فتحت له فوجدته في حالة ذعر وفزع .. قلت له:

مالك ياعم عبدة؟

قال: أعوذ بالله.. في أصوات في الجنينة يا دكتور.

قلت: أصوات ايه؟

قال: علمي علمك.. أنا جتتي متلبشة ومفاصلي سايبة.

قلت: طب تعالى معايا نشوف.

انطلقت إلى الحديقة وهو ورائي.. وذهبت إلى مصدر الصوت واطلقت ضوء الكشاف فوجدنا كلبا يغازل كلبة ويقضيان معا لحظات سعيدة!

نظرت إلى عم عبدة وقلت: ادى اللي بيخروش ياعم عبده.. مش عفريت ولا حاجة .. اطمأنيت دلوقتي؟

قال وهو يتنفس الصعداء: الحمد الله .. بس لي رجاء عند سيادتك .. مش حابات في الاودة اللي على البوابة .. لو تسمحلى ابات معاك في السكن.

قلت له: ما فيش مانع.. تعالى نام في الاودة الثانية.

ومن يومها والعامل النوبتجى يبيت معي في السكن.. وبمرور الوقت انتهت قصة العفاريت ونسيها أهل القرية الذين أخذوا يتوافدون على الوحدة للكشف ليلًا .. وفي منتصف الليل وعند الفجر أيضًا.

7 - شهادة طبية للنص الفوقاني

كنت اجلس بمكتبي بوحدة القطا الصحية.. كان الوقت عصرا والهدوء يشمل المكان .. عندما فوجئت بأحد الاشخاص يدخل المكتب ويلقى عليّ وابل من التحية والسلامات .. أهلا يا دكتور.. منور القطا كلها.. احنا زادنا الشرف.. احنا ربنا كرمنا بدكتور عظيم زيك.

واستمر في القاء عبارات المدح والإطراء لمدة لا تقل عن ربع ساعة حتى كدت أن أقول له أن كتر السلامات تقل المعرفة وتسبب الزهق!

وبعد أن أنتهي من وصلة الغزل العفيف سألته: سيادتك مين؟

عرفني بنفسه قائلًا أنه موظف بإحدى الهيئات الحكومية.. كما أنه عضو في عدة جمعيات أهلية وخيرية.. وذكر أسماء بعض هذه الجمعيات التي لم اسمع عنها ابدا من قبل!

المهم أنه أوحى لي بأنه شخصية مهمة للغاية في القطا.. وأنه صديق لكل الأطباء الذين عملوا في وحدة القطا منذ انشائها حتى وقتنا هذا!

وأخيرًا وبعد أن اوشكت على أن اتركه بالمكتب واصعد إلى السكن لأستريح من ثرثرته.. افصح سيادته عن مكنون نفسه.. قال وهو ينظر إلى الأرض:

أنا بصراحة قاصدك في خدمة يا دكتور.

آه.. أخيرًا انكشف المستور واتضح السبب الحقيقي وراء سيل المودة والمحبة الذي غمرني به بدون سابق معرفة.

قلت: خير إن شاء الله.

قال: أنا عاوز شهادة باطنة ونظر لواحد قريبي عشان يطلع رخصة سواقة.

قلت: حاضر .. بس هو فين؟

قال: اهو..

واخرج من جيبة صورتين شخصيتين للشخص المقصود.

قلت: بس أنا لازم أشوفه بنفسي.

قال: دا قريبي.. ماتخافش من حاجة.

قلت: أنا مش خايف.. أنا متعود اكشف على الشخص قبل ما اكتبه أي شهادة.

قال: أنت مش واثق فيا ولا ايه؟

كدت أنا اقول له لا طبعًا دا أنا أول مرة اشوفك!.. ولكنى عدلت عن ذلك وقلت: مش مسألة عدم ثقة.. بس لازم اشوف الشخص نفسه.

وبعد أن ايقن بأنه لا فائدة من إقناعي انصرف على وعد بان يحضر قريبة لأراه. وفي اليوم التالي فوجئت به يدخل حجرة الكشف ووراءه قريبة صاحب الصورة .. كانت دهشتي شديدة عندما وجدت قريبة (يعرج) .. كان مصابا بشلل اطفال في إحدى ساقية!

جلس اخينا أمامي على الكرسي ودعا قريبة للجلوس على الكرسي الآخر وكأنه في مكتبة الخاص.. ثم قال وهو يضحك:

اديني جبتهولك آهة ياسيدي زي ما طلبت.

قلت: أنت اكيد بتهزر.. مع احترامي الكامل لقريبك.. بس إزاي اكتب شهادة طبية بأنه سليم؟

قال وهو مازال يضحك: كل دا روتين.. احنا لينا معرفة في المرور.. وهو نفسه مش حيروح خالص ولا يشوفوه.. أنا حابعت الشهادة مع الصور.. والصور يبقى فيها النص الفوقاني بس.. يعنى النص السليم.. هاهاهاهاهاهاة.

قلت وأنا أحاول أن أمسك أعصابي: حتى لو كتبتله شهادة وطلع رخصة.. حيسوق إزاي؟

قال: هو مش حيسوق ولا حاجة .. دا عايز الرخصة عشان حيسافر ليبيا يشتغل والرخصة تساعده في إجراءات السفر.. مش بقولك روتين.

قلت حتى انهي هذه المسخرة: آسف .. لا يمكن اكتبله شهادة طبية.. دا يبقى تزوير.

ولما وجدني مصممًا على موقفي انقلبت سحنته وقال:

أنت كدة مش بتعاون معانا .. الدكاترة اللي قبل منك كانوا مابيتأخروش عن أي طلب نطلبه.. على العموم خليك فاكرها يا دكتور.

وخرج وقريبة يتبعه.. وبالطبع.. كانت هذه الواقعة سببا في غضبة وغضب بعض الأهالي الذين كانوا يأملون في أن يكون طبيب الوحدة (متساهلا) مع طلباتهم .. حتى ولو كانت غير مشروعة.

8 - الميت صحى تاني

بعد بضعة أيام من تسلمي العمل بوحدة ام دينار .. جاءني أحد الاشخاص واخبرني أن قريبة توفي في صباح ذلك اليوم.. وطلب تصريح دفن واستخراج شهادة وفاة.. قلت له أني أريد أن أرى المتوفي لأحدد سبب الوفاة .. ظهرت علامات الدهشة والاستغراب على وجهه وبدا وكأنه لم يستوعب ما طلبت منه.

كان الطبيب الذي يعمل بالوحدة قبل مجيئي يعتمد في اصدار شهادات الوفاة على الروشتات الطبية للمتوفي لتحديد سبب الوفاة.. وحينما يتأكد أن المتوفي كان يعانى من أمراض مزمنة ادت إلى وفاته.. كان يكتب له سبب الوفاة دون أن يتوجه للكشف عليه في منزله.. لذلك كانت دهشة محدثي كبيرة عندما طلبت منه أن اذهب لأرى المتوفي حيث أنه اجراء لم يتعودوا عليه في القرية.

قال: هو سيادتك لازم تشوف المتوفي؟

قلت: لازم.. عشان اكتبله في الشهادة السبب الفعلي للوفاة.

قال في استسلام: اللي تشوفه.

كان المتوفي ويدعى محمد في الخامسة والأربعين من عمره.. لم يكن يشكوا من أي أمراض قبل وفاته.. وجاءت وفاته فجائية حيث سقط بلا حراك اثنا خروجه من منزله متوجها إلى عمله.. وكانت هذه اسباب تدعوني لضرورة مناظرة الجثة لمعرفة سبب الوفاة واستبعاد أي شبهة جنائية.

توجهت معه إلى منزل المتوفي.. كان أهالي البلدة كعادتهم عند أي حالة وفاة متجمعون أمام منزل المتوفي في انتظار انهاء اجراءات تجهيز الجثة للدفن.. وعندما شاهدوني ادخل إلى المنزل وخلفي عامل الوحدة يحمل الشنطة سرت همهمات بين الحاضرين.. محمد صحي تاني!.. الدكتور جاي يكشف عليه ويفوقه!!

بالطبع كان منظرًا غريبا عليهم.. لم يتعودوا من قبل أن يروا طبيب الوحدة يأتي للكشف على المتوفي.. لذلك فسر بعضهم-وخصوصًا النساء- مجيئي على اساس أن المتوفي مازال ينبض بالحياة وأنني اتيت لإنعاشه.. وبدأت الاشاعة تنتشر.. وقام الجالسون وتحركت الجموع..

وتدافعوا على باب المنزل ليروا محمد بعد أن (صحى) تاني.. لدرجة أن بعض النسوة بدأوا في اطلاق الزغاريد ابتهاجا بعودة الحياة إلى المتوفي!

طبعًا تدخل العقلاء وافهموا الجموع بأنني اتيت للكشف على الجثة ولتحديد سبب الوفاة.. الذي كان بسبب جلطة حادة بالشريان التاجي.

وتعود أهالي ام دينار بعد ذلك على مشهد قدومي للكشف على أي متوفي في ام دينار .. خصوصًا إذا كان في سن صغير.. أو بدون سبب واضح للوفاة.

9 - هيستيريا

في اواخر التسعينات .. حدثت ظاهرة في بعض مدارس محافظات الدلتا حيّرت الجميع.. كانت تحدث حالات اغماء جماعية بين طلبة المدارس خصوصًا مدارس البنات .. ولم يتوصل الباحثون وقتها إلى معرفة السبب الحقيقي الذي يؤدى إلى اغماء أعداد كبيرة من نفس الفصل.. ويمتد إلى فصول أخرى في المدرسة.. ويمتد من مدرسة إلى مدرسة!

وتم أخذ عينات من الأطعمة.. والماء.. والهواء.. لدرجة أنهم أخذوا عينات من طلاء جدران الفصول لفحصها معمليا وكيمائيا وحتى اشعاعيا.. وكانت النتيجة سلبية في كل العينات .. مما أوحى إلى الجميع بانها ظاهرة سيكولوجية أشبه بالهستيريا الجماعية.

كنت اعمل أيامها في وحدة ام دينار.. وكنت أذهب يومياً لمدة ساعتين إلى المدرسة الابتدائية لفحص التلاميذ وعلاجهم بنظام التأمين الصحي.

وفي أحد الأيام فوجئت أثناء جلوسي بعيادة المدرسة بأربعة طالبات يحملن زميلة لهن اغمى عليها.. وضعوها على سرير الكشف قائلين انها سقطت مغشيا عليها بلا سبب وان هناك اخريات مثلها.. وبالفعل تبعها طالبة ثانية .. ثم ثالثة .. ثم رابعة.. وكانوا جميعًا من الصف السادس الابتدائي.

وبدا أن المشهد سوف يكون مشابها لما يجرى في مدارس محافظات الدلتا والتي اطلقوا عليها هيستيريا جماعية.

توجهت للكشف على أول تلميذة فاكتشفت انها تدَّعى الاغماء.. وكذلك الثانية والثالثة .. وحتى اوقف امتداد هذه الهيستيريا إلى باقي تلميذات الفصل.. والفصول المجاورة.. وقفت في منتصف الحجرة وقلت للمرضة بصوت عالي:

يانادية .. هات الحقنة الكبيرة واماليها محلول.. كل بنت من دول حتاخد حقنة عشرين سنتي في فخدها.

وقبل أن انهي الجملة.. كانت كل البنات المغمى عليهم قد قفزن من فوق الأسرة .. وخرجوا جريا من باب الحجرة.. ولم تحدث بعدها أي حالات اغماء إلى أن تركت العمل في ام دينار.

10 - جزاء فعل الخير

في كل وحدة صحية ريفية.. توجد حجرة مخصصة كصيدلية للوحدة.. توضع بها اصناف الادوية المحدودة التي تصرف من المخازن ويستلمها طبيب الوحدة ليصرف منها للمريض .

وبالطبع فهذه الادوية تعتبر عهدة حكومية .. تصرف باستمارات صرف وتقيد في دفاتر العهدة ويتم صرفها للمرضى عن طريق تذاكر العيادة.. ويدوَّن المنصرف منها في الدفاتر شهرًا بشهر حتى لا يحدث عجز في العهدة وندخل في سين وجيم بسبب شريط برشام أو صباع مرهم ناقص!

وعندما كنت أعمل في وحدة جزاية.. كنت مسؤولاً عن الصيدلية والادوية (أصبحت الآن الصيدلية عهدة الطبيب الصيدلي بعد تعيين الصيادلة في معظم الوحدات الريفية)

وكان يتم التفتيش على العهدة كل فترة عن طريق إدارة الصيدلة بالمديرية.. فيتم مراجعة الدفاتر وجرد بعض الاصناف لبيان أي عجز أو زيادة في العهدة (تعامل الزيادة معاملة النقص ويتم خصم ثمنها بالإضافة إلى مصادرة المضبوطات!)

ذات يوم كنت أقوم بالكشف على المرضى في حجرة الكشف.. عندما دخلت شابة في العشرينات من عمرها.. عرفتني بنفسها بانها من التفتيش الصيدلي بالمديرية .. وطلبت الاطلاع على دفاتر العهدة وتذاكر المرضى واستمارات الصرف .. إلى اخرة.

وبعد أن اطلعت على الدفاتر طلبت منى جرد بعض اصناف الادوية لمطابقتها بما هو مدون بالدفاتر والاستمارات.

دخلنا إلى حجرة الصيدلية.. وقبل أن تبدأ في جرد أي صنف لفت نظرها بعض الادوية الغير مقيدة بالدفاتر.. سألتني عنها فقلت لها بانها عينات مجانية تأتيني كهدايا من مندوبي شركات الادوية للدعاية.. اقوم بتجميعها ووضعها في الصيدلية حتى اعطى منها لمن يحتاج من المرضى.. بالطبع بدون أن اسجلها في دفتر العهدة أو اكتبها على تذكرة المريض لأنها ليست عهدة حكومية بل انها تعتبر ملك شخصي لي.

فاجأتني بالقول بان هذا مخالف للقوانين !.. وأنه يجب إلا احتفظ بها في حجرة الصيدلية إلا إذا سجلتها في دفاتر العهدة!

وحتى تكتمل الكوميديا.. امسكت بقلم وبدأت تكتب أسماء عينات الادوية الموجودة .. سألتها عما تفعله.. قالت أن كل هذه العينات المجانية سوف يتم تقدير ثمنها .. كي تخصم من راتبي جزاء هذا الجرم الفظيع الذي فعلته عندما احتفظت بها في الحجرة المقدسة!.. أقصد حجرة الصيدلية.

طبعًا استشطت غيظا مما تفعله.. أردت أن اسدى خدمة لبعض الفقراء الذين يحتاجون لمثل هذه الادوية ولا يستطيعون شراءها .. فيكون جزائي خصم قيمتها من راتبي.

عندئذ طلبت منها أن تخرج من الحجرة حتى ننهي هذه المهزلة.. رفضت واصرت على إلا تغادرها إلا بعد أن تنتهي من كتابة كل عينات الادوية.. زاد غيظي واخبرتها بأني سوف اغلق عليها باب الصيدلية وأتوجه إلى حجرة الكشف إذا لم تخرج.. أخيرًا استسلمت للأمر وخرجت من الحجرة قبل أن تكتب أسماء العينات.. وانصرفت من الوحدة وهي تتوعد وتهدد باتخاذ كل الاجراءات القانونية ضدي.

تم تحويل الأمر إلى النيابة الادارية التي استدعتني للتحقيق .. استفسر المحقق عن سبب احتفاظي بالعينات المجانية في حجرة الصيدلية فأخبرته بالسبب.. قال وهو يتأسف أنه مضطر إلى توقيع جزاء لأن هذا يعتبر في حكم القانون مخالفة!.. فاللوائح والقوانين تمنع الاحتفاظ بأي ادوية غير حكومية في حجرة الصيدلة الحكومية ما لم تدون في دفاتر العهدة الحكومية!.. وكان يحتم عليّ أن احتفظ بهذه الادوية في أي حجرة أخرى.. إلا حجرة الصيدلية.

ثم مال المحقق على أذني وقال: حظك كويس أنها مالحقتش تكتب أسماء الادوية وتقدر قيمتها.. وإلا كنا اضطرينا نخصم تمنها كله من مرتبك!

11 - ام احمد

من اظرف من قابلت من شخصيات في وحدة ام دينار.. كانت أم أحمد.

أم أحمد هي سيدة في الستينيات من عمرها.. كانت تدخل الوحدة وهي تترنح ولا تقوى على المشي.. ثم تبدأ في الصراخ والعويل: عاا.. عاااا.. .. وكان العمال يسندونها ويدخلونها بسرعة إلى حجرة الكشف .

اسألها: مالك يا ام احمد..

تقول: تعبانة يا دكتور.. جسمي كله واجعني . مش قادرة اقف ولا امشى ولا اقوم ولا اقعد.. عاااا.

كنت اهدئ من روعها ثم أعطيها بعض المسكنات والمقويات التي كانت تطلبها بنفسها.. وكانت تصر أن تأخذ العلاج كله من صيدلية الوحدة بحجة انها امرأة فقيرة ولا تملك إلا معاش زوجها المتوفي.

وكان هذا الموقف يتكرر مرة كل أسبوعين تقريبًا .. تدخل الوحدة وهي تصرخ .. وتأخذ العلاج وتنصرف وهي تصرخ أيضًا!

إلى أن حدث ذات مرة أن بعد أن أخذت العلاج وانصرفت من الوحدة وهي تمشى بصعوبة وتستند إلى من حولها.. خرجت بعدها بالصدفة إلى كشف منزلي.. وأثناء سيرى رأيتها تتشاجر مع بائعة فراخ في السوق.. كان منظرها مختلف تماما عما رأيناه منذ قليل في الوحدة.. كانت تصرخ فيها بعنف وتمسك برقبتها وتكاد أن تخنقها!

اقتربت منها وأنا مندهش من هذه القوة الخارقة التي نزلت عليها فجأة .. قلت لها: خير ياام احمد في حاجة.. التفتت إلى وما أن شاهدتني حتى تحول صراخها إلى انين وتأوه: اه.. اه.. أنا تعبانة يا دكتور .. أنا بموت.

ضحكت وقلت لها: بلاش الحركات دي.. أنت من شوية كنتي حتاكلى البياعة بسنانك.

فضحكت وقالت: أنا ست غلبانة ومالیش حد.

بعدها كانت كلما تأتى إلى الوحدة تدخل في صمت.. ثم تضحك في وجهي وتقول: عايزة العلاج يا دكتور.. تأخذه وتنصرف في هدوء.

12 - فاتورة المحمول

في بداية الألفية الثانية وبدء أنتشار التليفون المحمول .. كان الاتصال من التليفون الأرضي للتليفون المحمول يكلف كثيرًا نظرًا لارتفاع سعر الدقيقة من الأرضي للمحمول.

استغل بعض موظفي الحكومة تليفون المصالح الحكومية التي يعملون بها للاتصال بأقاربهم واصدقائهم الذين يملكون تليفونات محمولة.. وبالطبع كانت الفواتير تأتى سنويا محملة بمبالغ طائلة نتيجة هذه المكالمات .

تنبه بعض المسؤولين لهذه الظاهرة التي تكلف الدولة مبالغ طائلة في دفع تلك الفواتير.. فصدرت تعليمات بإلغاء المباشر (الزيرو) من التليفونات الأرضية بالمصالح الحكومية.

وكان من ضمن تلك المصالح مديريات الصحة التي اصدرت أوامر للإدارات الصحية التابعة لها بإلغاء المباشر.. ومن ثم اصدرت الادارات نفس الأوامر للوحدات الصحية التابعة لها.

كنت اعمل وقتها في وحدة جزأيه.. وعندما وصل الأمر الينا كنا بالفعل اتصلنا بضع مرات بالتليفون المحمول لصالح العمل.. حيث كانت مخازن الادوية لا يوجد بها تليفون أرضي وكنا نضطر للاتصال بالتليفون المحمول الخاص بمدير المخازن للاتفاق على مواعيد صرف الادوية.

المهم أن الكاتب ذهب إلى السنترال والغى الخط المباشر من تليفون الوحدة الأرضي.

اتت فاتورة التليفون الأرضي آخر العام وتضمنت مكالمات للمحمول قيمتها خمسة واربعون جنيها بالتمام والكمال.

عندما ارسلنا الفاتورة إلى الإدارة لاستخراج شيك بالمبلغ.. اكتشف المسؤول هناك أن الفاتورة بها هذا المبلغ الذي نتج عن مكالمات المحمول.. فحوّل الموضوع فورا إلى النيابة الادارية للتحقيق في هذا الجرم الفظيع!

جاءني استدعاء للنيابة بصفتي مدير الوحدة.. ذهبت للتحقيق أمام محققة شابة تولت هذه القضية.. سألتني عن سبب عدم إلغاء الخط المباشر من التليفون فالقيت باللوم على كاتب الوحدة المسؤول عن إلغاء المباشر في السنترال.. استدعت سيادتها كاتب الوحدة الذي القى باللوم على الإدارة الصحية التي تأخرت في إرسال إشارة إلغاء المباشر.. استدعت سيادتها مدير الإدارة لسؤاله فألقى باللوم على عامل الاشارات المسؤول عن إرسال الإشارة.. استدعت سيادتها

عامل الاشارات الذي اطلعها على دفتر الإشارات وبانة ارسل الاشارة فور تلقي الأوامر من المديرية.. استدعت سيادتها المسؤول بالمديرية الذي تنصل من المسؤولية وقال أنه أرسل الإشارة إلى الإدارات فور تلقيها من الوزارة!

ولما لم تستطع الوصول إلى المسؤول في الوزارة.. فقد استدعتني مرة أخرى .. كما استدعت الكاتب .. فقلنا نفس الأقوال السابقة وكأننا ندور في حلقة مفرغة.

وأخيرًا.. وبعد أن تم عمل ما يقرب من عشرة استدعاءات لموظفين تركوا اعمالهم ومصالحهم وعطلوا مصالح المواطنين وتوجهوا للتحقيق في قضية استهلكت اوراق وأقلام أكثر بكثير من قيمة ما يتم التحقيق فيه..

أخيرًا.. قررت المحققة خصم مبلغ الخمسة واربعون جنيها مناصفة بيني وبين الكاتب.. ودفع كل منا مبلغ اثنان وعشرون جنيها ونصف لإنهاء هذه القضية.

وجدير بالذكر أني عرضت على سيادتها من أول لقاء أن ادفع هذا المبلغ لأنهي هذا الموضوع.. إلا انها أصرت على استمرار التحقيق حتى تتوصل إلى الفاعل الحقيقي الذي كان وراء تغريم الحكومة مبلغ خمسة واربعون جنيها.. والذي لم نتوصل إلى هويته وظل مجهولاً حتى يومنا هذا.

13 - حانوتي تحت الطلب

عندما كنت اعمل في مستشفى البدرشين.. كان هناك عاملا بالمستشفى يعمل (حارس ليلى) .. وباقي الوقت يمارس عملا اضافيا يدر عليه دخلا لابأس به.. كان العمل الآخر هو.. حانوتي!

كان يتجول بصفة دورية في اقسام المستشفى انتظارا لأى حالة وفاة تحدث في الاقسام الداخلية .. فيقوم بالاتفاق مع أهل المتوفي على تجهيز كل ما يلزم من كفن وتغسيل وخشبة.. إلى آخرة.. وبأسعار تناسب الجميع.

وكان يجلس دائمًا في بوابة المستشفى ينتظر بشغف أي حادث يأتي مصابوه إلى الاستقبال .. املا في الفوز بمتوفي أو أكثر.

لذلك كنا جميعا نتشاءم منه ونتجنب محادثته رغم أنه كان خفيف الظل ويحاول دائمًا اكتساب صداقة الأطباء والتمريض بشتى الطرق.

ولا انسى ذلك اليوم عندما كنت نوبتجى في المستشفى مع نواب الجراحة والنساء .. فوجئنا في السادسة والنصف صباحًا بمن يطرق باب السكن ليوقظنا .. قمت بسرعة وفتحت الباب فوجدته أمامي وعلى وجهه علامات الانشراح.. قال في حماس:

استعدوا يا دكتور مهاب.. انده زميلك وتعالوا.. الاسعاف بلّغتنا بالتليفون أن في حادثة عربية.. وفي مصابين جابيين في الطريق.. يامسهل!

كدت أن اصفعه على وجهه ولكنى تراجعت.. ايقظت زملائي وارتدينا ملابسنا وتوجهنا إلى الاستقبال.. وصل المصابون وكان من بينهم للأسف فتاة متوفية.. ولكن خاب رجاء صاحبنا الحانوتي لأن أهل الفتاة أتوا وأصروا على اصطحاب جثتها إلى القاهرة لدفنها بمعرفتهم.

وكان لي معه موقف آخر يدعو إلى الضحك.. كان له بعض الاقارب تم حجزهم في قسم الباطنة لاشتباه اصابتهم بتسمم غذائي.. وكانت الاجراءات تقضى ببقائهم تحت الملاحظة لحين تحسن حالتهم وأخذ اقوالهم عن طريق الشرطة.. ولكنهم لم يصبروا وارادوا الخروج من المستشفى.. كنت وقتها نوبتجى بالقسم وطبعًا رفضت خروجهم وأمرتهم بالبقاء لحين حضور مندوب من الشرطة

وأخذ اقوالهم .. اشتكوا إلى قريبهم الحانوتي الذي ادعي الشجاعة وقال لهم: روَّحوا بيوتكم

وعلى مسؤوليتي أنا.

كان ذلك بالطبع مخالف للقانون حيث يعتبر المريض المحتجز بالقسم الداخلي تحت وصاية المستشفى إلى أن يتحسن ويأمر له الطبيب بالخروج.. وفي حالة خروجه دون اذن الطبيب يتم ابلاغ قسم الشرطة واتهامه بالهروب من المستشفى حتى تخلى إدارة المستشفى مسؤوليتها إذا ما حدث له مضاعفات بعد خروجه.

وعندما اكتشفت واقعة الهروب .. أمرت عامل السويتش بإبلاغ قسم الشرطة.. فتوجهت عربة الشرطة إلى منزل الهاربين وتم القبض عليهم وارجاعهم إلى المستشفى.. خصوصًا أنه كان هناك محضر تسمم لم يتم إغلاقه أو التوصل إلى أسبابة.

وعندما حضر المدعوون إلى المستشفى في صحبة الشرطة.. كان أول ما فعلوه هو الامساك بقريبهم الحانوتي وضربة علقة ساخنة.. جزاء لما سببه لهم من فضيحة بعد أن شجعهم على الهرب من المستشفى واقنعهم بان كل شيء تحت سيطرته.

14 - إنذار بالقتل

الاعتداء على الأطباء في المستشفيات أصبح خبرًا معتادًا لا يثير الانتباه.. مثلة مثل أخبار الاحوال الجوية وأسعار العملات!.. نمر عليه بسرعة ونتأسف قليلًا ثم ننساه فور الانتهاء من قراءته.

وقد ظللت طوال فترة عملي في الوحدات الصحية والمستشفيات أتجنب أي اشتباك مع المريض أو أهلة.. وأتحاشى أي صدام يؤدى إلى سخونة الأجواء وتوتر الأعصاب.. وكنت دائمًا أوثر السلامة وانسحب من أي موقف ينذر بالعنف والشجار.

ولقد ذكرت من قبل الموقف الذي حدث معي في مستشفى الساحل وقت أن كنت طبيب امتياز وكيف انتهي الموقف بوقوع طرفي المشاجرة في صدام مع بعضهما ونجاة الطاقم الطبي..

واذكر أثناء عملي في مستشفى البدرشين كنائب باطنة.. أني كنت اجلس في صالة السكن مع نائب الجراحة ونائب النساء نشاهد برامج التلفزيون ليلًا.. عندما فوجئنا بثلاثة اشخاص من النوع الفولاذي يقتحمون علينا السكن.. نظر الينا كبيرهم نظرة حادة وقال بصوت أشبه بالنهيق:

فين الدكتور عبد الصيد؟

اعتدلنا جميعا في جلستنا .. ووقف الدكتور عبد السيد نائب الجراحة وقال: ايوة.. في حاجة؟

قال صاحبنا وقد ارتفع نهيقه:

اخويا مرمى فوق بقالة ساعتين ومافيش حد عبرة.

عبد السيد: اخوك مين؟

النهيق: مسعود اللي هيعمل عملية الذائدة

قال عبد السيد وهو يحاول أن يكون ودودا:

ماتقلقش عليه.. حالته مستقرة.. احنا مستنيين لما دكتور البنج يوصل وندخله العمليات.

هنا رد عملاق آخر كان يقف خلف العملاق الاول:

احنا لسة حنستنى بسلامته لما يشرف.

واعقبة العملاق الثالث:

دا على بال مايبجى بتاع البنج يكون الواد مات.

وانهي العملاق الاول هذا الحديث بالخلاصة:

الواد دا لو جرالة حاجة حتطير فيها رقاب.

قال الجملة الاخيرة بنبرة هجومية وهو يقترب من الدكتور عبد السيد وخلفة رفيقاه.. توقعت أن يبدأ الهجوم على عبد السيد .. نظرت إلى نائب النساء فلم أجده.. غافلنا جميعا وتسلل إلى الخارج ولم يبقى سواي .. أي أنهم بعد أن ينتهوا من عبد السيد سيأتي الدور على.

وقفت واقتربت ببطء من سور البلكونة.. كنا في الدور الأرضي والبلكونة تطل على فناء المستشفى.. قررت القفز من سور البلكونة عند أول حركة عنف تصدر منهم تجاه عبد السيد.. على الأقل اذهب واطلب نجدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من عبد السيد!

ولكن سارت الامور إلى الهدوء.. استطاع عبد السيد امتصاص غضبهم واقنعهم بأنه لا خوف على اخوهم.. وبان طبيب التخدير اكد أنه في طريقة إلى المستشفى وسيصل بعد دقائق.. وتعهد بأن يخرج اخوهم من حجرة العمليات وهو في اتم صحة وسعادة.

اقتنع العمالقة بالكلام.. وانسحبوا كما دخلوا الصالة.. تنفسنا الصعداء.. ورجعت إلى مقعدي وجلست.. نظرت إلى عبد السيد فوجدت وجهه شديد الاصفرار.. وقبل أن انطق بكلمة نظر إلى وقال: أنت مال وشك اصفر كدة يامهاب؟

14 - معركة في الاستقبال

وبمناسبة العنف تجاه الأطباء.. لابد أن اذكر تلك الواقعة التي لم تحدث معي.. انما حدثت مع صديق لي يدعى (مراد) .. كان يعمل كنائب باطنة في استقبال مستشفى بولاق ابو العلا .. عندما وصل إلى الاستقبال شاب مصاب بطلقة نارية في صدرة.. كانت حالته حرجة.. ورغم أن نائب الجراحة حاول إسعافه بشتى الطرق إلا أنه اسلم الروح قبل دخوله لحجرة العمليات.. عندئذ ثار أقاربه واتهموا نائب الجراحة بالتسبب في وفاته لتأخره في إدخاله حجرة العمليات.. واخطأ نائب الجراحة خطًا فادحا عندما تجرأ وقال لاحدهم:

أنتوا جايين تتشاطروا علينا احنا.. روحوا اتشطروا على اللي ضربة بالرصاص.

وكأنه اعطى اشارة البدء في القتال.. هجم الحاضرون على طاقم الاستقبال الذين جروا في كل اتجاه هربا منهم.. ثم أخذوا في تكسير كل شيء تصل إليه ايديهم والبحث عن أي شخص يرتدى بالطو ابيض للنيل منه.

كان صديقي مراد في حجرة الملاحظة يعلق المحاليل لسيدة عجوز.. سمع مراد الجلبة والضوضاء فايقن أن هناك هجوم برى يشنه هؤلاء الغاضبون على من في الاستقبال.. خشى مراد أن يخرج من الحجرة حتى لا يشاهده أحدهم ويقوم بالتعامل معه فبقى بالداخل.. ولما كان هناك احتمال أن يقتحم أحد المهاجمون حجرة الملاحظة ويجده فريسة سهلة أمامه.. فقد هداة تفكيره إلى خلع البالطو الطبي.. ثم نام على سرير بجوار سرير المريضة العجوز وكشف بطنة!

وبالفعل.. دخل أحد المهاجمين ونظر إليه.. فصرخ مراد قائلًا:

اه يا بطني.. فين الدكاترة ولاد ال.. .. اللي هنا؟

ادعي أنه مريض!.. وبالفعل خرج المهاجم من الحجرة بعد أن اقتنع بأنه لا يوجد أطباء بالداخل .. وكادت الحيلة أن تفشل عندما صاحت السيدة العجوز مخاطبة مراد: يا دكتور تعالى شوف المحلول.

وهنا صاح مراد مسرعًا: ابوس ايدك ياست.. بلاش تقوليلي يا دكتور لأحد يسمعك.

وأخيرًا انسحب المهاجمون ونجا مراد.. وجاءت الشرطة متأخرة كالعادة لتعاين الاستقبال المحطم.. رغم أن قسم الشرطة يقع ملاصقًا لباب الاستقبال!

15 - حالة تسمم

من بين الاف الحالات التي وفقني الله إلى علاجها وكان شفائها بفضلة أولًا وأخيرًا.. كان هناك حالة لا يمكن أن انساها .. حيث وفقني الله إلى انقاذها قبل خطوات من وفاتها!

كان هذا في عيادة الخطاطبة التي عملت بها لمدة ثلاثة أيام فقطّ!

جاء رجل في الثلاثينات من عمره وقال أن زوجته مريضة في المنزل ويريد طبيب للكشف عليها.

ذهب الطبيب (صاحب العيادة) معه إلى منزله وبقيت أنا بالعيادة.. بعد حوالي نصف ساعة عاد الطبيب وسألته عن الحالة فقال انها تعانى من آلام بالبطن وقيء.. وشخص الحالة على انها (دور برد) ووصف لها بعض الادوية والمسكنات.

بعد حوالي ساعة فوجئنا بزوج المريضة يحضر إلى العيادة مصطحبا زوجته التي كانت في حالة اعياء شديد وعدم اتزان.. قام زميلي بتركيب بعض المحاليل لها وإعطائها بعض الحقن المسكنة.

استمرت حالة المريضة في التدهور ودخلت في غيبوبة وأخذت تتنفس بصعوبة مما دعا الطبيب إلى مساعدتها على التنفس عن طريق الأمبوباج واستنشاق الاكسجين.

كان قد حضر إلى العيادة فريق من اقارب الزوج والزوجة في انتظار أن تتحسن الحالة ولكن ذلك لم يحدث.. ودخلت المريضة في غيبوبة عميقة.

سأل أحد اقارب المريضة الطبيب الآخر عن حالتها.. فهز الطبيب راسة في آسى وقال:

احنا بننفخ في قربة مقطوعة!

لم اقتنع بما يحدث.. قررت أن افكر تفكيرا اكاديميا.. ماهي اسباب هذه الغيبوبة العميقة؟.. انفردت بنفسي في إحدى الحجرات وأخذت استعرض اسباب الغيبوبة كما درسناها .. بدأت استبعد الاسباب التي لا تنطبق على هذه الحالة تباعا إلى أن وصلت إلى

سبب لم نراجعه.. التسمم!

هل نظرنا في حدقة عينيها؟.. لا!

أحضرت مصباح صغير وتوجهت إلى المريضة ونظرت في حدقة عينيها فوجدتها في مثل حجم رأس الدبوس.

إنها حالة تسمم فعلًا.. أما بمادة الهيروين (وهذا مستبعد طبعًا) .. وإما بمركب الاورجانوفوسفورس (المبيدات الحشرية)

صرخت فيهم: دي حالة تسمم.. انزلوا بسرعة هاتوا حقن أتروبين.. كان الأتروبين هو المضاد **Antidote**)) لحالة تسمم المبيدات.

وضعنا حقن الأتروبين في المحلول.. بعد دقائق بدأت المريضة تنتعش وفتحت عينيها.. وشيء فشيء افاقت ووقفت على قدميها.

لا استطيع أن اصف لكم كمية الشكر التي وجهت لي من أهل السيدة .. الذين كانوا فقدوا الامل في نجاتها وبدءا بالفعل في الاستعداد لمراسم الدفن!

وفي نفس الوقت .. التفت أهل الزوجة إلى الزوج وقالوا: حسابنا بعدين!.

اتضح أن بين الزوج وزوجته مشاكل كثيرة.. واتهم أهل الزوجة زوجها بوضع السم لها في الطعام لينهي حياتها.. ولكن الله انقذها.. وكنت أنا الوسيلة.

16 - ممثل فاشل

كانت الساعة قاربت الواحدة صباحًا عندما هدأت الامور في استقبال مستشفى بولاق الدكرور .. كنت مسؤولًا عن قسم العناية المركزة والاستقبال في هذه الليلة.. وبعد فترة عمل شاقة شعرت بالجوع.. كانت المستشفى لا تصرف وجبات للأطباء.. الوجبات للمرضى فقط!

قررت الخروج من باب الاستقبال والتوجه إلى أي محل اطعمة لشراء شيء يؤكل .. لم أجد سوى محل فطير مازال يعمل حتى هذه الساعة.. اخبرني البائع بكل فخر (أنه بيعمل بيتزا ماحصلتش) !

انتظرت حتى أنتهي من تحضير البيتزا اللي ماحصلتش وأخذتها ورجعت إلى المستشفى.. دخلت من باب الاستقبال فوجدت الدنيا مقلوبة!

كانت سيارة الاسعاف قد احضرت مريضا مسنا يقترب من السبعين.. وكان بصحبته ابناه.. افهمهم المسعف-جزاه الله- أن والدهما في غيبوبة شديدة ويحتاج إلى دخول العناية المركزة فورا لعمل رسم مخ ورسم قلب واشعة وتحاليل ومساج إذا لزم الأمر!

ولما لم يجدا نائب العناية المركزة -الذي هو أنا- وقت وصولهما.. فقد هاجا وماجا وأخذا يهددان بأفظع الامور إذا ما مات والدهما قبل دخول العناية.

ما أن دخلت من باب الاستقبال حتى اسرعت الممرضة قائلة: الحقنا يا دكتور مهاب.. الراجل شكله حيموت.

وضعت البيتزا في حجرتي وتوجهت إلى المريض لأكشف عليه.. ووقف ابناه واحد عن يميني والآخر عن يساري حتى لا أهرب!

وجدت المريض راقدا على ظهره مغلق العينين ويتنفس بطريقة عجيبة.. يفتح فمه إلى اخرة ويأخذ شهيقا عميقا اقرب إلى الفحيح!.. ثم يخرجه بصوت أشبه بفرقعة الشكمان! ..

طريقة عجيبة للتنفس لم ندرسها من قبل في كلية الطب.

بالطبع ايقنت أنه يمثل الإغماء ويدعى الغيبوبة ويأتي بحركات غريبة حتى يوحى لمن حوله أنه في النزع الأخير!.. أمرت الممرضة أن تحضر زجاجة رذاذ الإفاقة .. ما أن رشيت (بخة) من الزجاجة أمام أنفة حتى فتح عينية وبدأ في السباب بأفظع الالفاظ والشتائم.. لم يكن السباب موجها لي .. بل لأبنائه . ياكلاب وياولاد ال.. .. .. .. اية اللي جابكم.. مش عاوز اشوف خلقكم.. يا.. يا.. .. يا.. .

ثم ارتمى مرة أخرى على السرير مدعًيا الإغماء للمرة الثانية!.. رشة أخرى أشد من الاولى قفز بعدها من على السرير وأخذ يواصل الشتائم لأبنائه.

اتضح أن هناك مشكلة مع أبناءه اضطرته إلى تمثيل الاغماء والغيبوبة للتأثير عليهم.. ولكنه للأسف كان ممثلا فاشلا.

تركتهم وتوجهت إلى حجرتي لأتناول البيتزا قبل أن تبرد.. وقبل أن ابدأ في الاكل سمعت طرق على باب الحجرة.. فتحت الباب فوجدت أحد ابناء المريض.. قال لي: مش ممكن ياباشا نحجزه عندكم في العناية كام يوم ؟

قلت: احجزه ليه.. هو ماعندوش حاجة.

قال: عشان يريح أعصابه ويهدى شوية!

قلت: العناية هنا مش منتجع سياحي.. خدوه البيت وحاولوا تحلوا مشاكلكم مع بعض.

اغلقت الباب وتوجهت إلى البيتزا.. كانت فعلًا بيتزا ماحصلتش.. لأنى بمجرد ما أن تناولت قضمه منها حتى القيت بالباقي في الزبالة.. وفضلت ليلتها أن انام بدون عشاء حتى لا أصاب بالتسمم البيتزاوى!

17 - هاللو منصور

من أظرف المواقف التي حدثت أثناء عملي بالمستشفى الخاص.. والتي ظللنا نذكرها لمدة طويلة ونضحك من شدة طرافتها.. تلك التي حدثت في قسم الباطنة الداخلي بالمستشفى.

كانت هناك ممرضه تدعى (نعمة) .. استلمت نوبتجيتها المسائية بالقسم وبدأت في تحضير علاج المرضى المدون في تذكرة كل منهم.. كان هناك مريض يدعى (منصور) .. دخل صباحًا إلى القسم وكان من ضمن العلاج الموصوف له حقنة مضاد حيوي.. جهزت نعمة الحقنة وذهبت إلى سرير المريض الذي كان راقدا على السرير ووجهه إلى الحائط.. قالت له نعمة: الحقنة ياعم منصور.

رفع المريض الجلابية وأعطته نعمة الحقنة.

بعد حوالي نصف ساعة فوجئت نعمة بمريض يأتي اليها وهي تجلس على الكونتر ويقول:

أنا مكتوبلى حقنة اخدها الساعة ستة.

قالت: اسمك اية؟

قال: منصور.. في سرير تمانيه.

قالت: ما أنا اديتك الحقنة ياعم منصور.

قال: ماحصلش.

قالت: لا اديتهالك.. أنا متأكدة.

احتدم النقاش بينهما.. نعمة تصر على انها أعطته الحقنة.. ومنصور يقسم أنه لم يأخذها.

وفجأة.. خرج رجل من نفس حجرة منصور وقال وهو مطأطأ الرأس:

أنا اللي خدت الحقنة بدالك يامنصور!

كان هذا الرجل قريب منصور جاء ليزوره.. والذي حدث أن منصور خرج إلى البلكونة ليشرب سيجارة.. ولما كان هذا ممنوعا فقد اوصى قريبة أن ينام مكانة على السرير حتى لا يلاحظ أحد غيابة.. وعندما اتت نعمة بالحقنة خاف قريبة أن يخبرها أن منصور في البلكونة حتى لا تكتشف أنه يقوم بالتدخين.. وتركها تعطيه الحقنة!

وعندما سألناه: إزاي تأخذ الحقنة بدل منصور؟

قال في سذاجة: اصلها حاجة ماتضرش.. وبعدين أنا قريبة مش غريب يعنى!

ذكرنا بمسرحية هاللو شلبي.. عندما كان عبد المنعم مدبولي يجاوب الطبيب بدلا من سعيد صالح ويقول له: ما هو أنا قريبه.

18 - قبل الختام

لم تنته الذكريات بعد.. فهي كموج البحر تندفع في تتابع.. وكلما وصلت إلى شاطئ الإدراك .. اندفعت موجات أخرى خلفها.. آتية من عمق النسيان.

وربما كان هناك متسع من الوقت لكتابة باقي الذكريات.. وخصوصًا تلك التي توليت فيها مناصب قيادية وإشرافية بالصحة.. والتي ذخرت بالعديد من العجائب والغرائب والمتناقضات.

فالبحر دائمًا.. وابدًا.. لا ينضب.

فهرس

- اهداء 3
- البداية 5
- أعدادي طب 7
- كلية طب عين شمس 9
- سنة الامتياز 26
- الاستقبال والطوارئ 30
- التكليف 38
- أسوان 40
- الوحدة الصحية بالعدوة 45
- طبيب في وحدة العدوة 51
- ابو سمبل 63
- وداع في العدوة 69
- الجيزة 71
- برقاش 73
- بنى سلامة 79
- ذكريات بنى سلامة 83
- نائب قلب واوعية دموية 93

- مستشفى البدرشين 95
- مستشفى بولاق الدكرور 100
- بين البدرشين وبولاق الدكرور 103
- بنى سلامة مرة أخرى 108
- القطا 113
- مستشفى البدرشين-تاني مرة 118
- الرعاية الاولية 122
- المستشفيات الخاصة 127
- العيادات الخاصة 131
- المستوصفات والعيادات الشاملة 133
- حكايات ومواقف لا تنسى 136